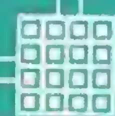


تميم بن أوس الداري

رضي الله عنه

راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين

تأليف
محمد محمد حسن شراب



دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٢٩

تميم بن أوس الداري

رضي الله عنه

راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين

تأليف
محمد محمد حسن شُرّاب

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

هذا الرجل

١ ـ تميم بن أوس الداري راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين

الحافظ أبو نُعيم

٢ ـ روى عنه سيِّد البشر ﷺ خبرَ الجسّاسة وذلك في البخاري ومسلم. وناهيك بهذه المنقبة الشريفة.

الحافظ الخزرجي

٣ ـ وَفَد تميم الداري سنة تسع فأسلم فحدّث عنه النبيّ ﷺ على المنبر بقصة الجساسة في أمر الدجال، ولتميم عدة أحاديث. وكان عابداً تلّاءً لكتاب الله.

الإمام الذهبي

٤ ـ كان تميم الداري يختم القرآن في سبع ليال.

ابن سعد عن أبي قلابة

٥ ـ كان كثير التهجد قام ليلةً بآيةٍ حتى أصبح.

الحافظ ابن حجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهـداء

الـذين لهم دينٌ في ذمتي، وأصحـابُ الفضـل عليَّ - من المخلوقين بَعْد الوالدين والزوج والأولاد - كثيرون، وأعلاهم مَرتبةً، مَنْ كان لهم الفضلُ في الأخذ بيدي إلى طريق العلم، طريقِ النور، وطريقِ الكلمة التي تفتحُ مغاليق الكون المجهول، . . وكانت بدايةُ الطريق، عندما تنبّهتُ من غفلتي، بكلمة قالها شيخي وأستاذي، العالمُ المجاهدُ الشيخُ سليم سالم شراب، رحمه الله.

قال لي: لماذا لا تطلب العلم بالأزهر؟ وبعد أسبوع كان طلبُ الالتحاق عندي، وفي نهاية الأسبوع الثاني كان ينتظرني في محطة سكة حديد القاهرة، قادماً من خان يونس عَبْر صحراء سيناء، وما اطمأنّ حتى هيأ لي المسكن في (رواق الشوام) بجوار الجامع الأزهر، فكانت بدايةُ الطلب الحقيقية في الجامع الأزهر، نتحلق حَوْلَ الشيخ على الحصير. . ونشأ التلميذُ وترعرع، ثم فرقت بيننا الأيامُ، نلتقي كلَّ عقد من السنين ساعةً من الزمن، فلا يرتوي التلميذُ من رؤية أستاذه ولا يعرفُ الأستاذُ ما وصل إليه تلميذه، ثم انقطع اللقاءُ، فقد كان هو محبوساً داخل أسوار الأعداء، وكان

التلميذُ وراءَ الأسوار. حرمه الأعداء من مغادرة خان يونـس لأنه كان يجول في بلاد الإسلام ليهيىء مقاعد الدراسة للشباب الدعاة إلى الله كي يعودوا وينشروا النور في دنيا الظلام.. ومع ذلك فقد تغلّب على الصعاب وكان وحده مدرسة وجامعة تخرّج فيها أجيالُ الدعاة، وشباب الجهاد الإسلامي، ومات رحمه الله قبل أن يرى جنودَه وهم يهزّون سلطان الصهيونية بالحجارة.. فأردتُ أن أقول له: نم هانئاً يا أبا همام، فقد أثمرتْ جهودُك، ولن ينساك تلاميذك، ولك منهم الدعاءُ بالرحمة والغفرانِ، ولك ثواب صدقاتك الجارية التي لا ينقطع فيضها بعد مماتك، ومنها هذا الكتاب الذي صنعتَه لإحياء سيرة جارك، ونزيل بلدك، تميم الداري رضي الله عنه.

فإلى خالق الكون أضرعُ، أنْ ينفع به ويكثُر مريدوه، لتكثر الدعوات الصالحات من قرائه، وتكـون في ميزانـك هديـة من تلميذك.

محمد محمد حسن شرّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

وَبَعْدُ: فما الذي دعاني إلى اختيار صحابيّ ليكون أحدَ سلسلة «أعلام المسلمين» ولماذا خصصتُ تميماً الداريَّ بهذه الترجمة وما الطريقُ التي سلكْتُها في عرض سيرة هذا الصحابي..؟

لقد وَقَفْتُ المقدمة، للإجابة عن هذه الأسئلة، لتكون دليلَ القارىء إلى مضمون البحث، ولتكون مفتاحاً لفهم شخصية المُتَرجَم له، والهدف الذي نتطلع إليه من وراء قراءَة هذه الترجمة. فأقول:

الصحابةُ رضوان الله عليهم، ناسٌ من الناس، ولكنهم متميزون عن أتباع محمد ﷺ بخصائص تجعلهم متفردين.

والفرق بين الصحابة، والتابعين ـ والتشبيه للتمثيل فقط ـ ليس في كون الصحابيّ رأى رسول الله ﷺ، وكون التابعي رأى الصحابي ولم ير رسول الله.. فهذا اصطلاح تاريخي أو حديثي، ولكنَّ الفرق بينهما هو الفرقُ بين تلميذ أخذ عن شيخه مُشافهةً، بالجلوس إليه، ومخالطته في حِلّه وترحاله في سلمه وحربه، وبين تلميذ أخذ العلم عن طريق الصحف التي كتبها ذلك الشيخ. فالمجالسة والمُشافهة

فيها من العلم، والتأثير ما لا يمكن أَخْذه من كتاب، حيث يفقدُ الصَّحَفيُّ، سِحْر اللقاء، وروح المجالسة، والتعليم بالقدوة، وهذه أمور قد يدركها بعض التابعين بالمعايشة الروحية والاستحضار الذهني، ولكنها لا تنقاد إلا لقلةٍ من الناس.

وإذا كان هذا حال التلميذ مع شيخ ـ أيِّ شيخ ـ لم يرث من بحر النبوة إلا قطرة، فكيف يكون حال الصحابي مع رسول الله، وقد صحبه والوحي يتنزل عليه، ثم يتلوه على أصحابه، فينهلون من معين التلقّي العلوي، ليس من واسطة إلا النبي الأمين.

ومن هنا تنبع علويّة القُدوة بالصحابة رضوان الله عليهم، ومن هنا نعرف لماذا تُعدّ أقوال الصحابة وأعمالهم من السنة المتبعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم» [رواه البيهقي]، وقال ﷺ: «النجوم أَمَنَةٌ للسَّماءِ فإذا ذهبت النجومُ، أتى السماءَ ما تُوعَد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهبتْ أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون» [رواه مسلم في كتاب الفضائل].

وذَهاب الصحابة، لا يُراد به ـ والله أعلم ـ الموتُ، فالموتُ آتٍ لا ريب فيه، وإنما المرادُ به ذَهابُ القدوة والعلمِ والتأثيرِ، أو نقصانه، أو أنَّ معنى الذهاب ترك القدوة، وعدم استحضار المُقْتَدَىٰ به في النفس، حتى بعد موته. وقوله عليه السلام: «خير القرون قرني.. الحديث» [رواه البخاري] إنما جاءت الخيرية من القدوة برسول الله وامتثال أوامره، والبقاء على العهد بعد وفاته، وليسَ لمجرد الرؤية فقط.

ومن هنا نفهم لماذا وجَّه أعداء الإسلام سهامهم إلى صحابة رسول الله ﷺ، وأخذوا يلفّقون لهم المطاعن الباطلة، إنهم يريدون إبطال القدوة بهم، وتخفيف شدة تأثيرهم في نفوس المسلمين. والصحابة كثيرون، حملوا عن رسول الله الشريعة، وحملوا عن رسول الله القدوة من جميع جوانبها، كل صحابي يحمل منها طاقته، ولا يستطيع واحدٌ أن يحملها كلها، ومجموع الصحابة هو مجموع القدوة برسول الله ﷺ.

وقد نقل ابن حجرٍ في مقدمة «الإصابة» عن الخطيب قوله: (عدالةُ الصحابة ثابتةٌ معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس﴾.. في آيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديثَ شهيرةٍ يكثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطعَ بتعديلهم، ولا يحتاج أحدُ منهم إلى تعديل، مع تعديل الله لهم.. على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرنا لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها: من الهجرة والجهادِ ونُصْرة الإسلام وبذل المهج والأموال، والمناصحة في الدين وقوة الإيمان.. القطعَ على تعديلهم، والاعتقادَ بنزاهتهم، وأنهم كافةً أفضلُ من جميع الخالفين بعدهم، والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم.. وقال: إذا رأيت الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله فاعلم أنه زنديق، وذلك أنَّ القرآن حقٌّ، والرسول حقٌّ، وما جاء به حقّ وإنما أدَّى إلينا ذلك كلّه الصحابةُ، وهؤلاء ـ الأعداء ـ يريدون أن يجرّحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة...).

أما اختيارُ تميم الداري، ليكون أحدَ سلسلة (أعلام المسلمين) فذلك أنه من الصحابة الذين استهدفوا بالطعن، وبخاصة في أيامنا، من المستشرقين وتلامذة المستشرقين من العرب، فأرادوا أن يطعنوا ـ عن طريق الطعن فيه ـ بالإسلام. فتميم الداري: كان نصرانياً قبل إسلامه، فتتبّعَ المستشرقون أقواله وأفعاله ووجدوا فيها شَبَهاً بما كان عند النصارى، وتوصّلوا إلى نتيجة خبيثة تقول: إن تميماً متأثرٌ في إسلامه بالنصرانية، ثم أثَّر تميم في الإسلام بما نقل إليه من الأفكار النصرانية، وبهذا لا يكون الإسلام ـ كذبوا ـ وحياً من السماء ولا يكون محمدٌ نبياً ـ كذبوا ـ وهم يعرفون في قرارة نفوسهم ـ وينكرون في العلن ـ أن الأديان كلَّها من السماء، وبالتالي، فلا بدَّ أن تتشابه الأديان في بعض ما تأتي به، ثم تختلف، لاختلاف النبيّ والقوم والزمن. .

ولهذا كانت شخصية تميم، تحتاج إلى جلاء، ولكن هذا الجلاء، يعتمد على المنهج الإسلامي الفريد في تحقيق النصوص، وهو المنهج الذي يعتمد على الرواية المسندة ودراسة رجال السند، ودراسة المتن، وقياسه إلى ما صح وثبت من المتون التي لا يتطرق إليها الشك. . وهو المنهاج الذي يرتضيه أهل الحديث وهو الذي يجب أن يكون عندما ندرس ترجمة الصحابيّ، ولذلك كان جلّ اعتمادي على كتب الحديث أولاً، ثم كتب التراجم الموثوقة، ففيها القول الحقّ عن الصحابة رضوان الله عليهم فإذا لم نجد بُغيتنا فيها انتقلنا إلى كتب التاريخ العامة مع الحذر مما تروي، لأنها تجمع بين الغثّ والسمين من الأخبار، وقد نأخذ بالقول الضعيف، إذا كان لا يتعلق بالحلال والحرام من حياة الصحابي.

وحاولت أن تكون الترجمة، معرضاً للثقافة التاريخية والفقهية، لأننا نترجم لصحابي شُهر بين الصحابة بموضوعات لها مساس بالعقيدة والعبادة، والمعاملات، وجوانب فقهية كثيرة.

وقسمت الكتاب إلى سبعة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن سكنى العرب في بلاد الشام منذ أقدم العصور، وهم العرب الكنعانيون من العرب البائدة، ثم تتابعت هجرات العرب الباقية، ثم جاء العربُ المسلمون، وأردت أن أثبت بالدليل عروبة بلاد الشام قبل الإسلام، وأن العرب المسلمين ليسوا غرباء، وإنما هم مُحَرِّرون لجزء من وطنهم، وناشرو العقيدة بين إخوانهم.

وفي الفصل الثاني: بينت أن قلوب عرب الجزيرة المسلمين كانت تهفو إلى بلاد الشام، وتتطلع إلى فتحها منذ رحلة الإسراء والمعراج، وللبشارات التي نطق بها رسول الله ﷺ.

وفي الفصل الثالث: تحدثت عن نسب تميم وموطنه: فهو عربي لخمي كان يسكن فلسطين قبل الإسلام.

وفي الفصل الرابع: تحدثت عن إسلام تميم، ووفادته على رسول الله مع رهطه.

وفي الفصل الخامس: تحدثت عن الإقطاع النبوي لتميم، وأثبت وجوده، وبقاءَه بأيدي ذريته إلى القرون المتأخرة.

وفي الفصل السادس: تحدثت عن مناقبه ومآثره في الإسلام، مستقاة من كتب الحديث الشريف.

والفصل السابع: خصصته لمسند تميم الداري، والأحاديث التي

رواها عن النبي ﷺ، وبوبتها حسب أبواب الفقه، فكانت ستة عشر باباً. . وقد بذلت الجهد ليكون البحث شاملاً جميع الجوانب في حياة تميم الداري ومع ذلك فإنني لا أدعي الشمول، ولا أدعي أنني قدرت على إعطاء البحث كل حقه من التمام، فالنقص من صفات أعمال الخَلْق، ولا يكون التَّمام إلا لصُنع الخالق سبحانـه وتعالى. .

وما التوفيق إلا من عند الله.

وكتبه

محمد محمد حسن شرّاب

المدينة المنورة - حي النصر

الفَصل الأوّل
العَرب في بلاد الشام

١ ـ جغرافية بلاد الشام (الوصف العام).
٢ ـ اسم الشام وحدودها.
٣ ـ مغريات العيش بالشام.
٤ ـ العرب يعمرون الشام منذ أقدم الأزمان.
٥ ـ العرب الباقية امتداد للعرب البائدة.
٦ ـ القبائل العربية التي استقرت في الشام قبل الإسلام.



تمهيد

لماذا نتحدث عن عروبة بلاد الشام؟.

تميمُ بن أوس الداري: وُصف بأنه عابدُ أهل فلسطين، وفَد على رسول الله ﷺ مع رؤساء قومه من فلسطين أو من ديار الشام...

وتميم الداري: عربيّ لخْميٌّ من أرومة عربية موغلة في التاريخ.. ولكن قارىء التاريخ يسأل: لماذا أُضيف تميمٌ إلى أهل فلسطين؟ ومتى سكنَ تميمٌ وقومُه فلسطين؟ هل سكنها بعد الفتح الإسلامي أم قبله؟ وإذا سكن فلسطين قبل الفتح الإسلامي: هل يعني ذلك أن العرب كانوا يسكنون بلاد الشام، ومنها فلسطين قبل الإسلام؟ وإذا سكنوا فلسطين، أو ديار الشام قبل الإسلام، متى كان عهدهم بذلك؟ هل كانت هجرة قريبة، أم كان موطن حضارة موغلة في التاريخ؟ وإذا كان هناك استيطان قديم: فما دوافعه ومتى كان ذلك؟

كل هذه الأسئلة تحتاج إلى أجوبة، بل لا يستطيع القارىء فَهْم قصة حياة تميم الداريّ إلا إذا عرف أجوبة هذه الأسئلة.

وتجلو أجوبة هذه الأسئلة أمرين:

الأول: حياة تميم الداري.

والثاني: تلك المغالطة التي انهمك المؤرخون الصليبيون واليهود في ترويجها، زُوراً وبهتاناً، خصوصاً فيما يتعلق ببلاد العراق وسورية ولبنان وفلسطين: وهي أنَّ العرب الذين يسكنون هذه البلاد اليوم، إنما هم أخلافُ العرب المسلمين الذين خرجوا من الجزيرة العربية عقب الفتح الإسلامي. ولقي هذا البهتان عناية لدى مؤرخي اليهود الذين أرادوا أن يُثبتوا أن عرب اليوم ليسوا إلا سكاناً جدداً حلّوا محل اليهود والرومان في تلك البلاد، لاعتقادهم أن كلَّ عربيٍّ مسلمٌ، وأن كلَّ مسلمٍ عربيٌّ، في هذه الديار.

وقد خصصت الفصل الأول، للإجابة عن الأسئلة المطروحة، لعلاقتها بموضوع البحث أولاً، ولجلاء الحقيقة البشرية في بلاد الشام ثانياً.

١ ـ جغرافية بلاد الشام (الوصف العام):

إنَّ خصائص الأرض الجغرافية والمناخية والبشرية والروحية، ذاتُ تأثير كبير في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات، وحِرْصِ الناس على تعميرها والاستيطان فيها. وليست ديارُ الشام ـ سورية والأردن وفلسطين ولبنان ـ كغيرها من البلدان، فهي ذات منزلة عظيمة في قلوب العابدين ـ من كلّ الأديان ـ وفي قلوب الذين يزورونها، ويتطلعون إلى زينة الحياة الدنيا: تحقيقاً لقول الله تعالى القديم الأزلي: ﴿سُبحان الذي أسرى بعبده لَيْلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله..﴾

الآية [الإسراء: ١] قال الزمخشري: قوله ﴿ باركنا حوله ﴾ يريدُ بركات الدين والدنيا، لأنّه مُتعبَّد الأنبياء ومهبطُ الوحي، وهو محفوفٌ بالأنهارِ الجاريةِ والأشجارِ المثمرة. وحول المسجد الأقصى: بلاد الشام.

وقال تعالى في قصة سيدنا إبراهيم: ﴿ ونجّيْناهُ وَلُوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ [الأنبياء: ٧١] قال المفسرون: الأرضُ التي بارك الله فيها للعالمين: بلاد الشام. وبركاته الواصلة إلى العالمين: أنَّ أكثر الأنبياء عليهم السلام بُعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية، وهي البركات الحقيقية[١]. وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصبِ، وطيب عيش الغنيّ والفقير. ورُوي أنَّ إبراهيم عليه السلام، خرج من العراق إلى الشام، فقيل له إلى أين؟ فقال: إلى بلدٍ يُملؤ فيه الجرابُ بدرهمٍ.

وقال المقدسيُّ في وصف الشام[٢]: إقليم الشام، جليلُ الشأنِ، فهو ديارُ النبيين، ومركز الصالحين، ومطلبُ الفضلاء، به القبلةُ الأولى، وموضع الحشر[٣] والمَسْرى، والأرضُ المقدسة،

---

(١) الكشاف، للزمخشري، تفسير سورة «الأنبياء».

(٢) «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، والمقدسي: هو محمد بن أحمد ويقال له: البشاري، وُلد في القدس، وتعاطى التجارة فتجشم الأسفار التي هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد. تُوفي سنة ٣٨٠ هـ.

(٣) إشارة إلى الأحاديث النبوية التي تذكر أن الشام أرض المحشر والمنشر، انظر «تهذيب تاريخ دمشق» لابن عساكر جـ ١/ ٤٠. وانظر تخريج فضائل الشام ودمشق، للربعي، وفيه «الشام أرض المحشر والمنشر» قال الألباني: حديث صحيح.

والرِّباطات[1] الفاضلة، والثغورُ الجليلةُ، والجبالُ الشريفة، ومُهَاجِرُ إبراهيمَ عليه السلام، وقبرُ وديارُ أيوب وبئره[2]، ومحرابُ داودَ

---

(١) الرباطات: مفردها: الرباط: ولعله يريد بها هنا: ملجأ الفقراء. والرباط أيضاً: ملازمة ثغر العدوّ، وأصله: أن يربط كلٌّ واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً.

(٢) يقول المحققون من أهل اللغة والتاريخ: أيوب النبيّ الصابر من أنبياء العرب، قبل موسى، وهو من الآدوميين العرب الذين نزلوا بين العقبة ـ على البحر الأحمر ـ وبين نهر الحسَا الذي يصب في البحر الميت وامتد ملكهم إلى بلدتي الخليل وبيت جبرين في فلسطين، كان موطنه في الخرائب التي تُسمى «العيص» في ظاهر الشوبك من أعمال معان في شرقي الأردن، ويقول الزركلي في الأعلام جـ٢ / ٣٦. (وسِفْر أيوب في التوراة عربيّ الأصل بما فيه من أسماء الأشخاص والأماكن، ومن وصفٍ لبادية الشام وحيواناتها ونباتاتها، تُرجم من العربية إلى العبرية في زمن موسى أو بعده، وقد يكون أصله العربيّ شعراً كما يدلّ عليه أسلوبه. وأدباء الغرب شديدو العناية به واسمه عندهم «جوب» وقد لقبه فكتور هيجو: «بطريرك العرب» وقال في كتابه عن شكسبير؛ وهو يتحدث عن العباقرة: إنَّ أيوب كان أديباً، وهو أول من جاء بأسلوب الفواجع، وقد ضاع شعره العربي، ولم يبق منه غير الترجمة العبرية المنسوبة إلى موسى). ويقول الأب لويس شيخو: (ولنا شاهد في سفْر أيوب على معرفة العرب لأسماء النجوم وحركاتها في الفلك إذْ كان أيوب النبي العربيّ الأصل عاش غربي الجزيرة حيث امتحن الله صبره) ويقول الدكتور جواد علي في «تاريخ العرب قبل الإسلام»: (من القائلين بأنَّ أسفار أيوب عربية الأصل والمتحمسين في الدفاع عن هذا الرأي، المستشرق مارجليوث، وقد عالج هذا الموضوع بطريقة المقابلات اللغوية ودراسة الأسماء الواردة في تلك الأسفار.

وأما بئر أيوب: فهو إشارة إلى قصة شفائه من المرض، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الأرض فتفجّر له منها الماءُ البارد فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله.

وانظر قصته في القرآن الكريم «سورة النساء، والأنعام، والأنبياء، وص»).

أقول: وأيوب عليه السلام، لم يذكر لنا القرآن أنه صاحب كتاب، وما نسب =

وبابُه، وعجائب سليمانَ ومُدُنُه، وتربةُ إسحٰق وأمُّه، ومولد المسيحِ ومهدُه، وقريةُ طالوتَ[1] ونهرُه، وموضعُ لقمان[2]، ووادي كَنْعانَ، ومدائنُ لوطٍ، وموضعُ الجنان، وقبرُ مريم وراحيل[3].. مع مشاهد لا تُحصى وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء، وأشجارٌ ومياه وآخرةٌ ودنيا، به يرقّ القلبُ، وينبسط للعبادة الأعضاء».

وقال المقدسي أيضاً يصف كورة فلسطين: اجتمع بكورةِ فلسطينَ ستةٌ وثلاثون شيئاً ولا تجتمع في غيرها. فالسبعة الأولى لا تُوجد إلا بها والسبعةُ الثانية غريبةٌ في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها وقد تجتمع أكثرها في غيرها.

أما السبعةُ الأولى: فهي قَضْم القريش (الصنوبر) والسَّفرجل، والزبيب العينوني نسبة إلى «بيت عينون»[4] في جبل الخليل،

= إليه من الأسلوب الأدبي ـ إن صح ـ فهو من كلامه.. والمعروف أن أسفار التوراة كُتبت بعد عهد موسى عليه السلام بقرون عديدة، وليس لها سند، لا متصل ولا منقطع بموسى عليه السلام، قد يصحُّ بعض ما فيها فكرةً، ولا يصح أسلوباً، والله أعلم.

(١) ولد طالوت في قرية «جَبْعة» في ظاهر القدس، وتملّك على قومه نحو سنة ١٠٢٠ ق م وقتل في إحدى معاركه مع الفلسطينيين سنة ١٠٠٤ ق م في معركة جبل فقوعة من أرض فلسطين.

(٢) لقمان: هو لقمان الحكيم، كان عبداً أسود غليظ الشفتين، وآتاه الله الحكمة، قيل: هو ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل: من أولاد آزر، عاش ألف سنة. وأدرك داود عليه السلام.

(٣) راحيل: زوجة يعقوب عليه السلام، والدة يوسف وبنيامين.

(٤) بيت عينون: إحدى القرى التي أقطعها رسول الله ﷺ تميماً الداري في نواحي مدينة الخليل، وسيأتي مزيد من الحديث عليها، عند الكلام على الإقطاع.

والدُّوري، نسبة إلى قرية «دورا» الخليل، وانجاصُ الكافوي وتين السّباعي والدمشقي.

والسبعةُ الثانيةُ: القلقاس، والجمّيز، والخرنوب، والعنّاب، والعكّوب، وقصب السكر، والتفاح الشامي.

والاثنان والعشرون الباقية: ذكر منها الأترجّ (الكباد) والنيلة، والنّبق، والجوز، واللوز، والهليون، والموز، والسمّاق، والكرنب، والكمأة، والترمس، ولبن الجاموس، وعنب العاصميّ، والتين الثمري، والطريّ».

فإذا زحف العرب قبل الإسلام إلى ديار الشام، فإنما قصدوا أرضاً تهوي إليها النفوس، وتعشقها القلوب، وتجمع بين خيري الدنيا والآخرة.

قال الشاعر البحتري يفضّل الشامَ على العراق:

نَصَبُّ إلى أرضِ العراقِ وحُسْنه
ويمنعُ عنها قيظُها وحَرورُها

هي الأرضُ تهواها إذا طابَ فصلُها
ونهربُ منها حين يحمى هجيرُها

عشيقَتَنا الأولى وخُلتنا التي
نُحبُّ وإن أضحَت دمشقُ تغيرُها

عُنيتُ بشرقِ الأرضِ قدْماً وغربها
أجوّب في آفاقها وأسيرُها

فلم أر مثلَ الشام دار إقامةٍ
لروضٍ أُغاديها وكأسٍ أُديرها

مصحّةُ أبدانٍ ونُزهةُ أعينٍ
ولهوُ نفوس دائمٌ وسرورُها
مقدّسةٌ جادَ الربيعُ بلادها
ففي كلِّ أرضٍ رَوْضَةٌ وغديرُها

وقال الشاعر أحمد بن محمد بن المدبّر في تفضيلِ الشام:

وكم بالشامِ من شَرَف وفضلٍ
ومُرتقب لدى بَرٍّ وبحر
بلادٌ بارك الرحمٰن فيها
فقدّسها على عِلمٍ وخُبر
بها غُرر القبائل من مَعدٍّ
وقحطانٌ ومن سَرواتِ فهْر
أُناسٌ يُكرمون الجارَ حتى
يُجيرُ عليهم من كلِّ وِتْر

٢ ـ الاسم والحدود:

ذكر أهل اللغة في لفظ الشام لغاتٍ: الشأْم ـ بفتح أوله وسكون همزته والشأَم: بفتح الأول والثاني، مثل نهْر، ونَهَر. وفيها لغة ثالثة وهي: الشام بغير همزة، ولغة رابعة بالمدّ، (الشآم).

.. وفي تعليل الاسم أقوال:

○ **الأول**: إذا قلنا الشام بدون همز ومدّ، يكون جمع شامة، سمّيت بذلك لكثرة قُراها وتداني بعضها من بعض،

فشبّهت بالشامات. ويناسب هذا القول أنها بمعنى: الطيّب، أو الحَسَن.

○ الثاني : وقال أهل الأثر: سُميت بذلك لأنَّ قوماً من كنعان بن حام خرجوا عند التَّفرّق، فتشاءَموا إليها، أي: أخذوا ذات الشمال فسُمّيت بالشام لذلك، ويؤيد التاريخ هذا القول: لأن سكان الشام الأوائل من الكنعانيين العرب، وقد خرجوا من جزيرة العرب واتجهوا نحو الشمال، إلى بلاد الشام.

○ الثالث : سُمّيت الشام، بسام بن نوح، وذلك أنه أول من نزلها فجُعلت السين شيناً لتغير اللفظ العجمي.

○ الرابع : سُمّيت بذلك لأنها شامة القبلة أي شمالها. قال ياقوت: وهذا قول فاسد، لأن القبلة، لا شامة لها ولا يمين، لأنها مقصدٌ من كل وجهٍ. يمنةٌ لقوم، وشامةٌ لآخرين. ولكن الأقوال المتقدمة حسنة جميعها. والله أعلم.

وأما حدود بلاد الشام: فقد قال ياقوت: حدّها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عَرْضُها فمن جبلي طيّىء من نحو القبلة إلى بحر الروم (البحر المتوسط) وما بشأمة ذلك من البلاد.

وهذا التحديد قريبٌ من التحديد المعروف في أيامنا، ويشمل فلسطين وأجزاء من شرقي الأردن، وسورية، ولبنان، ولكنه قد يضم أجزاء من إقليم المملكة العربية السعودية، لأن جبلي طيِّىء في ديار مدينة حائل، من شمال السعودية، وبهذا تدخل منطقة حائل، والجوف في ديار الشام.

٣ ـ مُغريات العيش بالشام:

قُطْر الشام، تأخذ فيه الفصول الأربعة حُكمها، وتتمّ في قيعانه وجباله أسباب النعيم. معتدل الهواء، متهاطل الأمطار والثلوج، ممرع التربة، فيه من السهول: سهل حوران، والجولان، والغوطة، والبقاع، وحمص، وطرابلس وغيرها. وفيه من المروج مرج ابن عامر، والبلقاء، وسارون. ومن الأنهار: النهر الكبير، والأردنّ، واليرموك، والعاصي، والفرات، والبارد، وبردى، والليطاني، والحصبانّي، والزرقاء، والعوجا، والأوّلي، والزهراني، والكلْب، والكابري، وغيرها.

وفي الشام: تنبت الحبوب والبقول والأشجار على اختلاف أنواعها ففي جنوبه وشرقيه تنبت النخيل، وفي سواحله الموز والبرتقال وفي أواسطه السرو والأَرْز، ويجود فيه القطن والكتان وقصب السكر.. الخ، وتصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية.

وفي أرضه ومياهه، أنواع الطيور والأسماك وتعيش فيه الجمال كما تعيش البغال وتسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم والمعزى..

٤ ـ العرب يعمرون الشام منذ أقدم الأزمان:

بلاد الشام، أرض عربية، نزلها العرب في أزمان غابرة سحيقة البُعْد ولا يُعرف تاريخ قوم على التحقيق ممن سكنوا الشام كما عُرف تاريخ سكنى العرب. لأن اسم العرب لا يقتصر على القوم الذين عاصروا الإسلام أو قبله بقليل، ولكن تاريخ العرب قديم، ولغة العرب من أقدم لغات الأرض.

قال ابن منظور في «لسان العرب»: خمسة أنبياء من العرب، وهم: محمد وإسماعيل وشعيب، وصالح وهود، صلوات الله عليهم. وهذا يدل على أن لسان العرب قديم. وهؤلاء الأنبياء كلهم من العرب، لأنهم كانوا يسكنون بلاد العرب، وأُرسلوا إلى قومهم من العرب، لأن النبيّ يُرسل بلسان قومه.

وكون العرب ينقسمون إلى بائدة وباقية، لا يعني ذلك انمحاء العرب البائدة من الوجود، وإلا كيف يستمر العمران البشري ويتصل على مرّ الأزمان؟ لقد بادت لغتهم المحكية، ولكن بقيت منها بواقٍ انتقلت إلى اللغة التي جاءَت بعدها[1]، وبادت أسماء القبائل والبطون ولم يعد أحد يعرف لها نسباً، ومع ذلك فهي الجذور

---

(١) لا شك أن لغة القبائل الكنعانية، كانت تختلف عن لغة القرآن التي نتعلمها ونكتب بها اليوم، فإنَّ بين الإسلام وبين هذه القبائل ما ينوف على ثلاثين قرناً، والأمم تتغير تقاليدها ولغاتها، بتغير الأقطار وتوالي العصور، ولكننا نلحظ الشبه القريب بين لغتنا الحاضرة (لغة قريش) وبين اللغة الكنعانية القديمة عندما نقابل كلمات من اللغة الكنعانية بلفظها الدال عليها في لغتنا الحديثة، ومن ذلك:

الكلمة الكنعانية	ما يقابلها في العربية القرشية
صَيْدون	صيد
جشور	جسر
لسن	لسان
حمور	حمار
لاهام	لحم
قرت	قرية
باراق	برق
نحس	نحاس.

البعيدة للعرب الباقية، وهذا يحصل في كل أُمة بعد تعاقب الأجيال.. فهذه القبائل العربية التي تعيش في أيامنا، وهذه الحمايل والأسر، مَنْ منها يعرف على وجه التحديد أنه ينتمي إلى قريش، أو إلى قحطان، أو إلى عدنان، أو إلى مُضر، ونزار؟

قال فؤاد حمزة في كتابه «قلب جزيرة العرب»: ومع شهرة عناية العرب بالمحافظة على أنسابها والتمسك بأحبابها، ومراعاتها لتسلسل فروعها وأقسامها، فإن من الصعوبة بمكان عظيم أن يتمكن الباحث من الوقوف على أصول جميع القبائل العربية الموجودة في الوقت الحاضر، بسبب ضياع قسم غير قليل مما كتبه الأقدمون عن الأنساب وفقدان حلقات عديدة من سلسلة الأنساب في الأعصر المتوسطة أيام ضَعْف الدولة العربية، واختلاف أمرائها وقبائلها.

وبيّن فؤاد حمزة الصعوبات التي تحول دون نسبة القبائل الحديثة إلى أصولها القديمة بما يلي:

١ ـ تباعُدُ الأنساب وصيرورة القبائل شعوباً[١] والعمائر قبائل والبطون عمائر.

---

(١) طبقات الأنساب عند العرب ست:
الطبقة الأولى: الشَّعب: وهو النسب الأبعد، الذي تنسب إليه القبائل، كعدنان، ويجمع على شعوب ويسمى شعباً، لأن القبائل تتشعب منه.
الطبقة الثانية: القبيلة: وهي ما انقسم فيه الشعب، كربيعة ومضر. وسميت قبيلة، لتقابل الأنساب فيها.
الطبقة الثالثة: العمارة: وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش، وكنانة، وتجمع على عمائر وعمارات.
الطبقة الرابعة: البطن: وهي ما انقسم فيها أنساب العمارة كبني عبد مناف =

٢ ـ صعوبة الوقوف على التسلسل الصحيح للأنساب، لقدم العهد وعدم وجود المدوّناتِ.

٣ ـ إمكان اشتهار قبيلة من القبائل باسم فَرْدٍ مشهور مِنْها يغلب اسمُه الاسم الأصلي.

٤ ـ انضمام أفرادٍ إلى قبيلة غير قبيلتهم بالحِلْف والموالاة.

٥ ـ دخول أفراد قبيلة على أفراد قبيلة.

٦ ـ تابعيّة أفراد معينين لقبيلة معينة، كالموالي والأرقاء واشتهارهم باسم القبيلة الأصلي وهم غرباء عنها.

٧ ـ اشتهار القبيلة باسم جديد لسبب من الأسباب.

٨ ـ تشابه أسماء القبائل مع تباعد أُصولها[١] واختلاف أنسابها.

. . . وإذا كان الأمر كذلك في عصور الكتابة والتدوين، فكيف يكون الأمر في أزمان لا تعرف إلا الرواية، والروايات يعتورها الخلط والنسيان إذا لم تُدوّن.. وما يقال في الأنساب يقال أيضاً في

= وبني مخزوم، وتجمع على بطون وأبطن.

الطبقة الخامسة: الفخذ: وهي ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية وتجمع على أفخاذ.

الطبقة السادسة: الفصيلة: وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ مثل بني العباس، وبني أبي طالب، وتجمع على فصائل.

فالفخذ يجمعُ الفصَائل، والبطن تجمع الأفخاذ، والعمارة تجمع البطون والقبيلة تجمع العمـائر، والشّعب يجمعُ القبائل.

(١) قال المقريزي في وصف العرب العرباء أو العاربة: «وكانوا في الزمن الغابر والدهر القديم فطالت مُددهم في الحياة وامتدت مملكتهم في جميع المعمور وبنوا مدينة الإسكندرية، وهَرَميْ مصر وسمرقند وإفريقية وعدة مدائن بالمشرق والمغرب». انظر «ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري» ص ٢٩.

اللغة.. فلولا القرآنُ بيننا، ولولا هذا التراث الإسلامي العربي الذي نرجع إليه لِفَهْم كتاب الله وأحكامه، لجاء على لغة العرب من الأطوار ما يجعلها غريبة عن لغة قريش التي نزل بها القرآن، ومع ذلك فإننا نجد في أساليب بعض الكُتّاب اليوم ما لا يفهمه أهل عصره بَله مَنْ عاش قبل قرنٍ من الزمان..

أقول: ليس غريباً أن تكون بلاد الشام موطن العرب منذ أقدم العصور لأنها الامتداد الجغرافي لجزيرة العرب، وهي المنفذُ البريُّ الوحيد لهم وهي مكان التوسّعِ المُحْتمل للقوم عندما تفجأهم الكوارثُ والنوازل وضيق العيش.. وهذا ما عَرفناه في التاريخ القريب عن هجرة آلاف الأسر وبخاصة من بلاد الحجاز إلى ديار الشام عندما كانت تضيق بهم سُبُلُ العيش وكان هذا يتتابع في الأزمنة التي تضعف فيها الدولة الإسلامية وتتشرذم إلى عشرات الإمارات والدول التي لا تستطيع إقامة حكمها إلا بظلم الناس، وفرض الضرائب والمكوس التي لا يتحملها الناس.

ولذلك فإن العقل والنقل يحكمان بأن أقدم الشعوب التي عمرت بلاد الشام إنما كانت من قلب الجزيرة العربية. ومن أقدم الهجرات التي عرفها التاريخ المُدوّن هجرةُ العرب الكنعانيين وغيرهم - من العرب البائدة - إلى ديار الشام والأصقاع المجاورة. قال الطبري: عمليق أبو العماليق، كلهم أُمم تفرقتْ في البلاد، وكان أهل المشرق منهم وأهل عُمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم «الكنعانيون»[1].

---

(١) الطبري ١/٢٠٣، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.

وقال أيضاً: والعماليق قوم عرب لسانهم الذي جُبلوا عليه لسانٌ عربي وقال: إنَّ عمليق أول من تكلم بالعربية، وقال: فعاد وثمود والعماليق وجديس وطسم هم العرب.

وقال ابن خلدون: وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبري أنهم من العمالقة، كانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها. وقال أيضاً: أول مُلْك للعرب في الشام فيما علمناه، للعمالقة. وقال: وكانت طسم وأميم، وجاسم، يتكلمون العربية(١).

وقال الكاتب أنيس فريحة: «حوالي ٢٢٠٠ ق م بدأ تسلل قبائل عربية بدوية من شمال الجزيرة العربية على نطاق واسع، وقد انتشرت هذه القبائل في سهول سورية الشمالية الشرقية، وقد اتجه بعضها غرباً وجنوباً إلى شرق الأردن وتلال القدس، وجبال لبنان، أما الذين تاخموا البحر فقد عُرفوا بالكنعانيين، ومن الكنعانيين كان الفينيقيون، واتجه بعضهم شرقاً جنوباً واكتسحوا بابل ومنهم كانت سلالة حمورابي الآمورية»(٢) .

وتقرر دائرة المعارف اليهودية العامة هذه الحقيقة فتقول «فلسطين أصبحت بلاداً عربية ليس فقط بسبب الفتح المحمديّ، ولكن لأن العرب كانوا قد أتَوْا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت، فمنهم البدو ومنهم جاليات المحاربين المجرّبين والتجار، وكانت

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ١/ ٤٤.

(٢) أسماء القرى والمدن اللبنانية.. من المقدمة التاريخية.

مسيحيتهم هرطوقية غير عميقة بصورة كافية، ولذلك استبدلوهـا بسهولة[١] بالإسلام». ويقول بعض خبراء الأجناس: «إنَّ رأي الفقهاء الأَكْفاء من أهل الخبرة والمعرفة، أن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية أَخلافُ للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هناك قبل الغزو الإسرائيلي ـ زمن موسى ـ وظلت أقدامهم ثابتة في التُّربة منذ ذلك التاريخ وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبة التي طغت على البلاد دون أن تُحطمهم». ويقول أيضاً: «وما من شك أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارىء المتوسط أن يعلم أن العرب أسبقُ من اليهود في سورية، وأن الجهل بهذه الحقيقة ـ الجهل الشائع لدينا ـ هو في الواقع سَنَدٌ تعتمدُ عليه الدعاية الصهيونية السياسية»[٢].

وقال محمد كرد علي[٣]: ولم تطل حياةُ عنصرٍ في صحةٍ بالشام كما طالت حياة العرب، فإنهم فيها على أصحِّ الأقوالِ منذ زهاء ألفين وخمسمائة سنة، وأوصله بعضهم إلى نحو أربعة آلاف سنة وهم الذين ندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لساناً ومنزعاً، ولذلك كان من المعقول، أن يُدلَّ الشاميُّ بعربيته أكثر من إدلاله بفينيقيته وروميته وسريانيته.. وفي تاريخ فلسطين أن العرب دخلوا فلسطين قبل الإسـلام بقرون،

---

(١) قوله: استبدلوها بالإسلام: يريد أنهم أخذوا الإسلام وتركوا النصرانية. وكان حقه أن يقول: استبدلوا الإسلام بالنصرانية: لأن الباء هنا تلتصق بالمتروك. قال تعالى:﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ وقد غلط شوقي فقال: (أنا مَنْ بدّل بالكتب الصحابا) والصحيح (أنا مَنْ بدل الكتاب بالصحاب).

(٢) تاريخ فلسطين القديم ـ لظفر الإسلام خان.

(٣) خطط الشام جـ ١/ ٢٠.

والدليل على ذلك أن «نرحم سين[1] ابن سرجون» غزا فلسطين سنة ٢٨٠٠ ق م، وصادف في سيناء حكومة عربية، ثم حارب قبيلة معان العربية وأَسر أميرها وقد ظهر من آثار بابل ما يدل على ذلك. . ومنها أن سرجون[2] الثاني غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السَّامرة، وأخضع قبائلهم ومنها ثمود، ومَدْين، ومساكنهم في شرقي الأردن. . ولما جاء الإسكندر إلى غزة وحاصرها كانت حاميتها عرباً فقاومته أشدَّ مقاومة، ومنها أنّ أحد تلاميذ المسيح بشّر بلغات عديدة، منها اللغة العربية، كما ورد في أعمال الرسل.

وعندما استولى الرومان على ديار الشام وجدوا حكومات عربية ففي سنة ٦٤ ق م جعل بومبي، الحاكم الروماني، أنطاكية عاصمة لسورية، وسمح للملوك العرب بالبقاء، على أن تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصلية. واحتفظ مَلِكُ الأنباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال. وفي أخبار الحملة الثانية التي جردها «كراسوس» عام ٥٣ م، خانه حليفه العربي (أبجر) وتمزق جيشه في الصحراء السورية على بُعْد ثلاثين ميلاً من حرّان[3].

٥ ـ العرب الباقية امتداد للعرب البائدة:

قسَّم علماءُ التاريخ العرب إلى قسمين: العرب البائدة، ومنها العمالقة والكنعانيون، وعاد وثمود. . والعرب الباقية: وهم الذين

---

(١) ويلفظ «نرام سين». ابن سرجون الأول. من السلالات التي حكمت في جنوبي وادي الرافدين.

(٢) سرجون الثاني: ملك آشوري (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق م).

(٣) تاريخ سورية، لفيليب حتى ١/٣٠٩/٣١٠.

عرفنا قبائلهم وأخبارهم، وجاء الإسلام وهم يعمرون الجزيرة والشام، وعلى هذا فإن العرب والقبائل العربية الكثيرة التي جاء الإسلام وهم يسكنون الشام، إنما هم امتداد للعرب البائدة، ويكاد يُجمع المؤرخون على أن الجنس السائد في بلاد الشام قبل الإسلام هو العنصر العربي، قال الدباغ: وقرب فلسطين من بادية العرب التي تحيط بها من الجنوب والشرق، جعل أهل الجزيرة العربية ينزلونها منذ أقدم الأزمنة فاكتسحوها حيناً، واستقروا على الحدود حيناً آخر ثم تدريجياً نزحوا إلى الداخل فأنشئوا فيها دولاً كثيرة، وتوالى هبوطهم وانتقالهم إليها إلى أن اصطبغت البلاد بالصِّبغة العربية الحديثة وأصبح التمدن فيها عربياً...

وقد تتابعت الهجراتُ العربية على مرّ التاريخ، لم تتوقف، يمدّ الجديدُ منها القديم ويأخذ مكانه، حتى أمكن أن يقال: إن بلاد الشام أصبحت عربيةً خالصةَ العروبةِ قبل الإسلام بثمانية قرون.

يقول الأستاذ أحمد عادل كمال[١]: أما في سورية والأردن وفلسطين فإن ظهور دول الأنباط، ثم تَدْمر، ثم الغساسنة، يُفيد أن العنصر العربيَّ هو الذي ساد تلك البقاع وعمرها بالعنصر البشري وقد انتشرت المسيحية بينهم، وكانت للدولة البيزنطية الهيمنة التبعية فقط. ويؤيد انتشار العنصر العربي على أغلب أرجاء الشام الأخبار المتنوعة عن تلك الحقبة، من ذلك: أن رسول الله ﷺ بعث الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث إلى الحارث بن أبي شمر الغساني الذي وصفه الرواة بأنه صاحب دمشق، ولا شك أنّه كان

---

(١) الطريق إلى دمشق ص ٣١.

عربياً، وكانت جلق بغوطة دمشق إلى الجنوب منها أحد منازل الغساسنة العرب، وقد أغار خالد بن الوليد على بني غسان بمرج راهط ـ شمال دمشق ـ وكان الغساسنة يسكنون حوران قبلَ الإِسلام.

وقد كانت قبائلُ قريش في رحلة الصيف تتاجر مع غزة وما كانوا يتوجهون إلى غزة إلا للاتجار مع العناصر العربية بها ولو كانت أسواق بلاد الشام يسودها العجم لظهر أثر ذلك في لسان العرب الذين كانوا يتعاملون معهم لكثرة اختلاطهم بهم، ونحن نعرف أن مكوثهم في البلد الذي يقصدونه يدوم طويلاً لبيع ما يحملونه وشراء ما يحتاجون إليه.

وبناءً على ذلك نقول: إن الحكم الروماني لديار الشام، لم يكن حكماً مباشراً، وإنما كان بالتبعية السياسية، ولم يكن للروم هجرة شعبية إلى بلاد الشام وإنما كانت لهم حاميات على طريقة الاستعمار في أيامنا والسيادة في المجتمع للعنصر العربي.

٦ ـ القبائل العربية التي استقرت في بلاد الشام قبل الإسلام

قلتُ: كانت بلاد الشام قبل الإسلام بقرون عديدة يسود فيها العنصر العربي، وقامت للعرب ممالكُ، توالت على حكم بلاد الشام، وأذكر من القبائل الكبرى التي سكنت بلاد الشام قبل الإسلام:

أ ـ **الغساسنة**: دولة عربية ظهرت في عهد الدولة الرومانية، ويعود الغساسنة إلى القبائل اليمنية، دُعوا بذلك نسبة إلى ماء «غسان» في بلاد اليمن، نزلوا عليه فنُسبوا إليه. قيل: إنهم

هجروا بلاد اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد، واستوطنوا حوران والبلقاء، وجعلوا عاصمتهم «الجابية»[1] ثم نقلوها إلى بُصرى في حَوْران. قال المسعودي: وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرها من غوطة دمشق وأعمالها، ومنهم مَنْ نـزل الأردن من أرض الشام[2]، وكـان مُلْكهم يتسـع ويتقلص حسب الظروف. من أشهر ملوكهم الحارث بن جَبَلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) انتصر على المنذر بن ماء السماء اللخمي في يـوم حليمة[3] والمنذر بن الحارث (٥٦٩ ـ ٥٨١ م) حـارب اللخميين وأحرق الحِيرَة عاصمتهم، ونفاه البيـزنطيـون إلى صقلية. والنعمان بن المنذر، توفي حوالي ٥٩٥ م، حاول الانتقام لأبيه فأُسر، ومات سجيناً.

ب ـ **سَليح**: على وزن جريح ـ بطن من قُضاعة القحطانية، نزلوا في بادىء أمرهم بقيادة الحِدْرِجان بن سلمـة ناحية فلسطين، على بني أُذينة ابن السَّميدع، من عاملة. قال المسعودي: وكانت قُضاعة بن مالـك بـن حمير أول منْ نـزل الشام، وانضافوا إلى ملوك الروم.

وقال ابن حزم: كانوا ملوكاً بالشام قبل غسان[4] وفي تاريخ

---

(١) تل الجابية: منطقة أثرية تقع إلى الشمال الغربي وعلى بُعْد نحو خمسة أكيال من قرية «نوى» من أعمال (أزرع) في حوران السورية، وقد اشتهرت باسم «جابية الملوك» كما عرفت بـ «جابية الجولان». وفيها كان مؤتمر الجابية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ / ١٠٩.

(٣) حليمة بنت الحارث الغساني: ويوم حليمة من أيام العرب سنة ٥٥٤ م.

(٤) جمهرة أنساب العرب / ٤٥٠.

ابن خلدون: أن طيصوس الروماني، هو الذي ولاهم ملوكاً على العرب في القرن الأول للميلاد، ثم انتشرا في أواخر القرن الثاني للمسيح في أطراف الشام، بين البلقاء وجبل الشيخ، إلى جبال فلسطين، وكانت الدولة في بطن من بطونهم يقال لهم: الضَّجاعمة. دانوا بالنصرانية ولم يزالوا سادة تلك البلاد، وملوكها تدين بالولاء لملوك الروم إلى أن غلبتهم غسان وحلت محلهم.

جـ - جُذام: بضم الجيم والذال المعجمة: هم بنو جذام بن عديّ من القحطانية. لما هلكت ثمود وتشتت شملها نزلت «حِسْمىٰ»[١] والبلاد الواقعة بين الحجاز وفلسطين ومصر، وكانت بطونها منتشرة عند ظهور الإسلام في «معان» وأيلة (العقبة) وحسمىٰ، ووادي القرى وحول تبوك، وكانت لجُذام رياسة في «معان» وما حَولها.

وكان فَرْوة بن عمروٍ النافري الجُذامي، عاملاً للروم على الناحية المذكورة فلما علم بالدعوة الإسلامية، أعلن إسلامه، وأهدى لرسول الله ﷺ، بغلة بيضاء، وأقْمِصةً كتانية، وعباءَة حريرية، ولما بلغ الروم ذلك، أخذوه وصلبوه على مياه (عِفْرىٰ)[٢] فكان فَرْوة أول عربي استشهد في بلاد الشام،

---

(١) حِسْمَىٰ: بالكسر ثم السكون آخره ألف، من سلسلة جبال شرقي الأردن، وتقع جنوبي جبال الشراة وتمتد حتى حدود الحجاز. وفي حديث أبي هريرة: تُخرجكم الروم منها كَفْراً كَفْراً إلى سنبك من الأرض، قيل له: وما ذلك السنبك؟ قال: حِسْمىٰ جُذام.

(٢) عِفْرىٰ: مياه معدنية يؤمها الناس للاستحمام، تقع في شمال الطفيلة في شرقي الأردن، وتروى بلفظ المدّ «عفراء».

بسبب إسلامه. وفي عام ٧ هـ أتت وفود جُذامية برياسة رفاعة ابن زيد إلى رسول الله في المدينة ودخلوا في الإسلام[١] ومن جُذام فخذ نزل مما يلي طبرية إلى اللّجُّون واليامون[٢] إلى ناحية عكا. ونزل من جُذام بنو الثَّعَل، عريش مصر، وقرية عبسان من أعمال غزة، ومنهم قوم نزلوا «بيت جيرين» من ديار فلسطين.

د ـ **عاملة**: من القحطانية، كانت تنزل المنطقة الجنوبية الشرقية للبحر الميت، ثم نزلت فيما بَعْدُ الجبل الذي نُسب إليها في جنوب لبنان قال الهمداني: ديار عاملة، مجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر، يليها ويطلّ على الأردن، وهم من أقدم الناس وجوداً في الشام، تجندوا في خدمة الزبّاء ملكة تدمر العربية (٢٦٦ ـ ٢٧٢ م).

هـ ـ **القَيْن بن جَسْر**: بطن من قُضاعة القحطانية كانت منازلهم في أطراف الشام بين حوران وتيماء، نزلت أقوام منهم الغَوْر حيث كانت بقية من جديس أخوة طسم[٣]. وقال جواد علي: وكان للقين جَمْعٌ عظيم وثروةٌ في أكناف الشام، فكانوا يناهضون كلب بن وَبَرة ثم ضعف أمرهم ووهن حتى ما يكاد أن يُعرف[٤].

و ـ **بنو كلب**: هم كلب بن وَبَرة من قُضاعة القحطانية، والنسبة

---

(١) الإصابة جـ ١/ حرف الراء، القسم الأول، وطبقات ابن سعد جـ ١/٣٥٤.

(٢) اللجُّون: بضم الجيم مع التشديد قرية تبعد ثمانية عشر كيلاً غرب مدينة جنين الفلسطينية. واليامون: تقع على مسيرة تسعة أكيال شمال غرب جنين.

(٣) خطط الشام جـ ١/٢٦.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٢٤٤، وجمهرة الأنساب ٤٥٤.

إليهم كلبي. كانوا ينزلون في الجاهلية «دُومة الجَنْدل» في الجوف، شمال السعودية، وتبوك، وأطراف الشام[1].

والجماعة التي نزلت أطراف الشام نزلت سهل البقاع في لبنان، وحوّارين[2] من جبل الشيخ، وجبل قلمون، وغوطة دمشق، وقد نُسب إليهم سهل البقاع، ودُعي بـ (قاع كلب)، ومنهم بنو عامر الذين نزلوا المرج الفلسطيني، فقيل «مرج ابن عامر»، وينسب إليهم دِحْية الكلبي صاحب رسول الله الذي كان رسولَ رسولِ الله إلى قيصر الروم[3].

ز ـ **ذبيان**: كانت منازلهم ما بين تيماء، وحوران، ونزلت جماعة منهم الغور الفلسطيني بجوار «القين».

ح ـ **بنو عُذْرة**: من قُضاعة، كانت ديارهم في وادي القرى (العلا) وتبوك، ثم امتدت حتى بلغت العقبة وجنوب فلسطين.

ط ـ **بنو بهراء**: من قُضاعة، كانت منازلهم من ينبع إلى العقبة وفي حوران، وشرقي الأردن والبقاع، وطولكرم وحمامة من أعمال غزة.

ي ـ **لخم**: وهو مالك بن عدي، أخو جُذام وعاملة، وقد تفرقت بطون لخم، فلخم ذو شُعوب وقبائل كثيرة، وكانت قبل الإسلام بزمنٍ بعيدٍ، منتشرة في الشام والعراق وباديتهما وفي مواقع متعددة من فلسطين. قال ابن حزم في الجمهرة: ودار لخم بالشام بين مصر وبين الشام حوالي العريش، ويقال: إن الذي

---

(١) صبح الأعشى ١/٣٦١.

(٢) مكان في سورية بين دمشق وحمص، يُقال إن يزيد بن معاوية مات ودفن فيه.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٥.

استخرج يوسف عليه السلام من الجُبّ، هو مالك بن ذُعر، وكان له أربعة وعشرون ولداً، فانتسبوا في لخم إلى ذُعر بن حُجْر بن جَزيلة بن لَخْم[1]..

وهذه إشارة إلى قِدَم زمن وجودهم في ديار الشام. وقد دانت لخم بالنصرانية كغيرها من القبائل، وقيل: إنَّ أصحاب الكهف منهم[2]، وفي أواخر القرن الثاني للميلاد نزلت فرقةٌ من بني لخم جنوب فلسطين وامتد غربي البحر الميت، وفي القرن الثالث الميلادي نرى لخماً تحارب هي وغيرها من القبائل العربية مع جيوش زنوبيا، أمام أمبروطور الروم غاليانس (٢٥٣ - ٣٦٨ م) وينتصرون عليه.

واللخمويون حضروا فتح مصر، ونزلوا قرية «المغار» قرب الرملة في فلسطين. وكانت ديارهم في هذا الصّقع ممتدة إلى الداروم (دير البلح اليوم) ثم الجِفار - في سيناء - ثم نزل اللخميون مع مَنْ يخالطهم حول الرملة إلى نابلس، كما كانت لهم من تبوك إلى «زُغر» (غور الصافي) ثم بحيرة لوط - البحر الميت - واستقروا في الخليل وجبالها، وفي صفورِية شمال فلسطين كما نزل قسم منهم في حوران والجولان وغيرهما[3]. ومن قبيلة لخم صاحبنا تميم بن أوس الداري الذي وقفنا هذا البحث على سيرته.

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٢٢، والبئر التي كان فيها يوسف عليه السلام في موقع الحفيرة، قرب قرية عرّابة من قضاء جنين في فلسطين.

(٢) القبائل العربية وسلائلها في فلسطين - لمصطفى الدباغ جـ ١ / ١٣٤. وأكثر المؤرخين أن الكهف الذي ورد ذكر أصحابه في القرآن، موجود في شرقي الأردن قرب عمّان.

(٣) معجم قبائل العرب - عمر كحالة.



الفَصلُ الثَاني

القلوب تهفو للشام

١ ـ تطلُّع العرب المسلمين إلى الشام.

٢ ـ بشارات فتح الشام ودلالاتها:

أ ـ الإسراء والمعراج.

ب ـ النبوءات والبشارات التي نطق بها رسول الله لفتح الشام.

جـ ـ تتابُعُ الغزوات والسرايا نحو الشام.

د ـ مكاتبة الملوك في الشام.

هـ ـ فَتْح الشام.



١ ـ تطلع العرب المسلمين إلى الشام:

وإقليم الشام الذي وصفناه، تطلعت إليه نفوس المسلمين منذ البعثة النبوية، وقبل أن تطأه أقدام المسلمين، لأنهم أدركوا أن الرسالة الإسلامية لن تنحصر داخل الجزيرة العربية، بل لا بد أن تنطلق لتعمّ العرب كافةً في الأقطار كلها، وديار الشام محسوبةٌ من ديار العرب لغلبة العنصر العربي فيها منذ أقدم الأزمان.. وقد تاقتْ نفوسهم إلى ديار الشام، لما عرفوا من قداستها ومباركة الله فيها، منذ نزلت آيات سورة الإسراء[١].

---

(١) اختلف العلماءُ في تحديد تاريخ الإسراء والمعراج، والمتفق عليه أنه بعد البعثة وقبل الهجرة، ولكن متى كان ذلك؟ ذكر السيوطي في كتابه «الآية الكبرى» أقوال العلماء على النحو التالي: قيل: قبل الهجرة بسنةٍ، وقيل: قبلها بثمانية أشهرٍ، وقيل: بستة أشهرٍ، وقيل: بأحد عشر شهراً، وقيل: بخمسة عشر شهراً، وقيل: بسبعةَ عشرَ، وقيل: بعشرين، وقيل: بثلاث سنين، وقال الزهري: قبل الهجرة بخمس سنين، حكاه عنه القاضي عياض، ورجحه بالاتفاق على أن خديجة صلّت معه بعد فرض الصلاة وأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث أو خمس، ولا خلاف أن فرض الصلاة ليلة الإسراء. وأجيب بأن الصلاة التي صلتها معه هي التي كانت أول البعثة، ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي. وقيل: كان الإسراء بعد البعثة بخمس سنين وقيل بخمسة عشر شهراً، وقيل بعام ونصف، والله أعلم.

ثم تتابعت أحاديثُ رسول الله ﷺ التي تنبىء عن فتح الشام وترّغب في سكناه، وتحثّ المسلمين على التوجه إليه، وتصف خيراته في الدين والدنيا.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده[١]، عن أسماء بنت يزيد[٢]، أن أبا ذر الغفاري كان يخدم رسول الله ﷺ، فإذا فرغ من خدمته آوى إلى المسجد فكان هو بيته يضطجع فيه، فدخل رسول الله المسجد ليلةً فوجد أبا ذر نائماً مُنجدلاً[٣] في المسجد، فنكته رسول الله ﷺ برجله حتى استوى جالساً، فقال له رسول الله: «لا أراك نائماً»، قال أبو ذر: يا رسول الله؛ فأين أنامُ؟ هل لي من بيتٍ غيره، فجلس إليه رسول الله ﷺ فقال له: «كيف أنت إذا أخرجوك منه» قال: إذنْ ألحق بالشام، فإنَّ الشام أرضُ الهجرة، وأرض المحشر، وأرض الأنبياء، فأكونَ رجلاً من أهله، قال له: «كيف أنت إذا أخرجوك من الشام.. الحديث».

وعن عبدالله بن حَوَالة قال[٤]: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمرُ إلى أن تكون جنودٌ مجنّدة، جندٌ بالشام، وجُنْدٌ باليمن وجند بالعراق»،

---

(١) جـ ٦/٤٥٧.
(٢) أسماء بنت يزيد الأوسية الأنصارية، بنت عم معاذ بن جبل، وكانت تكنّى أم سلمة. ويقال لها: خطيبة النساء.. شهدت اليرموك وقتلت يومئذٍ تسعة من الروم بعمود فُسْطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً.
(٣) المنجدل: المُلقى بالجدالة، وهي الأرض.
(٤) مسند الإمام أحمد جـ ٤/١١٠. وعبد الله بن حَوَالة بالحاء المهملة وتخفيف الواو، أصله من الأزد: وهو من أهل الأردن بالشام، قال ابن عبدالبر: مات بالشام سنة ٨٠ هـ.

فقال ابن حَوَالة: خِرْ[1] لي يا رسول الله إن أدركتُ ذاك قال: «عليك بالشام، فإنه خِيْرةُ الله من أرضه، يجتبي إليه خِيْرتَه من عباده، فإن أبيتم، فعليكم بيمنكم، واسقوا مِنْ غُدُرِه فإنَّ الله عزّ وجل قد توكل لي بالشام وأهله».

وروى الطبراني أن عبد الله بن حوَالِة قال: يا رسول الله خرْ لي بَلَداً أكونُ فيه، فلو أعلم أنك تبقى لم أخترْ على قُرْبك شيئاً قال: «عليك بالشام»، فلما رأى كراهتي للشام قال: «أتدرون ما يقول الله للشام؟ يا شامُ أنت صفوتي من بلادي أُدخِل فيكِ خيْرتي من عبادي»[2].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ يوماً حين قال: «طوبى للشام، طوبى للشام» قلتُ ما بالُ الشام؟ قال: «الملائكة باسطو أجنحتها على الشام»[3].

٢ ـ بشارات فتح الشام ودلالاتها:

جاءَت الدعوة الإسلامية إلى العرب أولاً ثم إلى الناس كافة: فقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ، إلى العرب أولاً، لأنه منهم، ولأن الرسالة جاءَت بلسانهم، وهم المُخاطبون أولاً بكتاب الله الكريم.

ولمّا كانت الرسالة الإسلامية خالدة وعامة، فقد كانت مهمة العرب المسلمين، متابعة إبلاغ الرسالة إلى الأمم كافة، بعد وفاة

---

(١) خرْ لي: أي: اختر لي أصلح الأمرين، واجعل لي الخيرة فيه. وخار الله لك: أي: أعطاك ما هو خير لك، والخيرة ـ بسكون الياء ـ الاسم من ذلك.

(٢) الإصابة ـ ترجمة عبد الله بن حوالة جـ ٢.

(٣) مسند الإمام أحمد جـ ٥/ ١٨٤. وانظر «تخريج» فضائل الشام ودمشق للربعي، ومعه: «مناقب الشام وأهله» لابن تيمية. بتخريج ناصر الدين الألباني.

رسول الله ﷺ . . وجاء القرآن بالتدرج في إبلاغ الدعوة حيث أمر الله نبيه محمداً عليه السلام، أن ينذر عشيرته الأقربين، فنفذ رسول الله أَمْر ربه وبلّغ الرسالة إلى أهل مكة، فأسلم مَنْ أسلم وكفر مَنْ كفر، ثم عرض رسول الله الدعوة على أهل الطائف وهم الأقرب إلى مكة، ثم انتقلت الدعوة إلى المدينة بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية. . وبعد معارك مع أعداء الدعوة ـ كان هدفها إزالة العوائق أمام التبليغ ـ أخذ الإسلام ينتشر في دوائر أوسع، ليصل إلى كل عربيّ مهما نأت بقعته، لأن العرب هم المعنيون بالرسالة أولاً، ولا تكون دعوةُ الأمم الأخرى إلى الإسلام قبل أن يشمل الإسلامُ العرب، فكانت الدعوةُ تسير في جميع الاتجاهات التي يسكنها العربُ، في شرق الجزيرة، وجنوبها ووسطها، وتوجهت الدعوة أيضاً نحو الشمال، شمال الجزيرة العربية، وهو أوسع الاتجاهات وأبعدها عُمْقاً، حيث ينتشر العرب ـ المخاطبون بالدعوة ـ في ديار الشام، التي رأينا أن العرب هم العنصر الغالب عليها في عهد الحكم الروماني، ورأينا أن قبائل العرب الباقية كانت امتداداً للعرب البائدة الذين سكنوا ديار الشام منذ أقدم العصور، وقد يعدّها بعضهم من جزيرة العرب، إن لم تكن امتداداً لجزيرة العرب، وقد جاء في بعض تحديداتها ما يدل على ذلك[1].

وإننا لنلمح فكرة فتح بلاد الشام وضرورة نَشْر الإسلام فيها ـ بعد الانتهاء من قلب الجزيرة ـ من تسلسل الأحداث التي جرت في العهد النبوي، في مكة والمدينة، ومنذ البدايات الأولى للدعوة.

---

(١) انظر «معجم البلدان» مادة «جزيرة»، و«فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر ك/٥٦ باب ١٧٦.

أ - ومن أول الأحداث دلالة على توجه الإسلام إلى الشام، وأنه مُلْك العرب وميراث الإسلام، حادث الإسراء والمعراج:

يقول الأستاذ محمد الغزالي: «لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سِدْرة المنتهى مباشرة؟ إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم، فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً، وهي وَقْف على بني إسرائيل، وظلت بيت المقدس مهبط الوحي ومشرق أنواره على الأرض، فلما أهدر اليهودُ كرامة الوحي، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، ومن ثَمَّ كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالاً بالقيادة الروحية في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلدٍ إلى بلد ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وحملت الأمةُ الجديدة رسالتها، وورث النبي العربي تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها، فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكل في حقيقة واحدة، أن يُعدَّ المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه. إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم، وقد عرف محمد عليه الصلاة والسلام في هذه الرحلة أن رسالته ستنساح في الأرض وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم، بل إنَّ أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في أعقاب جيل، وهذا معنى رؤية النيل

والفرات في الجنة وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج»[1].

وفي بدء رحلة الإسراء من المسجد الحرام بمكـة وانتهائهـا بالأرض المباركة في المسجد الأقصى ما يدل على قداسة هذين المسجدين وما يحيط بهما من الأرض، كما نلاحظ أن هذه الرحلة اتخذت المسار نفسه الذي كان يسلكه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام في تردده بين مكة والأرض المباركة حين أسكن هاجر وابنها إسماعيل في مكة وأسكن سارة وابنها إسحٰق في فلسطين، وذلك كله يحمل المسلمين في كل مكان عبء الدفاع عن هذه البلاد المقدسة والإبقاء عليها في حوزتهم[2].

ويقول سيد قطب في حكمة الإسراء إلى بيت المقدس[3]: «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، رحلةٌ مختارةٌ من اللطيف الخبير لتربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لَدُنْ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى خاتم النبيين محمد عليه السلام وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير، لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالتـه بها جميعاً».

والمتدبر في آيات سورة الإسراء يرى أنَّ الله ذكر قصة الإسراء

---

(١) فقه السيرة: محمد الغزالي ص ١٠٣.
(٢) الآيـة الكبرى في شـرح قصـة الإسـراء لجـلال الـدين السيـوطي بتحقيق محيي الدين مستو.
(٣) «في ظلال القرآن» جـ ١٥/ ١٢.

في آية واحدة، ثم أخذ يذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وربما ظن القارىء أن لا علاقة بين آية الإسراء وما بعدها، والحق أن بينهما ارتباطاً قوياً، لأن الله يُشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس لأن اليهود سيُعزلون عن منصب قيادة الإنسانية، لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يَبْق معها مجالٌ لبقائهم على هذا المَنْصِب، وأن الله سينقل هذا المنصب إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما (مكة والقدس) فقد آن انتقال القيادة الروحية إلى أمة جديدة، من أمةٍ ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والعدوان، إلى أمةٍ تتدفق بالبرّ والخيرات[1].

ب ـ النبوءات والبشارات التي نطق بها رسول الله، لفتح الشام:

فقد ساق صاحب «تاريخ دمشق» بضعاً وعشرين حديثاً تحت عنوان «باب تبشير المصطفى عليه السلام أمته المنصورة بافتتاح الشام»[2] منها، ما رواه سفيان بن أبي زهير الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفتح عليكم اليمن فيأتي قوم يبسّون، فيتحملون بأهليهم ومَنْ أطاعهم، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ثم تُفتح الشامُ فيأتي قومٌ يبسّون، فيتحملون بأهليهم ومَنْ أطاعهم. . .» الحديث[3].

---

(1) «الرحيق المختوم» تأليف صفيّ الدين المباركفوري ـ الجامعة السلفية بالهند ص ١٦٠.

(2) «تهذيب تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر ص ٨٦ جـ ١.

(3) تهذيب تاريخ دمشق جـ ١/٨٧. والجامع الصغير للسيوطي عن مالك.
ومعنى: يبسون يزجرون الإبل من قولهم: بُس، بُسّ.

وعن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قال لأصحابه:

«الفقرَ تخافون أو العَوَزَ، أو تهمكم الدنيا؟ إنَّ الله عز وجل فاءَ لكم أرض فارسَ والرومِ ويصبُّ عليكم الدنيا صباً حتى لا تُزيغكم إلا هي»[1].

وعن ذي الأصابع قال: قلتُ يا رسول الله، إن ابتُلينا بعدك بالبقاء أين تأمُرنا؟ قال: «عليك ببيتِ المقدسِ فلعله أنْ ينشأ لك ذريةٌ يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون»[2].

جـ - تتابع الغزوات والسرايا نحو الشام:

فقد تتابعت غزوات الرسول وسراياه، منذ العام الخامس للهجرة، نحو الشمال، ففي السنة الخامسة من الهجرة غزا رسول الله ﷺ، دُومة الجندل، ويعدّها القدماء من الشام، ولذلك عقد ابن عساكر في تاريخ دمشق باباً تحت عنوان «باب سرايا رسول الله ﷺ إلى الشام وبعوثه الأوائل، وفيه غزوة دُومة الجندل»[3].

وهناك سريتان أخريتان توجهتا إلى دُومة الجندل، واحدة بقيادة عبد الرحمٰن بن عوف في شعبان سنة ست من الهجرة، والثانية سنة تسع، وقائدها خالد بن الوليد، بعثه رسول الله وهو في تبوك إلى أُكيدر الكندي.

---

(١) رواه الإمام أحمد جـ ٢/ ٢٤.

(٢) رواه أحمد جـ ٤/ ٦٧.

(٣) دُومة الجندل: بضم الدال المهملة من «دومة» وهي قرية في الجوف شمال السعودية، يشرف عليها حصن مارد المشهور. وتبعد الجوف مسافة ٤٥٠ كيلاً عن تيماء، ومثلها تبعد تيماء عن المدينة، فهي إلى بلاد الشام أقرب.

وفي سنة سبع من الهجرة، في المحرم، خرج رسول الله إلى خيبر شمال المدينة وتم تطهيرها من النفوذ اليهودي وانتزع حصونها من قبضتهم، فكانت هذه الغزوة تطهيراً للطريق المؤدية إلى الشام.

وفي سنة ثمانٍ من الهجرة شَهْرَ ربيع الأول بعث رسول الله، كَعْب بن عُمَير الغفَاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح[1] وفي جُمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة بعث النبي ﷺ جيشاً اشتبك مع الروم في «مؤتة» من أرض البلقاء بالشام وهو موقع متقدم إلى الشمال، وكان الهدف من الغزوة فتح الطريقِ المغلق ـ طريق الدعوة ـ وكان الذين أغلقوه قوم من قضاعة ومن غسان. وكان قبل الغزوة، أرسل النبي ﷺ، الحارث بن عُمير الأزدي برسالة إلى ملك بُصرى، ولما نزل مؤتة تعرض له شُرَحْبيل بن عمروٍ الغساني، ولما عَرَف أَمْرَه أوثقه ثم قتله ولم يُقتل لرسول الله مبعوثٌ قط سواه، فاشتد ذلك على رسول الله لأن معنى ذلك أن طريق الدعوة إلى الشمال، محفوفٌ بالمخاطر فلم يكن بدٌّ من فتحه، فكانت معركة مؤتة[2].

---

(١) ذات أطلاح: قال المؤرخون إنها من أرض الشام، ولم أجد مَنْ حدد موضعها ولعلها في الشمال من تبوك في داخل حدود الأردن. ولكن الدباغ، ذكر في «بلادنا فلسطين» وادي الطلاح، من وادي عربة ـ شمال البحر الميت ـ وقال: والراجح أنه موقع ذات أطلاح التي استشهد فيه الصحابي كعب بن عُمير عام ٨ هـ.

(٢) مؤتة: بلدة أردنية، تقع جنوب الكرك، إذا سرت من معان إلى عمّان كانت مؤتة على يسارك في منتصف المسافة، وقربها مكان يدعى المزار، وهو قبر جعفر الطيار ابن أبي طالب الذي استشهد يوم مؤتة.

وفي سنة ثمان من الهجرة أيضاً، بعث رسول الله عمرو بن العاص في سرية إلى ماء يقال له: ذات السلاسل، بجُذام من أرض بني عُذْرة وراء وادي القُرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام، ذلك أن رسول الله علم أن جماعة من قُضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يدنوا من المدينة، أو من أطرافها. .

وفي السنة التاسعة، كانت غزوة تبوك، حيث جاءَت الأخبار إلى المدينة أن القبائلَ العربية الموالية للروم من قبائل لخم وجُذام وغسّان وعاملة قد انضمت إلى هرقل، وأنهم ينوون الهجوم على ديار الإسـلام.

وأخيراً، وقبل وفاة رسول الله ﷺ، كان بَعْثُ أسامة بن زيد على جيش من المسلمين، وأَمَره أن يغير على «أُبنى» بالشراة ناحية البلقاء، فتم ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ.

فهذه البعوث والغزوات إنما كانت لتأمين خط الـدعوة نحـو الشمال وحماية من أَسلم في تلك الديار، حيث خطا الإسلام على طريق الشمال، كما كان يسلك كل فجّ في شبه الجزيرة فأسلمت بطون من تلك القبائل في تلك البقاع ودخل الإسلام قلوب العرب فيما بين المدينة حتى ديار شرقي الأردن مع تبعية قطاع كبير من تلك الجهات سياسياً للدولة البيزنطية. .

وهـذه العنايـة التي لحظهـا المسلمون في خـطط رسول الله الحربية، بالتوجه إلى الشام، عمل الخليفة الأول الصديق على متابعتها، فكان فتح الشام من أولى المهمات التي أوكلها إلى قادة الفتح العربي. . وقد عقد ابن عساكر باباً تحت عنوان «باب ذكر

اهتمام أبي بكر الصديق بفتح الشام وحرصه عليه، ومعرفة إنفاذه الأمراء بالجنود الكثيفة إليه».

وأعطى ابن عساكر مثالاً على اهتمام أبي بكر بفتح الشام قبل غيره من الأصقاع، أنه عندما أرسل إليه عمرو بن العاص يطلب منه المدد لفتح الشام، أرسل إلى خالد بن الوليد بالتوجه إلى الشام، قبل أن يتمّ فتح العراق..

د ـ مكاتبة الملوك في الشام:

بعد أن رجع رسول الله من الحُديبية، وعقد الهدنة مع قريش، كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وخصّ بلاد الشام برسائله، الأولى إلى قيصر الروم هرقل، وحملها دِحْية الكلبي[1] وكان هرقل حينئذ ينزل القدس، والرسالة الثانية إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وحمل الرسالة شُجاع بن وهب من بني أسد ابن خزيمة. والثالثة: إلى جَبْلة بن الأيهم من ملوك غسان، والرابعة: إلى بلد بالشام تُسمّى (حَدَس)[2] يسكنه قوم من لخم.

هـ ـ فتح الشام:

كانت وفاة الرسول عليه السلام في شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ واستغرقت عمليات القضاء على الردة حتى منتهى هذا العام، وفي بداية العام التالي زحف خالد بن الوليد إلى العراق، وتوالت انتصارات المسلمين في تلك الديار، ولم يلبث أن عقد أبو بكر

---

(١) انظر «فتح الباري» جـ ١/٣٢.

(٢) انظر «معجم البلدان» لياقوت مادة (حدس) و«الطبقات الكبرى» لابن سعد جـ ١/٢٦٦.

مجلس شُوراه من كبار الصحابة واستشارهم في بعث الجيوش إلى الشام، فأيدوا رأيه وفي اليوم الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ١٢ هـ خرج أول جيش لفتح الشام بقيادة خالد بن سعيد. وفي الثالث والعشرين من رجب سنة ١٢ هـ خرج يزيد بن أبي سفيان في جيش آخر، وتبعه شُرَحْبيل بن حسنة في السابع والعشرين من رجب ثم خرج أبو عبيدة في السابع من شعبان سنة ١٢ هـ. وما لبث أن طلب أبو بكر من خالد بن الوليد، أن يلتحق بالشام، لإمداد الجموع هناك، وكانت أولى المعارك الكبرى في تاريخ فتح الشام، هي معركة أجنادين[١] في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣ هـ، استطاع المسلمون بعدها أن يفتحوا جميع ديار فلسطين. .

---

(١) أجنادين: تقع في أراضي خربتي «جنّابة» الفوقا، وجنّابة التحتة، في ظاهر قرية عجّور الشرقي، في منطقة الخليل. . وفي لفظها روايتان:

الأولى: فتح الدال، بلفظ التثنية، كأنه تثنية «أجناد».

والرواية الثانية، بكسر الدال، وفتح النون الأخيرة، بلفظ جمع المذكر السالم، قال الشاعر:

ونحنُ تركنا أرطبونَ مُطرّداً
إلى المسجد الأقصى وفيه حُسُورُ
عشيةَ أجنادين لما تتابعوا
وقامتْ عليهم بالعراء نُسُورُ

الفصل الثالث

نسب تميم الداري وموطنه

١ ـ نسب تميم الداريّ.

٢ ـ فلسطين موطن تميم الداري، والأدلة على ذلك:

أ ـ تحديد ديار لخم بأنها من فلسطين.

ب ـ لم يذكر المؤرخون نشاطاً لقبيلة لخم في العهد النبوي داخل الجزيرة.

جـ ـ دلالات طلب الإقطاع من رسول الله ﷺ.

د ـ روايات حديث الجساسة.

هـ ـ سبب نزول آية سورة المائدة [آية: ١٠٦].

و ـ عودة تميم إلى فلسطين بعد مقتل عثمان.

٣ ـ تميم الداري: أمير القدس.

٤ ـ كم عاماً عاش تميم الداري؟



١ ـ نَسَبُــه:

هو تميم بن أوس بن حارثة ـ وقيل خارجة ـ بن الدار بن هانىء ابن حبيب بن نُمارة بن مالـك بن عديّ (وهـو لخم) بن الحارث بن مُرَّة بن أُدد، بن زيد، بن يَشْجُب بن عُريب، بن زيد بن كهلان بن سبأ[١].

ويُكَنّى تميم الداري ـ أبو رُقَيَّة ـ ورُقيّة ابنته، لم ينجب غيرها. ونِسبته «الداري» إلى «الدار» أحد أجداده. ويقال لقومه أيضاً: «بنو نُمارة» ونُمارة آخر جدّ يوصلهم بـ«لخم». وهم أيضاً من قبيلة «لخْم» ولخم ليس اسماً وإنما هو لقب. واسم لخم: مالك بن عديّ، وقبيلة لخم من العرب القحطانية، ذات شعوب وقبائـل كثيرة، سكنت ديار الشام والعراق في وقت غابر غير معلوم. فقد ذكر الهمداني مساكن مَنْ تشاءَم من العرب ـ أي دخل الشام ـ فقال: أما مسـاكن لخم فهي متفرقـة وأكثرهـا بين الرملة ـ في فلسطين ـ ومصر في الجفار ـ في سيناء ـ ومنها في الجولان، ومنها

---

(١) انظر «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص ٤٢٢. و«الاشتقاق» لابن دريد و«الإصابة» لابن حجر، و«تهذيب تاريخ دمشق» لابن عساكر.

في حوران، والبثنيّة[1] ومدينة نوى ـ في حوران ـ. . الخ، ومن بني لخم رهط آل المنذر ملوك الحيرة، وكان آخرهم النعمان بن المنذر.

وقال ابن حزم: ودار لخم بالشام، بين مصر وبين الشام حوالي العريش. ومما يدل على بُعْد زمن نزولهم في ديار الشام، الأخبار التي يذكرها المؤرخون عن نشاطهم قبل الإسلام، وبعده. ومن أخبارهم قبل الإسلام، بل قبل ميلاد المسيح، ما ذكره ابن حزم في الجمهرة حيث قال: ويقال: إن الذي استخرج يوسف عليه السلام من الجُبّ ـ البئر ـ هو مالك بن ذُعَر بن يُوَيب بن عيفا بن مَدْين بن إبراهيم عليه السلام وكان له أربعة وعشرون ولداً، فانتسبوا في «لخم» إلى ذُعر بن حُجر بن جزيلة بن لخم. وأقوى الآراء على أن «جُبّ يوسف» بالقرب من قرية «عرّابة» في قضاء جنين من فلسطين، وقصة يوسف كانت حوالي عام ١٦٧٨ قبل الميلاد، وانتساب مالك بن ذُعر، في لخم ـ في ذاك الزمان ـ دلالة على قوتها وانتشار نفوذها. . وسواءً صحت هذه الرواية أم لم تصح، فإنها في الحالين تشير إلى اعتقاد المؤرخين برسوخ قدم لخم في تلك الديار، وبُعْد جذورها.

وقيل أيضاً: إن أصحاب الكهف الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا من لخم[2]، وأصحاب الكهف، كانوا يدينون بالنصرانية،

(١) البثنيّة: اسم أطلقه العرب على البلاد الخصبة المجاورة حوران والجولان، ما وراء الأردن، كانت قاعدتها درعا.

(٢) «القبائل العربية وسلائلها في فلسطين» للدباغ، نقلاً عن «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب» لابن رسول.

وهـربوا من جـور الأمبروطـور الرومـاني في بدء القـرن الرابـع الميلادي. هذا، وكانت قبيلة لخم قد دانت بالنصرانية، كما سيأتي أن تميماً كان نصرانياً قبل إسلامه.

ومن أخبارهم قبل الإسلام ـ في ديار الشام: أن قبيلة لخم، حاربت في جيش زنوبيا، ملكة تدمر العربية، أمام أمبروطور الروم غاليانس (٢٥٣ ـ ٢٦٨ م) وانتصروا عليه.

وفي أخبار الغزوات النبوية أن طائفة من قبيلة لخم انضمت إلى الروم في معركة مؤتة سنة ٨ هـ. وفي عهد معاوية حاربوا معه في معركة صفين عام ٣٧ هـ، كغيرهم من أهل الشام.

ومما يدل على تجمعهم الكثيف في ديار فلسطين، قدوم وَفْد «نُمارة» اللخمي برئاسة تميم بن أوس، على رسول الله سنة ٩ هـ. وكان عدد الوفد عشرة رجال، كما سيأتي عند الكلام على إسلام تميم الداري، وكثرة عدد أعضاء الوفد، دليل على كثرتهم وتفرع بطونهم.

ومما يدل على انتشارهم الواسع في ديار فلسطين، كثرة الأماكن التي تُذكر مِنْ مواطنهم، حيث حلوا في «المغار» من أعمال الرملة في فلسطين، وامتدت منازلهم حتى «الداروم» دير البلح في قطاع غزة، ثم إلى الجفار ـ في سيناء ـ وانتشروا فيما بين الرملة ونابلس، كما كانت لهم مواقع من تبوك إلى «زُغر» في غور الصافي، على حـدود فلسطين في شـرقي الأردن. واستقروا في ديـار الخليل وجبالها، وفي قرية صفورية من فلسطين[1].

---

(١) انظر «معجم قبائل العرب» لعمر كحالة.

ومما يدلك على ثبات قدمهم وبُعْد جذورهم في فلسطين كثرة من ينسب إليهم من العلماء والقواد، والقبائل والحمايل، عبر التاريخ الإسلامي. وممن ينسب إليهم، موسى بن نُصير، القائد المشهور فقد ذكر بعض المؤرخين أن «نصير» والد موسى سُبي من جبل الخليل في أرض الشام زمن أبي بكر، وقيل: كان من لخم، أو لامرأة من لخم[1]. وفي سنة ٢٢٦ هـ ظهر في فلسطين ومنطقة الغور، الثائر تميم اللخمي وكنيته أبو حرب ولقبه «المبرقع»، وكان على جانب من الثقافة والعلم والتقوى، ولعله درس في طبرية التي كانت ذات مركز علمي حَسنٍ في ذلك الوقت[2]. وممن ينسب إلى لخم، الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني[3] تلقى العلم في طبرية وبيت المقدس ويافا، عاش من (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ).

وينسب إلى «لخم» القاضي الفاضل (٥٢٩ - ٥٦٦ هـ) وهو عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي. كان والده من أهل عسقلان، وتولى القضاء في «بَيْسان» من غور فلسطين، فقيل: البَيْساني، أيضاً.

ولا زال ينسب إلى قبيلة لخم عدد من قبائل وحمايل في فلسطين في أيامنا، من هؤلاء: بنو نبهان من قبيلة الحناجرة في بئر السبع وآل النبهاني في قرية أجزم من أعمال «حيفا». وعرب «المساعيد»

---

(١) الأعلام - للزركلي (موسى بن نصير).

(٢) الموسوعة الفلسطينية (مادة تميم اللخمي).

(٣) الطبراني: نسبة إلى طبرية على غير قياس لئلا يشتبه ويلتبس بالطبري المنسوب إلى طبرستان.

في الغور النابلسي. وحمولة «دار الديك» في بلدة «كَفْر الديك» من جبل نابلس. وآل قُفَّة، من قرية (سيلة الظهر) من أعمال جنين. وأما ذرية تميم الداري، فلا زالت موجودة في الخليل «آل التميمي» وينتشر فروع منها في «نابلس» وجنين ويافا. وفي شرقي الأردن، ينتسب آل المجالي في الكرك[1] إلى ذرية تميم الداري، ولكن هذه النسبة ستكون إلى «البنت» لأن تميماً لم ينجب أولاداً، فكل هؤلاء يكونون من «رُقيّة» ابنة تميم، والله أعلم.

٢ ـ فلسطين موطن تميم الداري:

إن المصادر التي ذكرت ترجمة تميم الداري، وخبر وفادته على رسول الله ﷺ، لم تذكر المكان الذي وفد منه مع قومه، ولم تذكر الديار التي كان يسكنها قبل إسلامه، وكأنهم يركنون إلى معرفة القارىء بمواطن سكنى قبيلة لخم، وما اشتهر بين الخاص والعام، أنها كانت من أهل الشام. ولكن بلاد الشام واسعة متعددة الأقاليم، ويتوق القارىء في أيامنا إلى التحديد والتقريب ما أمكن ذلك، حيث وقع بعض مؤرخي العصر الحديث في خطأ فادح، عندما نسبوا تميماً الداري إلى اليمن، فقال أحمد أمين «وتميم هذا كان نصرانياً من نصارى اليمن»[2].. ولعل أحمد أمين وقع في هذا الوهم لأن تميماً الداري يُذكر مع جماعة من أهل الكتاب، أسلموا، وكانوا من أهل اليمن، مثل: كعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الله بن سبأ..

---

(١) تاريخ شرقي الأردن وقبائلها ـ ص ٤٩٤.

(٢) فجر الإسلام ص ١٥٨.

ويذكرون لهم تأثيراً على الفكر الإسلامي، لما وجدوا من التشابه بين بعض الأفكار الإسلامية، وأفكار أهل الكتاب من النصارى واليهود، وسوف نرى بطلان ذلك، عند الكلام على مناقب تميم الداري.

أقول: إنه لمن الخطأ الفادح أن نعدَّ تميماً من أهل اليمن في زمن ما قبل الإسلام، أو في المدة التي أسلم فيها.. إن قبيلة لخم يمنية الأصل، ولكن هجرتها إلى الشام قديمة كما رأينا قبل قليل ونقلنا روايات تشير إلى أنَّ هجرة قبيلة لخم إلى ديار الشام ربما كان قبل المسيحية، واعتنقت قبيلة لخم المسيحية (أو بعضها) وهي في ديار الشام. والذي ترجح عندي، بل ثبت، أن رهط تميم الداري الذين وفدوا على رسول الله، كانـوا يسكنون في نـواحي فلسطين لا يتعدونها، ولو أردنا تحديداً دقيقاً فإننا نقول: كانوا يسكنون في جنوب فلسطين، وفي النواحي الشرقية منها: بل في نواحي النقب والغور وقطاع غزة، وطبرية، وجبال الخليل، وقضاء الرملة. وذلك للأدلة التالية:

أ ـ حدد النسابون والمؤرخون ديار لخم، فكانت أكثر ديارهم في جنوب فلسطين. فذكر ابن حزم: أن دار لخم بالشام، بين الشام ومصر حوالي العريش، والعريش حدّ بلاد الشام وفلسطين من جهة الجنوب. وذكر الهمداني من ديار لخم: «المغار»[1]

(١) المَغَار: قرية في قضاء الرملة، على بُعْد ١٢ كيلاً إلى الجنوب الغربي منها. والمغار أيضاً: قرية أخرى في قضاء طبرية. والأولى هي الأشهر بأنها من منازل =

والداروم[1] وما حول الرملة إلى نابلس، وزُغر[2]، ونواحي البحر الميت، وذكر من ديار لخم «الجولان» في سورية.

ب ـ لم يذكر المؤرخون نشاطاً لقبيلة لخم، في داخل الجزيرة أو جنوبيها إبّان العهد النبوي، ولم يذكروها في الوفود التي وفدت على رسول الله ـ وإنما ذكروا وفْد الداريين، أو وفْد نُمارة، أو وفد تميم الداري.. قالوا: وكانوا يعبدون «المُشْتري» ويحجون إلى صنم في مشارف الشام يقال له «الأُقيصر» ويحلقون رؤوسهم. ولو كانوا من سكان جنوب الجزيرة (اليمن) لم يكن صنمهم في مشارف الشام.

جـ ـ في أخبار الإقطاع[3] الذي أقطعه رسول الله لتميم الدّاري، ما يدل على أنهم من أهل فلسطين قبل الإسلام، وربما كانوا في ضواحي مدينة الخليل، حيث تقول بعض الروايات: إن تميماً قال لرسول الله ﷺ «لنا جيرةٌ من الروم» وذكر قريتين من قرى قضاء الخليل، طلب من رسول الله أن يقطعهما له، ومعنى هذا أنه كان يسكن في نواحي الخليل.

وهناك روايات أُخرى تذكر قرية «بيت جبرين» وهي من

= قبيلة لخم، وقد دمرها الأعداء سنة ١٩٤٨ م، وأما الثانية، فلا زالت عامرة بسكانها في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ م.

(١) الداروم: الاسم القديم في كتب الجغرافية، واسمها اليوم «دير البلح» في قطاع غزة. تقع على مسافة ستة عشر كيلاً جنوب غزة.

(٢) زُغر: كانت تقع على شاطىء البحر الميت الجنوبي الشرقي، كانت لها أهمية في القرون الخالية، ثم اندثرت.

(٣) سوف أفرد له فصلاً خاصاً، فانظره.

قضاء الخليل وفي رواية «فهبْ لي قريتـي من بيت لحم» وبيت لحم قريبة من بريّة الخليل. وهناك رواية تذكر المكان الذي فيه قبر إبراهيم عليه السلام.. ومما يدلك على أنه من أهل تلك الديار كونه عارفاً خصائصها وفوائدها، حيث تذكر بعض الروايات أن تميماً طلب من رسول الله «القُرَى التي يُصنع فيها الجصّ في التلّ، مع آثار إبراهيم».

د ـ حديث الجساسة[1]، الذي حدث تميم به رسول الله ﷺ وجاء فيه أنَّ الدجال كان يسألُ عن بعض الأماكن في فلسطين، وكان تميم ومَنْ معه يجيب جواب العارف بها[2] وجاء في بعض الروايات أن رسول الله قال: «إنَّ تميماً حدثني، أنه ركب البحر في نفرٍ من أهل فلسطين..». وهذا يدل على المكان الذي كان يسكنه تميم وقت حدوث القصة.

هـ ـ وانظر أيضاً، في «مناقب تميم الداري» سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ [الآية: ١٠٦ ـ ١٠٨] من سورة المائدة وسوف تجد في الآراء التي عرضناها، ما يدل على أن تميماً كان ممن يسكن ديار الشام.

و ـ تقول الأخبار إن تميماً أسلم سنة تسع من الهجرة، وسكن

---

(١) سيأتي الكلام عنه مفصلاً في فصل لاحق.

(٢) سأل الدجال عن بحيرة طبرية ونخل بيسان، وهما من فلسطين وسأل عن «عين زُغر» وهي في غور الصافي من شرقي الأردن تحاذي فلسطين، وربما كانت تُعدّ من فلسطين، فالحدود الحالية ليست هي الحدود المعروفة قديماً. انظر «الأجناد» في معجم البلدان.

المدينة حتى مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم انتقل إلى فلسطين وتوفي في بيت جبرين[1] سنة ٤٠ هـ، وقد توفي عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥ هـ ومعنى هذا أن مدة إقامته في فلسطين بعد إسلامه كانت خمس سنوات وإقامته في المدينة بعد إسلامه أكثر من خمسة وعشرين عاماً. ومع ذلك وصف بأنه «راهب عصره وعابد أهل فلسطين» وأظن أن إضافته إلى أهل فلسطين في العبادة، لوحظ فيها سكنه الأول قبل إسلامه، لأن الروايات التي تصف عبادته، تُوقّتها بأيام سكناه المدينة، ولم أقع على رواية تصف عبادته وهو في فلسطين، فهو إذنْ فلسطيني سكن المدينة، وبقي الناس يعرفون له هذه النسبة وهو في المدينة، وإلا لما غلبت نسبته إلى أهل فلسطين، نسبته إلى المدينة وعيشه في المدينة بعد إسلامه كان أطول من عيشه في فلسطين، والله أعلم.

٣ ـ تميم الداري أمير القدس الشريف:

ذكروا أن تميماً تولى إمارة بيت المقدس، فروى الطبراني عن روح بن زنباع أنه قال: «دخلتُ على تميم الداري وهو أمير على بيت المقدس، وهو ينقي لفرسه شعيراً، فقلت: أيها الأمير أما كان

---

(١) تقع بيت جبرين في الشمال الغربي من مدينة الخليل على مسافة ستة وعشرين كيلاً، وتبعد عن القدس ثمانية وخمسين كيلاً. وهي بلدة قديمة تعود بتاريخها إلى جبابرة العمالقة، لأن معنى بيت جبرين «بيت الرجال الأقوياء». كانت عامرة حتى سنة ١٩٤٨ م وكان قبر تميم في شمال القرية وعليه مقام. انظر (معجم بلدان فلسطين) للمؤلف.

لك مَنْ يكفيك هذا؟». وروح بن زنباع راوي الخبر عده بعضهم من الصحابة، ولكنها لم تثبت له، ويبدو أنه ولد في عهد النبي ولم تكن له صحبة، فهو من التابعين؛ وتوفي سنة ٨٤ هـ، وهو من أهل فلسطين جُذامي، كان أميراً على فلسطين مدة. . ولكن لا نعلم متى تولى تميم إمارة بيت المقدس. . فأكثر الروايات تقول إنه لازم المدينة بعد إسلامه، ولم يفارقها إلا بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وأخباره تدل على أنه كان في عهد عمر، وعثمان في المدينة، حيث كان يَقُصُّ في مسجد رسول الله ﷺ، فهل تولاها في عهد معاوية؟ لأن فلسطين في عهد عليّ كانت خاضعة لإمارة معاوية، وقد مكث في فلسطين بعد وفاة عثمان حوالي خمس سنوات حيث توفي سنة ٤٠ هـ. وربما كان تولاها في عهد الخليفتين عمر، وعثمان، مدة قصيرة ثم عُزل عنها والله أعلم.

٤ ـ كم عاماً عاش تميم الداري؟:

ليس لدينا رواية تخبر عن سنيّ حياته ولكن الروايات التي وصلتنا عن نشاطه تقدم لنا تقديراً تقريبياً لذلك. . فهناك روايات تخبر عن بلوغه سنّ الرشد والعقل الواعي المفكر منذ جاء الإسلامُ، والمدة التي عاشها تميم منذ بزغ فجر الإسلام حتى وفاته، تقارب الخمسين سنة، حيث توفي تميم سنة ٤٠ من الهجرة. . وبَحْثُ تميم عن الحقيقة الدينية منذ كان الإسلام وتجواله في البلاد ومعرفته أسرارها الجغرافية ـ بناءً على ما سيأتي من حديث الجساسة، واشتغاله بالتجارة بين الشام والحجاز، ورياسته وَفْد قومه عند القدوم على رسول الله. . كل هذا يدل على عمر ليس بالقصير، لأن

مجمـوع ما ذكرنا، تحتاج إلى الخبرة المدرّبة، وعلى هذا فإنَّ عمره في بداية الإسلام كان في العقد الرابع إن لم يكن في أواخر هذا العقد، وعليه فإننا نستطيع القول إن تميماً توفي وعمره قد تجاوز الثمانين، من المحقق أنه عاش منها ثلاثين سنة في إسلامه من سنة ٩ ـ إلى سنة ٤٠ هـ. والله أعلم.



الفصل الرابع

إسلام تميم الداري

١ ـ لماذا أسلم تميم الداري قبل فتح الشام؟

أ ـ قصّةُ الهاتف.

ب ـ المذهب المسيحي الذي كان سائداً في ديار الشام.

جـ ـ اطّلاع تميم الداري على أسرار الإنجيل.

٢ ـ وفادة تميم ورهطه على رسول الله ﷺ.

أ ـ لماذا كان العام التاسع من الهجرة عام الوفود؟

ب ـ في وفادة تميم على رسول الله روايتان.

جـ ـ تشوّف تميم إلى الدين الصحيح.

٣ ـ رهط تميم الداري.

٤ ـ لماذا انفرد تميم برواية الأحاديث عن رسول الله ﷺ؟

أسلم تميم الداري سنة تسع من الهجرة، وفي رواية أنه قدم على الرسول عليه السلام في مكة.

أما الرواية الأولى فتقول: إنه أسلم وسكن المدينة، وغزا مع رسول الله، ثم عاد إلى موطنه الأول في الشام، بعد مقتل عثمان بن عفان وعلى هذا يكون قد أقام بالمدينة بضعة وعشرين عاماً.

وتقول الرواية الثانية: إنه قدم على رسول الله في مكة قبل الهجرة ثم عاد إلى الشام، وعندما هاجر رسول الله إلى المدينة قدم تميم القدمة الثانية، وأقام بالمدينة حتى مقتل عثمان.. وأكدت المصادر التي ترجمت لتميم أن إقامته الأخيرة كانت في فلسطين ووُصف بأنه راهب عصره وعابد أهل فلسطين، ونقل ابن حجر عن ابن حبّان أنه مات بالشام وقبره في «بيت جبرين» من بلاد فلسطين، وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ. ونبحث في هذا الفصل عن سبب إسلام تميم الداري قبل فتح فلسطين، ووفادة تميم ورهطه على رسول الله ﷺ، ورَهط تميم الداري الذين رافقوه في الوفادة على رسول الله ﷺ.

١ ـ لماذا أسلم تميم الداري قبل فتح فلسطين؟

تؤكد المصادر أن قبيلة لخم، كانت تدين بالنصرانية، وكان تميم الداري ـ قبل إسلامه ـ نصرانياً[١] ولكن ما الذي دفعه إلى أن يقدم على رسول الله، ويعلن إسلامه، قبل أن يصل إليه الدعاة الفاتحون؟

أ ـ يجيب ابن عساكر عن هذا السؤال، بما يرويه بسنده عن تميم الداري أنه قال[٢]: كنتُ بالشام حين بُعث رسول الله ﷺ فخرجت إلى بعض حاجتي، فأدركني الليل، فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة، فلما أخذتُ مضجعي إذْ بمنادٍ يناديني لا أراه: عُذْ بالله، فإن الجنّ لا يُجير أحداً من الله. فقلت: لِمَ؟ فقال: قد خرج الرسولُ الأمينُ رسول الله، وصلينا خلفه بالحُجون[٣]، واتبعناه، وذهبت الجنّ، ورُميت بالشُّهب، فانطلقْ إلى محمدٍ وأسلمْ. قال: فلما أصبحت ذهبت إلى (دير أيوب)[٤] فقصدت راهباً وأخبرته الخبر، فقال: قد صدقوك، تجده ـ أي النبي ـ يخرج

---

(١) الإصابة، لابن حجر ـ جـ ١/١٨٣ والاستيعاب، لابن عبد البرّ. جـ ١/١٨٣ ـ على هامش الإصابة.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر. من تهذيب الشيخ عبد القادر بدران. جـ ١ ونقلها المقريزي في «ضوء الساري» عن ابن سعد. وانظر الفقرة (جـ) من الرقم (٢) وفيها تعليل لإسلام تميم الداري.

(٣) الحُجون: بضم الحاء، الثنية التي تُفضي إلى مقبرة المعلاة في مكة، وتسمى اليوم «ريع الحجون».

(٤) دير أيّوب: قرية في نواحي الرملة من فلسطين. وذكر ياقوت أيضاً: «دير أيوب» قرية بحوران السورية، بها كان أيوب عليه السلام كما يزعمون، ولا نعرف أيّ المكانين قصد تميم.

من الحرم، وهو خير الأنبياء، فلا تُسبق إليه. قال تميم: فتكلفت الشخوصَ حتى جئت رسول الله ﷺ، فأسلمت.

ولكن هذه الرواية لا يُعتمد عليها، لما يبدو فيها من الاضطراب والتناقض مع ما عُرف من حياة تميم الداري، ولتعارضها مع الروايات الأخرى التي تذكر زَمَنَ إسلام تميم.

فقوله: «أنا في جوار عظيم هذا الوادي» يعني أنه استجار بالجنّ، وكون تميم مسيحياً، كان من حقه أن يستجير بالله، أو بأي رمزٍ من رموز المسيحية، وسوف نعرف فيما يأتي أن تميماً كان على علمٍ ووعي بما في الإنجيل، ولم يكن إيمانه سطحياً.

وقوله «قد خرج الرسول الأمين» يعني أن هذا الخبر كان قبل الهجرة النبوية، لأن سورة «الجن» مكية، وفيها أخبر الله نبيه باستماع الجن القرآن، وإيمانهم[1]. ولكن أكثر الروايات وثوقاً تقول: إن تميماً أسلم سنة تسع من الهجرة، ووفد على رسول الله منصرفه من تبوك، وهذا يتعارض مع القول: إن تميماً عندما سمع المنادي، أسرع حتى قدم على الرسول وأسلم، لأن هذا يعني أن إسلامه تمَّ قبل الهجرة...

وقد ذكر أهل التفسير روايات في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً ﴾ [الجن: ٦] وليس من بينها قصة تميم الداري[2].

---

(١) انظر «فتح الباري» كتاب التفسير باب/ ٧٢.

(٢) انظر «أسباب النزول» للسيوطي و«الإصابة» لابن حجر، و«تفسير ابن كثير»، سورة الجن. فهناك ثلاث روايات في سبب النزول، إحداها أنها نزلت في «كردم =

بقي سبب أخير يُوهن من خبر سبب إسلام تميم، وهو قوله: «فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله فأسلمت»، وهذا يوحي بأن تميماً جاء إلى رسول الله مُفْرداً، والمشهور أن تميماً جاء في وفد من قومه.

هذا، ويمكن الجمع بين هذه الرواية - إذا صحت - ورواية إسلامه سنة تسع من الهجرة، إذا أخذنا بالرواية التي تقول: إن بني الدار، وفدوا على رسول الله ﷺ بمكة، وإنه قال لهم: انصرفوا حتى تسمعوا بي أني قد هاجرت، فلما هاجر رسول الله إلى المدينة قدموا عليه القدمة الثانية[1]. . ولكن المشهور المتواتر أنهم لم يقدموا إلى المدينة في بداية الهجرة، وإنما قدموا في السنة التاسعة، وإذا كانوا قد أسلموا في مكة عند القدمة الأولى، فلماذا أبطأ حضورهم إلى المدينة، وأخبار الهجرة النبوية إلى المدينة ملأت أكناف الأرض ولم يجهلها أحدٌ من العرب؟ ليس أمامنا إلا جواب واحد، وهو أن نقول: إذا صُحح قدوم الداريين أو أحدهم إلى مكة قبل الهجرة فإن ذلك القدوم لم يصحبه إسلامٌ، ومما يؤيد بقاء تميم على نصرانيته

= ابن أبي السائب الأنصاري» والثانية: في أبي رجاء العطاردي، من بني تميم. والثالثة: في رافع بن عُمير.

وقوله: ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أي: خوفاً وإرهاباً وذُعراً. قالوا: كان الجنّ يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشدّ، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً، هرب الجنّ، فإذا استعاذ الإنسي بهم تقول الجنّ: نراهم يخافون منا كما نخاف منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون. وكان الواجب أن يعوذ الإنسان بالله القوي القادر على الحماية.

(١) قال المقريزي في «ضوء الساري» ص ٦٥، بعد أن ساق رواية ابن عساكر في قدوم تميم على رسول الله في مكة: «هذا سياق ابن عساكر وهو حديث منكر، لأن قوله «وقع مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة»، لا يُعرف في أيّ من الآثار.

قبل الهجرة، ما سيأتي من الحديث عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ الآية [المائدة: ١٠٦]. وأنها نزلت في تميم الداري، وعديّ بن بدّا، وأنهما كانا نصرانيين، وأن الآية نزلت بعد الهجرة، والله أعلم.

وإذا رأينا ضعف الخبر السابق عن إسلام تميم المبكر قبل الهجرة، فإننا نبحث عن سبب آخر، ذكره المؤرخون في العصر الحديث وهم يتحدثون عن سبب إقبال عرب الشام على الإسلام أفواجاً، ألا وهو:

ب ـ المذهب المسيحي الذي كان سائداً في ديار الشام، ونحن نعرف أن تميماً كان نصرانياً قبل إسلامه، ويبدو أن نصرانيته كانت مبنية على العلم والمعرفة بكثير من حقائق الديانة المسيحية، ومثله عندما ينتقل إلى مذهب آخر، لا بدَّ أن يكون انتقاله مبنيّاً على العقل والمحاكمة والموازنة، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أن ننتظر مدة كافية لوصول أخبار الإسلام إلى تميم، وموازنتها بما لديه من الأفكار المسيحية، ليتبين أن الإسلام هو الدين الحقّ الذي بشّر به عيسى عليه السلام. وكان تميم أسرع أهل الشام إلى الإسلام، ولم ينتظر مجيء الدعاة الفاتحين ليعلن إسلامه لأنه كان من الطبقة المفكرة، فظهر له الحقُّ، فأسرع إلى اتباعه، ذلك أن المذهب المسيحي السائد في ديار الشام يقرّب المسافة بين الإسلام والمسيحية، وبخاصة حول القول في شخصية المسيح عليه السلام. يقول الأستاذ محمد عزة دروزة[1] في ذلك:

(١) «تاريخ موجات الجنس البشري» ص ٣٢٣.

«لقد عمت المسيحية تقريباً بلاد الشام، وجزيرة الفرات، غير أن الأقوال المتعارضة في العقيدة المسيحية ظلت مستشرية أيضاً تقسّم المسيحيين إلى فرق متناحرة. وقد ظل المذهب الأريوسي[1] الذي نجم في القرن الرابع الميلادي، وثبت قائماً إلى جانب العقيدة الكاثوليكية التي كانت تقوم على أساس المشيئتين والطبيعتين للمسيح، والتساوي في الجوهر بين الأب والابن والروح القدس، بل وغدا ـ أي المذهب الأريوسي ـ عقيدة الجمهور الأكبر من نصارى الشرق، وصار يقوم بطاركة وأساقفة منه أيضاً. وقد ظهر بعد أريوس أكثر من واحد من أصحاب الأقوال المعارضة للعقيدة الكاثوليكية أشهرهم اثنان؛ كان لمذهبهما أثر عميق ومستمر في العقيدة المسيحية والانقسام المسيحي، أولهما: نسطور[2] الذي ظهر في أواسط القرن الخامس الميلادي وكان ينكر تسمية مريم «أم الله» ويقول: إنها مخلوقة، وإن المخلوقة لا يمكن أن تلد خالقاً، وإنَّ الذي ولدته هو إنسان، صار آلةً للّه، وإن الذي تجسّد في حشاها غير كلمة الله، وإنما حصلت كلمة الله فيه فصار هيكلاً للّه في زعمهم، وبناءً على ذلك لم يُولد، ولم يتألم ولم يمت وأن

---

(١) نسبة إلى «أريوس» كاهن إسكندري، يعدّه المسيحيون من أصحاب البدع ولذلك يقول مؤرخوهم: زعم أريوس أن «الكلمة» الذي هو المسيح غير مساوٍ للآب في الجوهر. ولذلك حرمه المجمع النيقاوي = في مدينة نيقا كانت في آسيا الصغرى = سنة ٣٢٥ م.

(٢) نسطور: ولد في قيصرية سورية (٣٨٠ ـ ٤٥١ م) وكان بطريرك القسطنطينة ٤٢٨ م، أنكر على مريم لقب «أم الله» فحرمه مجمع أفس سنة ٤٣١ م، وأتباعه هم النساطرة.

في المسيح أُقنومين[1] إلّهي وبشري. وقد ارتقى نسطور إلى رتبة البطركية، وصار له أتباع وثبت مذهبه واستمر، مع ما انعقد من مجامع، وجرى من مجادلات. وقد تطور المذهب النسطوري، بأقوال تلميذه، أوطيخا[2] حيث كان يقول: إن المسيح إنسان حلّ فيه اللاهوت وإن الطبيعتين أو الأقنومين الإلّهي والبشري فيه امتزجا، فصارا فيه طبيعةً واحدةً، ولم يَعُدْ إنساناً كاملاً ولم يصر إلّهاً كاملاً، وإنه كان عند التجسد ذا طبيعتين ثم صار بَعْده ذا طبيعة واحدة. وقد غطّى المذهب النسطوري المعدّل على المذهب الأريوسي، ولا سيما أنه جاء متساوقاً معه، وتطويراً له أيضاً.

أما الرجل الثاني الذي جاء بعد أريوس وطوّر المذهب، فهو: يعقوب البردعي من رهبان الرها[3] وقد ظهر في أواسط القرن السادس، وأقواله متسقة مع أقوال نسطور، وأوطيخا، أي: كون المسيح ذا طبيعة واحدة عند التجسد، وقد ظهر في مصر، بطريرك اسمه «يعقوب ديسقوروس» في أواسط القرن الخامس يقول بمثل هذا القول فالتبس الأمر على بعض المؤرخين وجعلوا الاثنين واحداً، مع أن يعقوب البردعي من الرها، والآخر من مصر. وقد عُقدت مجامع ومجالس وكانت مناظرات ومجادلات، ولكنها لم تُسْفر عن شيء، حيث ثبت المذهب اليعقوبي وانتشر واعتنقه

---

(١) الأقنوم، كلمة سريانية معناها، الشخص، والأصل.

(٢) أوطيخا: راهب يوناني عاش في القسطنطينية (٣٨٨ ـ ٤٥٤) قال بوحدة الطبيعة في المسيح، فحرمه المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١ م.

(٣) الرها، أو «أورفا» مدينة بين النهرين في تركية، كانت عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع الميلادي، فتحها المسلمون سنة ٦٣٩ هـ.

الجمهور الأكبر في مصر والشام، وصار يقوم منه بطاركة وأساقفة إلى جانب بطاركة وأساقفة كاثوليك أو بالانفراد حسب تقلب الأحوال.

وكان اعتناق الرومان للمسيحية مما يزيد في التناحر بين أصحاب المذاهب المتعارضة، حيث كان ملوكهم يؤيدون مذهباً على آخر ويضطهدون أحياناً أصحاب المذهب الآخر، فيبدون ضحايا وشهداء ويشتد استمساكهم بمذهبهم. وكان الملوك أحياناً يقفون أمام الاختلافات المذهبية موقف عدم المبالاة أو الحياد فيكون ذلك فرصة للتجاذب والتَّشاد بين أهل المذاهب، ويتسنى لكل منهم أن يقيم مع رجاله بطاركة وأساقفة إلى جانب بعضهم بعضاً وكان الذين يشعرون بقوتهم يحاولون أن يفرضوا مذهبهم على الآخرين. وقد صار المذهب الكاثوليكي[1] منذ أواسط القرن السادس الميلادي هو

---

(١) الكثلكة أو الدين الكاثوليكي أو الكنيسة الكاثوليكية، اسم واحد للمذهب الديني ـ المسيحي ـ الذي يدين به أكثر الناس في أوروبا وأمريكا، وبعض النواحي من الشرق. ويرى أصحابه أنه هو الدين الوحيد الذي بشّر به السيد المسيح وأخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره تحت رئاسة الأساقفة الخاضعين للحَبْر الأعظم بابا رومية، خَلَف القديس بطرس المُقَام من السيد المسيح، كالمتقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته وكراعي نعاجه وخرافه. وأما اسم «الكثلكة» فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والمنتشرة في كل الأرض، لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت في جميع أنحاء المعمور. ويقولون: إن أصل الكثلكة، تلك الجماعة الأولى التي أنشأها السيد المسيح ودعاها كنيسة ألفها من الإثني عشر رسولاً، ثم من الاثنين والسبعين تلميذاً، وأنبأهم بتبشير إنجيله في كل العالم، وأوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم ويعمدوهم، باسم الأب والابن والروح القدس.. وقد شاع =

المذهب الرسمي للرومان، فصار أصحاب المذهبين اليعقوبي والنسطوري عرضة للاضطهاد والمطاردة، وممن اشتد في الاضطهاد جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٧ م) وظل الأمر على هذا المنوال إلى الفتح الإسلامي فعدّ اليعاقبةُ والنساطرةُ، العربَ الفاتحين منقذين ورحبوا بهم ودخلوا في ذمتهم ولم يلبثوا أن أخذوا يعتنقون الإسلام أفواجاً

= اسمهم فعرفوا بالمسيحيين، ثم صار التخصص بظهور بعض الشيع، فدعوا بالكاثوليك. وتقسم الكتب المقدسة عندهم إلى قسمين: أسفار العهد القديم. وأسفار العهد الجديد. أما أسفار العهد القديم، فهي التي كُتبت في الأصل باللغة العبرانية، ومنها أسفار موسى الخمسة. أما كتب العهد الجديد: فهي الأناجيل الأربعة: إنجيل متّى، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مَرقس، وإنجيل لوقا.. وملخص ما تقوم عليه عقيدتهم:

١ ـ التوحيد: أي اعتقاد وجود إله واحد بسيط أزلي لا أول له ولا آخر وهو خالق كل الكائنات.

٢ ـ عقيدة التثليث: هذا الإله الصمد ذو الجوهر الفرد والطبيعة الإلّهية الواحدة له ثلاثة أقانيم، هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال وكل قدرة: الأقنوم الأول «الأب» وهو أصل اللاهوت غير مولود وغير منبثق. الأقنوم الثاني: الابن: مولود من الأب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية، وهو إلهٌ من إله نور من نور إلهٍ حقّ من إله حقّ من جوهر الأب. الثالث: روح القدس: منبثق من الأب والابن ليس بطريق الولادة العقلية، بل بتبادل حب الآب لابنه وحب الابن لأبيه المولود منه.

٣ ـ عقيد التجسد: وهو سر الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس الذي تأنّس واتخذ في أحشاء مريم العذراء ـ دون زرع بشري ـ طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة، ليفدي بني آدم من تبعة الخطيئة الأصلية التي ارتكبها الأبوان الأولان.

٤ ـ عقيدة القيامة: في آخر الأزمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون إلى أجسادهم ليحضروا الدينونة الأخيرة التي يتولاها السيد المسيح، فيجازي الأبرار بالنعيم ويعاقب الأشرار بالعذاب.

حتى كاد يعمهم، لأنه بين عقيدتهم في المسيح وبين رأي الإسلام نوع من التقارب، وكان جمهور النصارى من العرب الصرحاء في بلاد الشام من أهل هذين المذهبين ـ اليعقوبي والنسطوري ـ فكانت الوحدة الجنسية هي التي جمعت بينهم وبين الفاتحين من الأسباب الميسِّرة لذلك والحافزة عليه».

ونحن لا نقول إن اضطهاد المذهب اليعقوبي والنسطوري هو الذي جعل مسيحيي الشام يعتنقون الإسلام[1]، لأن الإيمان الناتج عن ذلك لا يكون عميقاً، حيث يكون الدافع إليه أمراً دنيوياً ولا نقول: إنَّ التقارب بين رأي الإسلام في المسيح، ورأي النسطوريين واليعاقبة هو الذي دفع العرب في بلاد الشام إلى الإسلام، لأن المذهب الكاثوليكي واليعقوبي، كلاهما بعيد عن رأي الإسلام في المسيح. ومع أن اليعاقبة يرون إنسانية المسيح، ولكنهم يرون أيضاً حلول نوع من الألوهية فيه.. قد يكون الرأي اليعقوبي بداية الطريق إلى رأي الإسلام ولكن البون بينهما واسع، لأن عقيدة التوحيد الإسلامية لا تقبل أن يعكرها ذرة من الشرك مهما صغرت، فتوحيد الألوهية للّه وحده لا شريك له..

---

(١) في البدء، كان النسطوريون واليعاقبة يريدون الفرار من قهر الرومان أو الانتقام منهم، لأنهم كانوا يؤيدون كل غزو يدحر سلطان الرومان وقد ناصروا الغزو الفارسي الأخير سنة ٦١١ م، ولكنهم عندما عُرض عليهم الإسلام ـ بعد الفتح ـ وجدوا فيه الدين الصحيح، لأنهم وجدوا من أتباعه التسامح والعدل، ووجدوا الاتفاق بين السلوك والقول، فكان ذلك يصادف القبول لدى النفوس المتشوقة إلى التوحيد، وخبر السماء الصادق الذي لم تحرفه الأهواء، فكان ذلك باعثاً لهم على قبول الإسلام، بعد فهم واقتناع. «انظر: تاريخ فلسطين القديم، لظفر الإسلام خان ص ١٣٢».

ولكننا نقول، إن اعتناق عرب الشام، المذهب النسطوري أو اليعقوبي في المسيح، جعل قبولهم رأي الإسلام في المسيح أسرع من غيرهم لأن البذور الأولى لرأي الإسلام في المسيح موجودة في المذهب اليعقوبي ولأن عرب الشام يحسون في كوامن نفوسهم أن العقيدة المسيحية غريبة عليهم، ولم تتغلغل في قلوبهم، وبعيدة عن الطبيعة العربية البسيطة السهلة التي ترفض الفلسفة والتعقيد، ولأن هذه العقيدة يتزعمها قوم لا تربطهم بهم علاقة قُربى في لغة، أو عادات أو نسب، فعندما أتى عرب الجزيرة بالدين الإسلامي أسرعوا إلى قبوله لسببين:

الأول: أن العقيدة الإسلامية في المسيح أقرب إلى الفهم وأقرب إلى العقل، ولا تحتاج إلى كثير من الفلسفة لهضمها، فعيسى عليه السلام: إنسان بشر كغيره من الأنبياء السابقين، بل كغيره من الناس، إلا أن ولادته معجزة، وبهذا يكون النبي أقرب إلى نفوس الناس لأنه بشر مثلهم. وزاد إقبالهم على الدين الجديد، عندما وجدوا النبي محمداً ﷺ يعترف بالنبي عيسى عليه السلام ويُقرُّ بنبوته، وأنه إنما جاء بما يتمم المبادىء التي دعا إليها المسيح، فالدين الجديد إذن حلقة في هذه السلسلة الإلّهية التي يُكلِّفُ الأنبياءُ بتبليغها إلى الناس.. ولا ننكر أن الظلم الذي كان يرسف فيه الناس، مقابلاً بالعدل الذي سمعوا به ورأوا ثمراته الأولى، من مشجعات القوم على اعتناق الدين الإسلامي.

والسبب الثاني: اعتقاد عرب الشام، أن أخوانهم عرب الجزيرة هم أصدق من الرومان فيما يعرضونه على الناس من المبادىء وقد

رأوا وعاشوا مساوىء الدولة الرومانية ومفاسدها. ولعلّ من أقوى الأسباب التي جعلت تميماً يقبل على الإسلام، ويسرع إلى الوفود على النبي ﷺ، كونه مسيحياً متعمقاً متديناً، مفكراً، ولم يكن إيمانه إيمان تقليد، ولعل ما وُصف به فيما بَعْدُ بأنه «راهب عصره وعابد أهل فلسطين» كان امتداداً لما كانت مقبلة عليه نفسه قبل إسلامه، وكونه مسيحياً متعمقاً، جعله يعرف من أسرار المسيحية الحقيقية شيئاً كتمه في نفسه وجاء الوقت لإظهاره، لوجود الشواهد على صحته من الإسلام، فلا فرق بين ما جاء به عيسى عليه السلام وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام في العقيدة، كلاهما داعٍ إلى عبادة الله الواحد الأحد، وكلاهما يدعو إلى الأعمال الصالحة التي يقطف المؤمن ثمارها في الآخرة.. والدليل على اطلاع تميم على جوهر الدين المسيحي الصحيح، أن الروايات التي تحكي قصة إسلامه تقول: إنه جاء إلى الرسول، وأعلن إسلامه، أو جاء مسلماً، ولم يذكروا أن رسول الله عرض عليه الإسلام.. والدليل على أن تميماً ووفد بني الدار، جاءوا مسلمين، أنهم حملوا معهم الهدايا لرسول الله ﷺ، فلم يكن في نيتهم السماع والمجادلة والتعرف على الإسلام، وإنما كانت نيتهم إعلان الإسلام أمام نبيّ الإسلام..

قلت: إن تميماً كان من المتعمقين في دراسة النصرانية المطلعين على أسرارها التي لا يطلع عليها عامة الناس، وإنما يعرفها أهل العلم، ومَنْ عندهم أسرار العقيدة، وبخاصة في الديانات التي انتابتها التغيرات لأهواء في نفوس أصحابها.. والمُحقق أن الديانتين المسيحية واليهودية دخل عليهما التحريف والتغيير، ولم تبقيا على الصورة التي نزلت على موسى وعيسى

عليهما السلام.. ومع هذا التحريف، فقد احتفظت الخاصة من أهل الديانتين بالحقائق الجوهرية الأولى، ولعل تميماً كان من هؤلاء الذين اطلعوا على حقيقة ما جاءَت به النصرانية، فجعلته يسرع إلى الإسلام.. وقد نقلت لنا الأخبار الصحيحة أن رؤوس القوم من النصارى، كادوا يسلمون لولا موانع دنيوية منعتهم، وهذا ما يروى عن هرقل ملك الروم، حين كتب إليه رسول الله يدعوه إلى الإسلام، فقد جاء في الحديث الطويل الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي سفيان وقد حضر وصول كتاب رسول الله إلى هرقل، حيث دعاه ملك الروم ليسأله عن صاحب الرسالة فقال هرقل؛ بعد سماع جواب أبي سفيان عن أسئلته: قال هرقل «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين ـ وكان في القدس ـ وقد كنت أعلم أنه خارجٌ، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أَني أخلُص إليه لتجشمت لقاءَه ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه»[1].

قال الشراح: إن مجموع الأسئلة التي طرحها على أبي سفيان، كانت علامات عنده على هذا النبي الذي سيخرج بعد عيسى.. ومنعه من الإسلام خوفه على نفسه وخوفه على ملكه.

أقول: كان هرقل من أهل العلم بأسرار النصرانية، حيث يروي البخاري في مكان آخر من الحديث «ثم كتب هرقل إلى صاحبٍ له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرمْ حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج

---

(١) فتح الباري جـ ١/٣٢.

النبي ﷺ وأنه نبيٌّ، فأذِن هرقل لعظماء الروم في دسكرة[1] له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلّقتْ، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبُت مُلككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلّقتْ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردُّوهم عليّ وقال: إني قلتُ مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فَسَجدوا له ورضوا عنه»[2]..

ومثل هذا أيضاً كان من النجاشي ملك الحبشة، حيث تروي كتب الحديث[3] والسيرة أن عمرو بن العاص ـ رسول قريش إلى النجاشي ـ أراد أن يُفسد العلاقة بين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وبين النجاشي، فدخل عمرو على النجاشي وقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي وسألهم عن قول المسلمين في المسيح، فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءَنا به نبينا ﷺ: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالوا: فأخذ النجاشي عُوداً من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود. فتناخرت البطارقة فقال: وإن نخرتم والله».

.. أقول: إن تميماً الداريّ كان على علم بأسرار المسيحية

---

(١) الدسكرة: كلمة فارسية معناها: القرية العظيمة، والصومعة، وبناء كالقصر تكون حواليه بيوت أخرى، وبيوت يكون فيها الشراب والملاهي.
(٢) فتح الباري ك / ١ ب / ٦، ج ١/٣٣.
(٣) مسند الإمام أحمد جـ ١/٢٠١. وسيرة ابن هشام (التهذيب ص ٧٤).

الصحيحة ولا بدّ أن معلوماتٍ كافية قد وصلته عن رسول الإسلام، وعن الإسلام، فوقع في قلبه الإسلام، ذلك أن أخبار الدعوة الإسلامية كانت قد وصلت إلى ديار الشام قبل أن يسلم تميم الداري، حيث قوافل التجارة لم تنقطع بين الحجاز والشام، بل كان أنباط الشام يأتون بتجارتهم إلى المدينة بعد الهجرة، وهم الذين نقلوا إلى المسلمين خبر استعداد الرومان وغسان لغزو الجزيرة[1]. . وهناك الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ إلى صاحب دمشق وإلى هرقل، وإلى قوم من قبيلة لخم في أرض «حَدَس» من الشام. . وتناقلت الأخبار، ما دار في المجلس الذي عقده هرقل في القدس، وحضره أبو سفيان إبان رحلته إلى الشام في التجارة، وأجاب فيه أبو سفيان عن أسئلة هرقل في محمد ﷺ. . كل هذا أوصل أخبار الإسلام إلى ديار الشام. ، وجعل المعارف الأولية عن الإسلام متوفرة، ولا بدَّ أن تميماً وصلت إليه بعض الأفكار الإسلامية والأسس التي يقوم عليها دين الإسلام، والروايات تثبت أنه لم يكن منقطعاً عن الحجاز قبل إسلامه، كما سيأتي في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ الآية من سورة المائدة[2].

---

(١) «الرحيق المختوم» ص ٤٨٤. تأليف: صفي الدين المباركفوري. . وكان ذلك سبب غزوة تبوك.

(٢) انظر (فصل) مناقب تميم وآثاره.

٢ ـ وفادة تميم ورهطه على رسول الله ﷺ:

أ ـ كانت أخبار الدعوة الإسلامية في البداية تكاد تكون محصورة في الحجاز بين مكة والمدينة والطائف، وما لبثت أن اتسعت دائرتها وأخذت تقترب من الشمال شيئاً فشيئاً. وإذا كانت أخبار الدعوة تقتصر فيما قبل الهجرة على ما تتناقله الركبان وقوافل التجار، فإنها أخذت بعد الهجرة تغزو أقطار شمال الحجاز بطريقة منظمة، عن طريق الرسائل والبعوث والسرايا والغزوات، ففي حوالي سنة ست من الهجرة بعث رسول الله كتابه إلى هرقل عظيم الروم حيث كان حالاًّ في القدس وأحدثت الرسالة آثاراً في تلك الديار، وكان لها صدى في نفوس الناس.

وعندما كان دحية الكلبي قافلاً من عند هرقل ـ وهو محمل بالهدايا ـ اعتدت عليه قبيلة جُذام ـ في الشمال من وادي القرى، بل داخل حدود شرقي الأردن اليوم ـ وجُذام ولخم أَخوان من أبٍ واحدٍ ويتجاوران في السكن والموطن، وكانت نتيجة هذا الاعتداء، أن أرسل رسول الله ﷺ، زيدَ بن حارثة إلى «حِسْمىٰ» وهي وراء وادي القرى، فشنَّ الغارة على جُذام، وكانت بين المسلمين وبين قبيلة جُذام موادعة، فأسرع زيدُ بن رفاعة الجُذامي ـ أحد زعماء هذه القبيلة ـ وشكا الأمر إلى رسول الله، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دِحْية الكلبي حيَن قُطعت عليه الطريق فأمر رسول الله، بردّ الغنائم والسبي.

كما أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق ودعاه إلى الإسلام، ومما جاء في الرسالة «وإني

أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك». وعندما وصلته الرسالة، غضب وقال: مَنْ ينزع عني مُلكي؟ أنا سائر إليه، ولم يسلم. ولا شك أن هذا الحدث قد أحدث صدى في أوساط القوم وتساءَلوا فيما بينهم عن حقيقة هذا النبي الجديد.

وحصلت غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة، ولا بدّ أن جَمْعاً من يهودها قد غادرها واتجه نحو الشمال، واستمع الناس إلى ما يقولون عن الدعوة الإسلامية.. وفي السنة الثامنة من الهجرة كانت غزوة مؤتة وهي متوغلة في ديار الشام، وخاصة ديار قبيلة لخم وجذام في نواحي معان من شرقي الأردن.

وكان فروة بن عمرو الجُذامي قائداً عربياً من قواد الروم عاملاً لهم على مَنْ يليهم من العرب، وكان منزله «معان» وما حولها من أرض الشام، فأسلم بعدما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم وصدقهم في اللقاء في معركة مؤتة، وأرسل إلى رسول الله بإسلامه، وأهدى للرسول بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ثم خيروه بين الردّة والموت، فاختار الموت، فصلبوه على ماء يقال له «عَفْراء» وضربوا عنقه.. وتعد هذه القصة أيضاً مرحلة مهيئة لانتشار الإسلام في قلوب خلق كثير من تلك الديار وينتظرون الوقت لإعلانه.. وحصلت غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة وسمعت بها قبائل العرب في الشمال، حتى جاءَت الوفود إلى رسول الله وهو في تبوك، يعلنون الإسلام، أو يطلبون الصلح ويدفعون الجزية..

كل هذه الأحداث والأخبار كانت مقدمة لانتشار الإسلام ووصول أخباره إلى الناس، فمنهم مَنْ وفد وأعلن إسلامه، ومنهم مَنْ تربص

حتى يأتيه الفاتح المبلغ. وكان أعظم حدث أثّر في نفوس العرب وأدى إلى توافدهم على رسول الله، هو فَتْح مكة، ومِنْ بعده غزوة تبوك، فكانت معركة فتح مكة معركة فاصلة قضت على الوثنية قضاءً باتاً، عرفت العرب بعدها الحقّ من الباطل وزالت عنهم الشبهات، فأسرعوا إلى اعتناق الإسلام.

قال ابن إسحٰق: لما افتتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيفُ وبايعتْ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تربّص بالإسلام أَمْرَ هذا الحيّ من قريش، وأَمْرَ رسول الله وذلك أن قريشاً كانوا إمامَ الناس وهاديَهم وأهلَ البيت الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادةُ العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخِلافِه، فلما افتُتحت مكة ودانت له قريش، ودخلها الإسلام، وعرفَت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل: ﴿ أفواجاً ﴾ يضربون إليه من كلّ وجه، ويقول الله تعالى لنبيه: ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دين اللهِ أفواجاً، فسبحْ بحمد ربِّك واستغفره إنه كان توّابا ﴾.

وروى البخاري عن عمرو بن سَلَمة قال: كنّا بماءٍ ممرّ الناس وكان يمرُّ بنا الركبانُ فنسألُهم: ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ ـ أي النبي ﷺ ـ فيقولون: يزعمُ أنَّ الله أرسله، أُوحيَ إليه، أوحى الله كذا، فكنتُ أحفظُ ذلك الكلام، فكأنما يُقرأ في صدري، وكانت العرب تنتظر بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إنْ ظهر

عليهِم، فهو نبيٌّ صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كلُّ قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي حقاً، فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثرُكم قرآناً. . الحديث[1].

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تعزيز قوة الإسلام، وتعيين الموقف للعرب واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تترى في العامين التاسع والعاشر ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، حتى أن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح إذا هو يَزْخَرُ في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عامٌ كاملٌ مع أن العامَ كان عام جَدْب وعُسرةٍ.

ب ـ إذن كان العام التاسع من الهجرة عامَ الوفود، وتتابعت في العام العاشر، فقد سرد أهل المغازي والسيرة ما يزيد على سبعين[2] وفداً، قدموا على رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم. . وفي عام الوفود بعد فتح مكة، وبعد الرجوع من تبوك، نرجّح مجيء وفد بني الدار من لخم، على رأسهم تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، ولكننا نجد في أخبار وفادة تميم روايتين: الأولى تقول: إنه وفد على النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة، والثانية تقول: إن الوفادة كانت مُنْصَرَف النبي ﷺ من تبوك، فأي الروايتين أضبط وأصح؟.

---

(١) البخاري ٢/٦١٥ ـ ٦١٦.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد جـ ١/٢٩١.

أما الرواية الأولى، فقد أخرجها الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي هند الداريّ ـ أخي تميم من أمه، وابن عمه ـ ونقلها القلقشندي في «صبح الأعشى» قال: قدمنا على رسول الله ﷺ مكة ونحن ستة نفر، وسألناه أن يعطينا أرضاً من أرض الشام[1] فأعطانا وكتب لنا في جلد أَدَم كتاباً فيه شهادة العباس، وجَهْم بن قيس[2] وشُرَحبيل بن حسنَة[3]، وكتب. وقال لهم رسول الله: انْصَرفوا حتى تسمعوا بي قد هاجرت، فلما هاجر رسول الله ﷺ قدم عليه الوفدُ وسألوه أن يجدد لهم الكتاب:

وهذه الرواية لا تصمد أمام النقد، حيث يعتورها الضعْف من ناحية السند[4]، ومن ناحية المتن. فقد قال ابن حجر في ترجمة «جهم بن قيس» أحد شهود كتاب رسول الله «ذكره ابن إسحٰق في مهاجرة الحبشة، وروى ابن منده بسندٍ ضعيف إلى أبي هند الداري، أن النبي ﷺ كتب له كتاباً وفيه: شهد عباس بن عبد المطلب وجهم بن قيس وشُرَحْبيل بن حسَنَة. قال: ويحتمل أن يكون الشاهد غير صاحب الترجمة إن ثبت الخبر بذلك».

---

(١) سيأتي بحث الإقطاع في فصل خاص.

(٢) جهم بن قيس بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، هاجر إلى الحبشة مع امرأته أم حرملة الخزاعية.

(٣) شُرَحبيل بن حسنة، وحسنة أُمُّه، وأما أبوه فهو عبد الله، وهو من مهاجرة الحبشة، وكان أميراً على ربع من أرباع الشام في زمن عمر بن الخطاب وتوفي في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ.

(٤) قال المقريزي؛ بعد سياق هذا الخبر: وهو حديث منكر، لأن قوله «وقع مرتين» مرة بمكة ومرة بالمدينة ـ لا يُعرف في أي من الآثار. وقدوم تميم، بلا خلاف كان بالمدينة.. وقال: ومع هذه النكارة، فإن سنده ضعيف «ضوء الساري ص ٦٥».

وكذلك كان شُرَحْبيل بن حسنَة من مهاجري الحبشة في المرة الثانية وكون شاهدين أحدهما كان الكاتب، غابا عن مكة نصف المدة المكيّة من حياة النبي ﷺ، يقلل مناسبات اللقاء بين وَفْد الداريين، وجهم بن قيس، وشُرَحْبيل بن حسنَة إن صح أنهم قدموا إلى مكة. لأن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة بعد البعثة، وقد عاد بعض المهاجرين بعد أشهر، عندما شاع أن أهل مكة أسلموا[1] ولكن مَنْ عاد كان مستخفياً أو مستجيراً ببعض سادات قريش[2] ولم يلبثوا أن عادوا إلى الحبشة بعد أن اشتد الأذى، ولم يرجع مهاجرو الحبشة إلا بعد الهجرة إلى المدينة. فهل كان مجيء وفد الداريين قبل السنة الخامسة من البعثة النبوية؟ إن القول بمجيئهم قبل السنة الخامسة من البعثة ضعيف، لأننا لم نقرأ أن الداريين كانوا من المسلمين الأوائل.. وليس من المقبول أن يكونوا قد أتوا إلى مكة وقابلوا رسول الله، وأقطعهم القطائع، وعادوا وهم على دينهم القديم.

أما الرواية الثانية: فقد نقلها غير واحد من المؤرخين[3]: قال محمد بن سعد بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، ورَوْح بن

(١) قال محمد بن سعد: فكانوا خرجوا في رجب سنة خمس فأقاموا شعبان وشهر رمضان، وقدموا في شوال سنة خمس.

(٢) قال ابن سعد: ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى أرض الحبشة.

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف، وابن سعد في الطبقات، وابن عساكر في تاريخ دمشق والنويري في «نهاية الأرب». وأبو عبيد في «الأموال» والماوردي في «الأحكام السلطانية»، وغيرهم.

زنباع الجُذامي عن أبيه قالا: قدم وفد الداريين على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك، وهم عشرةُ نفرٍ ـ وعدّ عشرة رجال ـ.. فأسلموا... قال ابن سعد: وأهدى هانىء بن حبيب لرسول الله راوية خمرٍ، وأفراساً، وقَبَاءً[1] مُخوّصاً[2] بالذهب، فقبل الأفراس، والقَبَاء، وأعطاه العباس بن عبد المطلب فقال: ما أصنعُ به؟ قال: تنزع الذهب فتحليه نساءَك أو تستنفقُه، ثم تبيعُ الديباج[3]، فتأخذ ثمنه، فباعه العباس من رجلٍ من يهود بثمانية آلاف درهم»..

وهذه الرواية هي الأقوى، لأنها وصلتنا بأسانيد من طرق متعددة توحي بمجموعها إلى صدق الخبر، ويقويها موافقة المتن لواقع الحال. فقوله: أسلموا: يدل على أن إسلامهم كان سنة تسع من الهجرة ولو كانوا أسلموا من قبلُ، ما ذكرهم أهلِ السيرة من الوفود التي قدمت على رسول الله بعد تبوك، وجلُّ مَنْ وفد على رسول الله، كان لإعلان إسلامه..

وفي الخبر أن هانىء بن حبيب أهدى رسول الله.. كذا، وأعطى رسول الله القباء للعباس، فباعه العباس من رجلٍ من يهود:

فقوله: أعطاه للعباس: فإن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، لم يعلن إسلامه إلا بعد الهجرة، ولم يهاجر إلى المدينة إلا بعد فتح مكة وقد شارك كفار قريش في غزوة بدر وأُسر، ويقال إنه

---

(١) القباء: بفتح الأول والثاني: ضرب من الثياب.
(٢) مخوّص: مطرز بالذهب ومزين.
(٣) الديباج: ثوب من الحرير الخالص ويكون عادة منقشاً. ويستعار للكلام المزين فيقولون: لهذه القصيدة ديباجة إذا كانت منمقة.

بعد بدر أسلم وكتم إسلامه عن قومه وأخذ يكتب إلى الرسول بأخبار مكة. . وعلى هذا كان مدة ما قبل الهجرة مشركاً، وهاجر بعد فتح مكة.

وقوله: فباعه العباسُ من رجلٍ من يهود: هذا يعني أن الهدية كانت بالمدينة لأنها كانت مأوى اليهود.

وجاء في السيرة، أن تميماً أهدى رسول الله فرساً يقال له الوَرْد فأعطاه عمرَ، فحمل عليه عمرُ في سبيل الله[1]. والحَمْل في سبيل الله كان في المدينة، لأن الجهاد وفرض القتال كان بعد الهجرة.

وجاء في سياق خبر وَفْد الداريين «وأقام وفْد الداريين في المدينة حتى توفي رسول الله وأوصى لهم بجادّ[2] مائة وَسْق من خيبر». وهذا نصٌّ على أنهم وفدوا على رسول الله في المدينة، وفيه أيضاً أن وفادتهم كانت بَعْدَ خيبر.

وهكذا يتبين أنَّ وفادة تميم ورهطِه لإعلان إسلامهم كانت في المدينة، وكانت على الأغلب في السنة التاسعة، ولا تتأخر عن السنة العاشرة لأن هاتين السنتين كانت فيهما الوفود على رسول الله ﷺ.

ولكن في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ الآية، ما يفهم منه أن تميماً كان يرد مكة قبل الإسلام، ولكن الخبر المروي في ذلك يدل على أنه

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١/ ٤٩٠.

(٢) قوله: جادّ مائة وسْق. أي: أرض تخرج مائة وسق من التمر. والوسق: ستون صاعاً، أو حمل بعير.

لم يسلم إلا في المدينة، لأن سياق الخبر يقول؛ على لسان تميم: «فلما أسلمتُ بعد قدوم رسول الله المدينة تـأثّمت من ذلك.. الخ»[١].

ولهذا يمكن الجمع بين الروايتين بالقول: قد يكون تميم الداري وبعض رهطه قدم إلى مكة قبل الهجرة، ولم يُسلموا وأنهم طلبوا من رسول الله أن يقطعهم أرضاً بالشام، فقبل رسول الله ذلك، من باب الترغيب في الإسلام والبشارة بأنَّ الإسلامَ سوف يصلُ إلى تلك الديار ولهذا طلبوا من رسول الله أنْ يجدد لهم كتاب الإعطاء بعد إسلامهم، وكونهم لم يسلموا في مكة، وكون صورة الإقطاع الأولى تمت في مكة، لا ينافي سيرة الرسول عليه السلام فقد ثبت أنه وعد سُراقة بن مالك بأن يكون له سوارا كسرى، وكان سُراقةُ وقتها كافراً، وعاد إلى مكة وهو كافر[٢].

جـ ـ ومع عِلْم تميم الداري، بما في النصرانية من أسرار، كان في حال شك مما هو عليه من العبادة، فكانت تتطلع روحه إلى الدين الصحيح، ويترقب مجيء النبيّ الذي أخبر عنه الإنجيل، يؤيد هذا ما رواه المقريزي في «الضوء الساري» عن محمد بن

---

(١) انظر فصل «مناقب تميم الداري».

(٢) انظر قصة سراقة في سيرة ابن هشام، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ / ٢٣٢، وقد أسلم سراقة يوم فتح مكة، ولبس سواري كسرى يوم فتح الله بلاد الفرس للمسلمين، وتحققت بشارة رسول الله ﷺ ونبوءته، وكان رسول الله قد وعده بسواري كسرى يوم لحق بالرسول وأبي بكر في طريق الهجرة، طمعاً في جائزة قريش، مائة الناقة لمن يأتي بمحمدٍ إليهم.

الربيع في كتاب «مَنْ دخل مصر من الصحابة» عن ابن لهيعة عن موسى بن علي عن أبيه، أن تميماً كان يبتغي بالدِّين فأتى اليهود فقالوا: إنا مغضوبٌ علينا(١)، ثم أتى النصارى فدلّوه على راهب فأتاه فقال: إنه خرج من بيت إبراهيم نبيٌّ. قال تميم: فأتيت النبي فحييته تحية الجاهلية فقال: إنما تحيتنا السلام، فرآني أنظر إليه وحدثته بأمر الراهب وسألته فقال: ائتني بمن استطعت من قومك وبالراهب ولن تدركه فإنه بقية القسيسين الذين ذكرهم القرآن، فانصرف فأتاه بنفر من قومه.. ثم ذكر قصة الإقطاع. ولكن الرواية لم تذكر مكان وزمان القدوم الأول.

---

(١) قوله «إنا مغضوب علينا» هو يوافق ما كان عليه حال اليهود قبل الفتح الإسلامي، لأنهم أساءوا إلى جيرانهم وأعملوا فيهم السيف إبّان الغزو الفارسي الأخير قبل الإسلام، حيث قتلوا جمعاً كبيراً من نصارى القدس، ولذلك حُرموا من دخوله، وأُثبت هذا في العهد الذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل القدس عندما قدم لفتحها، وكان هذا شرطاً لأهل القدس من عمر، أو شرطاً عليهم «أن لا يساكنهم أحد من يهود». وبقيت القدس خالية من اليهود حتى القرون المتأخرة، عندما تولى أمر الأمة الإسلامية، مَنْ لا يقيم وزناً للعهود، وسمحوا لليهود بسكنى القدس.

أقول: واليهود مغضوب عليهم من ربهم لكثرة مفاسدهم ولأنهم حاربوا كل هَدْي يأتي إليهم من السماء.

وقوله: «إنا مغضوب علينا» كان من النكاية لأعدائهم الرومان، أن يُخْبروا بما عندهم من أخبار النبوة المثبتة في كتبهم، ولكنهم كانوا يعرفون وينكرون، حسداً للأمة التي سيكون منها النبيّ الجديد. وصدق الله العظيم القائل: ﴿لتجدَنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ﴾ الآية [المائدة: ٨٢].

٣ ـ رَهْطُ تميم الداريِّ الذين رافقوه في الوِفادة على رسول الله ﷺ:

إنّ أكثرَ الروايات التي ذكرت وَفْد بنِي الدار إلى رسول الله تقول: إنهم عَشَرة[١] من الرجال. وهناك رواية تقول إنهم ستة رجال.

أما الرواية التي تجعلهم ستة فهي التي نقلها ابن عساكر في تاريخ دمشق وقال: إن وفادة الداريين كانت في مكة. وينقل ابن حجر ـ في الإصابة ـ هذه الرواية عن أبي نُعَيم في ترجمة «الطيب» ولكنه لم يحدد مكان الوفادة، فإذا صحت هذه الرواية، يكون الوفد الأول الذي قدم إلى مكة ستةَ نفرٍ، وعندما قدموا على رسول الله في المدينة كانوا عشرة. والأسماءُ التي تُذكر في الرواية التي تجعلهم

---

(١) فائدة نحوية: العدد (عشرة) يأتي مفرداً فيذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر (عَشَرَةَ رجال وعَشْر فتيات) ويأتي مركباً ١١ ـ ١٩، فيوافق المعدود في التذكير والتأنيث (تسعة عشر كتاباً، وتسع عَشْرة قصة) أما الشين من (عشرة وعشر): فالأشهر من أحكامها:

أ ـ إذا كانت مفردة، مع تاء التأنيث، فهي مفتوحة الشين (وعلى هذا المصحف الشريف ـ البقرة ١٩٦، والمائدة ٨٩). ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾.

ب ـ وإذا كانت مفردة، بدون تاء التأنيث (المعدود مؤنث) فهي ساكنة الشين.

جـ ـ وإذا كانت مركبة (١١ ـ ١٩) إن كانت مع التاء (المعدود مؤنث) فهي ساكنة (عَشْرة أو خمس عَشْرة) وإن كانت بدون تاء (المعدود مذكر) فهي مفتوحة الشين. وقد جاء على هذا رسم المصحف المكتوب بخط حافظ عثمان، الذي رقمه على ما وافق المصحف الشريف الذي كتبه مصطفى نظيف، وراجعه شيخ المقارىء المصرية سنة ١٩٥٤ م. ففي سورة البقرة ﴿ فانفجرت منه اثنتا عَشْرَة عيناً ﴾. وفي سورة المائدة ﴿ وبعثنا منهم اثني عَشَر نقيباً ﴾.

د ـ وقرأ بعضهم بكسر شين (عَشِرة) قال ابن جني: وهي لغة أهل نجد.

ستة نفر، تُكرر في الروايات الأخرى التي تقول إنهم عشرة، وأنهم قدموا إلى المدينة وقد اختلفت الروايات في بعض الأسماء مما جعل عددهم يزيد على عشرة ولكنَّ المؤكد أنهم لا يزيدون على العشرة، مع اختلاف الروايات، لأن الاختلاف إنما هو في لفظ الاسم بسبب التصحيف ممن نقل عن الروايات المكتوبة. . وإليك موازنة الروايات التي تجعلهم عشرة، مقرونة بالرواية التي تجعلهم ستة نفر، مع تعريف موجز بكل علم:

	العشرة عند ابن سعد	العشرة عند ابن عساكر
١	تميم بن أوس	تميم بن أوس
٢	نُعَيْم بن أوس	نُعيم بن أوس
٣	يزيد بن قيس	يزيد بن قيس
٤	الفاكه بن النعمان	الفاكه بن النعمان
٥	جبلة بن مالك	جبلة بن مالك
٦	أبو هند بن ذرّ	أبو هند بن درّ
٧	الطيب بن ذرّ	الطيب بن درّ
٨	هانىء بن حبيب	هانىء بن حبيب
٩	عزيز بن مالك مرّة بن مالك (عروة أو مروان)	عُزَير بن مالك مرة بن مالك (عروة أو مروان)
	—	—
	—	—
	—	—
١٠	المستدرك: وهب بن مالك.	المستدرك: وهب بن مالك.

	العشرة في رواية ابن حجر		الرواية التي تجعلهم ستة
١	تميم بن أوس		(١) تميم بن أوس
٢	نُعيم بن أوس		(٢) نعيم بن أوس
٣	يزيد بن قيس		(٣) يزيد بن قيس
٤	الفاكه بن النعمان		يزيد بن رفاعة بن النعمان
٥	جبلة بن مالك		يزيد بن رفاعة بن النعمان
٦	أبو هند		(٤) أبو هند
٧	الطيب		(٥) الطيب
٨	هانيء بن حبيب		الطيب
٩	هانيء بن حبيب		الطيب
	مرة بن مالك	عروة أو مروان	الطيب
	عروة بن مالك		الطيب
	قيس بن مالك		الطيب
	قيس بن مالك		(٦) رفاعة بن النعمان
١٠			«الفاكه بن النعمان»

ونلاحظ ما يلي:

١"ـ اتفقت روايتا ابن سعد، وابن عساكر، فالاثنتان عن الواقدي، واختلفا في «التاسع» فعند ابن سعد آخره زاي، وعند ابن عساكر آخره راء، ويبدو أن الاثنين واحد، والتصحيف وقع لأحدهما، بل الاسمان مصحفان من اسم آخر في رواية ابن حجر، إما أن

يكون «مرة» أو «عروة» فلم أر في أسماء الصحابة مَنْ اسمه «عُزير» بالراء أو الزاي، وأبوه «مالك» ويكون من بني الدار.

٢"- في رواية ابن حجر وصل عددهم أحد عشر رجلاً، فقد جاء اسم قيس ابن مالك، وهو لا يشتبه بغيره من الأسماء ليكون من التصحيف، مع هذا لم يترجم له ابن حجر في الصحابة.

٣"- ذكر ابن حجر في ترجمة عبد الرحمٰن بن مالك الداري، أن اسمه كان عُرْوة، أو مروان، فسمّاه الرسول عليه السلام، عبد الرحمٰن. وبذلك يدخل اسم جديد وهو «مروان».

٤"- قال السمعاني في «الأنساب» إن اسم أبي هند، هو «برّ بن بُرّ». وقيل اسمه «بُرَيْر» وبذلك يدخل اسم جديد إلى المجموعة وإن كان هذا الاسم بدلاً لاسم آخر.

وإليك تعريفاً موجزاً بكل علم:

١ - تميم بن أوس. . توفي في بيت جبرين بفلسطين سنة ٤٠ هـ، وقبره معروف هناك. . وقد مضى، وسيأتي مزيد من الكلام عنه، لأن مدار هذا البحث في حياته.

٢ - نُعيم بن أوس، أخو تميم، قدم على رسول الله مع أخيه تميم منصرفه من تبوك وخصه ابن سعد فيمن كتب له رسول الله كتاباً في باب «ذكر بعثة رسول الله الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتب به رسول الله ﷺ لناس من العرب وغيرهم»، ولا يُقبل ما ذكره ابن عبد البر، أن قوماً أنكروا قدوم نُعيم في الوفد، فقد ورد خبر كونه من الوفد، في روايات كثيرة، وهو مذكور في الستة والعشرة.

٣ ـ يزيد بن قيس بن خارجة الداري، من رهط تميم، ذكره ابن اسحٰق فيمن أوصى له النبي ﷺ بجادّ مائة وسق من تمر خيبر، وهو مذكور في الستة والعشرة.

٤ ـ الفاكه بن النعمان الداري، من رهط تميم الداري، ذكره ابن اسحٰق من جملة الداريين الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ، وذكره ابن سعد، والطبري ولم يُذكر في الستة الذين قدموا مكة، وقيل هو «رفاعة بن النعمان» والله أعلم.

٥ ـ جبلة بن مالك، بن جبلة، الداري اللخميّ، وفد على النبي ﷺ منصرفه من تبوك، مع الداريين، ذكره ابن سعد، وابن عساكر، وابن حجر ولم يذكر في الستة الذين وفدوا إلى مكة.

٦ ـ أبو هند، من بني الدار، مشهور بكُنيته: وجاء في الطبقات الكبرى وتاريخ دمشق أنه ابن «درّ» بالدال، المهملة أو المعجمة. والمشهور أنه ابن «برّ» بالباء في أوله، وكما اختلفوا في اسم أبيه، اختلفوا في اسمه، فقيل: اسمه «بُرَيْر» ويقال: برّ بن عبد الله، وقيل: بُرّ بن برّ. قال السمعاني في الأنساب: مات ببيت جبرين من فلسطين، ورجح قومٌ أن يكون اسمه «بُرَير» وأن قرية «بُرير»[1] في فلسطين، منسوبة إليه. وهو أخو تميم من أمه، وابن عمّه، روى له الإمام أحمد في مسنده عن

---

(١) بُرير: قرية فلسطينية، تقع في الشمال الشرقي من غزة على بُعْد واحد وعشرين كيلاً. دمّرها اليهود ـ لعنهم الله ـ يوم دخلوها سنة ١٩٤٨ م، وبنوا على أراضيها المستعمرات، حيث اكتشف البترول بالقرب من القرية.. انظر «معجم بلدان فلسطين» للمؤلف.

رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قام مقام رياءٍ وسُمْعةٍ، راءى الله به يوم القيامة، وسمع». وهو مذكور في العشرة، والستة[1].

٧ ـ الطيّب؛ بن عبد الله الداري، ويقال ابن «برّ» وهو أخو أبي هند قيل: أخوه لأمه، وقيل: من أبيه وأمه. ذُكر في العشرة والستة وسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن، وقيل: سماه عبد الله.

٨ ـ هانىء بن حبيب الداري، من رَهْط تميم، ذُكر من العشرة فقط، ولم يذكر في الستة الذين قيل إنهم وفدوا في مكة، ونقل الرواةُ أنه أهدى لرسول الله قَبَاءً مخوّصاً بالذهب، فأعطاه العباس، فباعه من رجل يهودي بثمانية آلاف.

٩ ـ عزيز، أو عُزير، في رواية ابن سعد، وابن عساكر، لم أجدهما في التراجم قلت: لعل الاسم محرف مما سيأتي من الأسماء.

٩ ـ مرّة بن مالك: كررت الرقم (٩) لأن الاسم السابق ليس له وجود، فيكون هذا الاسم هو التاسع.. إن وُجد. وجاء في الإصابة رقم (٨٩٠٨) مرة بن مالك. قال: تقدم في أخيه عبد الرحمٰن بن مالك، وفي ترجمة «عبد الرحمٰن بن مالك» رقم (٥١٩٤)، قال: كان اسمه عروة، فسماه النبي ﷺ «عبد الرحمٰن» ولم يذكر اسم «مرة» وبهذا قد يكون الاسم محرفاً من «عروة». ويكون التاسع هو «عروة بن مالك».

٩ ـ عُروة بن مالك بن شَدّاد بن جَذيمة الداريّ اللَّخمي. روى ابن

(١) قال السيوطي في «حُسْن المحاضرة» ١٠٣/١.. قال ابن الربيع: دخل مصر ولهم عنه حديث.».

حجر عن المستغفري أن رسول الله غير اسمه، فسماه «عبد الرحمٰن» ثم قال: إنما غيّر الرسول اسم «مروان»، وبهذا يكون «مرة» و «عروة» و «مروان» و «عبد الرحمٰن» اسماً واحداً، والله أعلم. فأين العاشر ولم يذكروه في أسماء الوفد؟ أظن أن العاشر هو:

١٠ ـ وهب بن مالك لأن الخلاف فيمن غيّر رسول الله اسمه، واقع بين عروة، ومروان، فيكون مروان هو عروة، وربما يكون العاشر وهباً، إذا عددنا «مرة» و «عروة» و «مروان»، ووهب ابنا مالك لهما صحبة. ونقل ابن حجر في الإصابة، أن وهب بن مالك الداري من رهط تميم، وأن ابن إسحق ذكره فيمن قدم مع تميم الداري والله أعلم.

٥" ـ والمتتبع تراجم مَنْ وفدوا مع تميم الداري على رسول الله ﷺ في كتب أخبار الصدر الأول، وكتب الأحاديث، لا يكاد يقع الإنسان على شيء ذي بالٍ من أخبارهم ومروياتهم، ما عدا تميماً، كما سنرى من الحديث عن ـ مناقبه، ومسنده ـ وأبا هند الداري الذي روى له الإمام أحمد في مسنده حديثاً واحداً، ولم يترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب لأنه ليس من أصحاب الرواية..

وإذا أردنا أن نلتمس تعليلاً لقلة ما يُروى عن نشاط هؤلاء الصحابة، الثمانية، فإننا نقول: لعلّ المدة التي مضت على وجودهم في المدينة، ما بين إسلامهم، ووفاة رسول الله ﷺ، كانت قصيرة، فلم يتيسر لهم الإكثار من مجالسة رسول الله والاستماع

إليه، فقد وفد هؤلاء على رسول الله منصرفه من تبوك. . وكانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة، قالوا: وأقام في تبوك عشرين ليلة، وقولهم: وفد رهط تميم منصرفه من تبوك. . قد يمتد هذا الظرف حتى نهاية العام. . وإذا عرفنا أن وفاة رسول الله ﷺ، كانت في السنة الحادية عشرة، تكون صحبة الداريين لرسول الله حوالي السنتين. . وكان هؤلاء من الغرباء على المدينة فقد يكونون انشغلوا بالحصول على رزقهم، وقد شغل الحصول على الرزق جمعاً كبيراً من المهاجرين والأنصار، كما قال أبو هريرة: «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم». . وربما يكون هؤلاء قد عادوا إلى قومهم مع بداية الفتح، لأن الأخبار التي تتحدث عن بقاء الداريين في المدينة، أكثر ما تكون لصوقاً بتميم الداري، الذي تواترت الأخبار عن وجوده في عهد عمر بن الخطاب وفي عهد عثمان بن عفان. وربما كان السبب في قلة مروياتهم أو انعدامها أحياناً أن رواة الحديث لم يرحلوا إليهم ليأخذوا عنهم، أو أنهم لم يُسألوا عن مسألة ليجيبوا عنها، لأن حديث رسول الله، موعظة وفتوى، وحكم شرعي، فإذا لم تكن مناسبة لذلك فقد يبقى العلم دفيناً. . وعلى كل حال، فإن صحابة رسول الله ألوفٌ مؤلفة، وليس كل صحابيٍ روت له كتب الحديث أخباراً. قال ابن قتيبة: وكان عمر شديداً على مَنْ أكثر الرواية أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلّوا الرواية يريد بذلك أن لا يتسع الناس فيها ويدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة

بـرسول الله ﷺ، كـأبي بكـر والـزبيـر وأبي عبيـدة والعبـاس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه. بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة. . وروى مطرف بن عبد الله أن عمران بن حُصين قال: والله إنْ كنت لأرى أني لو شئت لحدثتُ عن رسول الله يومين متتابعين، ولكن بطّأني عن ذلك، أن رجالاً من أصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهـدت، ويحدثـون أحاديث مـا هي كما يقولون، وأخاف أن يُشبّه لي كما شبه لهم، فأعلمك أنهم كانوا يغلطون لا أنهم كانوا يتعمدون[1].

أقول: وإن أصحاب محمد ﷺ، بشرٌ من البشر، يتمايزون فيما بينهم في العقل والفهم، والاهتمامات الخاصة، والميول والقدرات يدلك على هذا ما رواه ابن سعد عن أبي البَخْتري قال: أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ فقال: عن أيهم؟ قال: حدثْنا عن عبد الله بن مسعود قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك عِلْماً. قال: حدثْنا عن أبي موسى، قال: صُبغ في العلم صبغةً ثم خرج منه. قال: حدثنا عن عمار بن ياسر، قال: مؤمن نسي وإذا ذُكّر ذكر. قال: قلنا حدثنا عن حُذيفة قال: أعلم أصحاب محمدٍ بالمنافقين. قال: قلنا: حدثنا عن أبي ذرّ، قال: وعى علماً ثم عجز فيه، قال: أخبرنا عن سلمان، قال: أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحرٌ لا يُنْـزح قعره[2].

---

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة ص ٤٢.

(٢) الطبقات الكبرى جـ ٢/٣٤٦.

وقد لحظ عمر بن الخطاب هذه الفروق بين الصحابة، فكان يضع كل واحد في موضعه المناسب قال ابن عساكر: ولما كان شُرَحْبيل بن حسنَة في فتوح الشام، افتتح الأردن كلها عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه.. ولما قدم عمر الجابية عزل خالد بن الوليد وشُرَحْبيل، وأمر جنده أن يتفرقوا إلى الأمراء الثلاثة فقال شُرَحْبيل: يا أمير المؤمنين، أعجزتُ أم خُنْتُ؟ فقال: لم تعجز ولم تخن، فقال: فلم عزلتني؟ قال: تحرجتُ أن أؤمرك وأنا أجدُ أحرى وأليق منك. قال: فاعذرني يا أميرَ المؤمنين في الناس قال: سأفعلُ.



الفصل الخامس

إقطاع النبي ﷺ تميمًا أرضًا في فلسطين

١ ـ معنى الإقطاع وتاريخه وبعض أحكامه.
٢ ـ روايات نصوص الإقطاع النبوي لتميم الداري.
٣ ـ نقد روايات الإقطاع والحكم عليها.
٤ ـ لماذا اختار تميم ورهطه ديار الخليل؟
٥ ـ التعريف بالأماكن التي وردت في الإقطاع.



١ ـ معنى الإقطاع، وتاريخه وبعض أحكامه:

أ ـ الإقطاع، مصدر الفعل أقطع، يُقال: أقطعَ الأميرُ الجندَ البلدَ: أي: جعل لهم غلَّتها، والواحدة: إقطاعة، والجمع إقطاعات.

ويقال: قَطَعه أرضاً، أي: جعلها له، أو جعل له غلتها، والواحدة قطيعة، والجمع قطائع.

واستقطعه الأرضَ: سأله أن يُقطعه إياها. وأقطعتُه قطيعةً: أي: طائفةً من أرض الخراج. وأقطعه نَهْراً: أباحه له. وفي الحديث: إنّ أبيض بن حمّال، استقطع الرسول عليه السلام الملح الذي بمأرب ـ اليمن ـ فأقطعه إياه. قال ابن الأثير: أي: سأله أن يجعله له إقطاعاً يتملكه ويستبدّ به، وينفرد.

قال ابن منظور: والقطائع إنما تجوز في عَفْو البلاد التي لا ملك لأحدٍ عليها، ولا عمارة فيها لأحد، فيُقطعُ الإمامُ المُسْتقطعَ منها قَدر ما يتهيأ له عمارتُه، بإجراء الماءِ عليه، أو باستخراج عينٍ منه، أو بتحجر عليه للبناء فيه.

وقال الشافعي: ومن الإقطاع، إقطاع إرفاق لا تمليك، كالمُقاعدة بالأسواق التي هي طُرُق المسلمين، فمن قعد في موضعٍ فيها كان له بقدر ما يصلح له، ما كان مُقيماً فيه، فإذا فارقه لم يكن له مَنْعُ غيره منه كأبنية العَرَب وفساطيطهم، فإذا انتجعوا، لم يملكوا منها حيث نزلوا. ومنها إقطاع السُّكنى. وفي الحديث: لما قدم رسول الله المدينة أقطع الناسَ الدورَ. معناه أنزلهم في دور الأنصار يسكنونها معهم ثم يتحولون عنها.

ب ـ والإقطاع من سنن الرسول عليه الصلاة والسلام، رُوي عنه بالأسانيد الصحيحة، منذ كانت دولة الإسلام في المدينة، والأحاديث في ذلك كثيرة، أذكر منها ما يُغني في الدلالة على الموضوع. وقد جاء في كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني، باب: ما جاء في إقطاع المعادن، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقطع رسول الله ﷺ، بلال بن الحارث المُزني معادن القَبَليّة[1] جَلْسيِّها وغوريِّها[2]، وحيث يصلُحُ الزرعُ من قُدْس، ولم يُعْطه حقّ مسلم».

وفي الباب أن أبيض بن حمّال استقطع رسول الله مِلْح مأرب

---

(١) القَبَلية: بفتح القاف والباء وتشديد الياء المثناة التحتية: كأنه منسوب إلى القبَل محركاً، وهو النشز من الأرض يستقبلك. اختلفوا في مكانها، فقيل من نواحي الفُرع في نواحي المدينة، وقيل: هي ناحية من ساحل البحر الأحمر، وقيل: بين المدينة وينبع.

(٢) جلسيها وغوريها: بالجرّ، بدل من القبلية. والجلس: كل مرتفع من الأرض، ويطلق على أرض نجد، أو كل أرض نجدية (مرتفعة) وغوريها: نسبة إلى الغور. والمراد هنا في الحديث: المواضع المرتفعة والمنخفضة من معادن القبلية.

ـ باليمن ـ فأقطعه فأخبره الأقرعُ بن حابسٍ أنه كان في الجاهلية وهو بأرض ليس فيها غيره مَنْ ورده أخذه، وهو مثلُ الماءِ العِدّ بالأرض[1]، فاستقال الأبيضَ في قطيعة الملح.. الحديث. قال الشوكاني: وأحاديث الباب تدل على أنه يجوز للنبي ﷺ ولمن بعده من الأئمة، إقطاعَ المعادن، والمراد بالإقطاع جعلُ بَعْض الأراضي المَوَاتِ مختصةً ببعض الأشخاص سواءٌ كان ذلك معدناً أم أرضاً، فيصيرُ ذلك (البعضُ) أَولى به من غيره ولكن بشرط أن يكون من الموات التي لا تختص بها أحد.

وفي باب «إقطاع الأراضي» من نيل الأوطار: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنتُ أنقلُ النوى من أرضِ الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ، على رأسي، وهو مني على ثلثي فرسخ.

وعن ابن عمر قال: أقطع النبي ﷺ الزبير، رَكْض فرسه من موات النقيع، فأجراه ورمى بسوطه رغبةً في الزيادة، فقال رسول الله ﷺ: «أعطوه منتهى سَوْطه». وعن وائل بن حُجْر أن النبي ﷺ أقطعه أرضاً بحضرموت، وبعث معاوية ليقطعها إياه.

قال الشوكاني ـ شارحاً ـ: وأحاديث الباب فيها دليل على أنه يجوز للنبي ﷺ ومَنْ بعده من الأئمة إقطاع الأراضي وتخصيص بعض دون بعض بذلك إذا كان فيه مصلحةٌ، وقد ثبت عنه في الإقطاع غير أحاديث هذا الباب.

وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد عن أسماء بنت أبي بكر، أن

---

(١) الماء العِدّ: بكسر العين: الماء الذي له مادة لا تنقطع كماء العين.

رسول الله ﷺ أقطع الزبير أرضاً بخيبر فيها شجر ونخل. ورواه البخاري وأبو داود بلفظ «أقطع الزبير نخلاً».

وأقطع أبو بكر طلحةَ بن عُبَيد الله أرضاً. . قال: وكان عمر كتب إلى أبي موسى، أن نافعاً أبا عبد الله الثقفي، طلب إقطاعه أرضاً بالبصرة ليست من أرض الخراج، ولا تضرُّ بأحدٍ من المسلمين فإن لم تكن أرض جزية ولا أرضاً يجري إليها ماء جزية فأعطها إيـاه.

وعن موسى بن طلحة: أنَّ عثمانَ أقطع خمسة من أصحاب النبي ﷺ: الزبير، وسعداً، وابن مسعود، وأسامة بن زيد، وخبّاب ابن الأرتّ.

وفي صحيح البخاري: «كتاب المساقاة» باب القطائع، عن أنس رضي الله عنه قال: أراد رسول الله ﷺ أن يُقطع من البحرين، فقالت الأنصار: حتى تُقطعَ لإخواننا من المهاجرين مثلَ الذي تُقطع لنا.

قال ابن حجر في الفتح[1]: قوله «باب القـطائع» جمـع قطيعـة، تقول: قطعتُه أرضاً، جعلتها له قطيعة، والمراد به: ما يخصُّ به الإمامُ بعضَ الرعِيّة من الأرض الموات، فيختص به ويصير أولى بإحيائه ممن لم يسبق إلى إحيائه، واختصاص الإقطاع بالموات متفقٌ عليه في كلام الشافعية وحكى عياض: أن الإقطاع تسويغ الإمام من مال الله شيئاً لمن يراه أهلاً لذلك قال: وأكثر ما يُستعمل في الأرض، وهو أن يُخرج منها لمن يراه، ما يحوزُه، إما بأن يملّكه إياه، فيعمره، وإما أن يجعل له غلّته مرة. قال السبكي: والثاني: هو الذي يُسمى في زماننا هذا إقطاعاً، ولم أر أحداً من أصحابنا

(١) جـ ٥/٤٧.

ذكره، وتخريجه على طريق فقهي مشكل. قال: والذي يظهر أنه يحصل للمُقطع بذلك اختصاص كاختصاص المتحجّر، ولكنه لا يملك الرقبة بذلك.

قال ابن حجر في شرح حديث البخاري: وظاهر الحديث أنه أراد ـ ﷺ ـ أن يجعل البحرين لهم إقطاعاً، واختُلف في المراد بذلك. فقال الخطابي: يُحتمل أنه أراد «الموات» منها ليتملكوه بالإحياء ويُحتمل أنْ يكون المراد، العامر منها، ولكن في حقه من الخمس، لأنه كان ترك أرضها فلم يقسمها. وتُعقّب بأنها فُتحت صُلْحاً، فيحتمل أن يكون المراد أنه أراد أن يخصهم بتناول جزيتها، ووجّهه ابن بطّال: بأن أرض الصلح لا تقسم فلا تملك. وقال ابن التين: إنما يُسمى إقطاعاً إذا كان من أرض أو عقار، وإنما يقطع من الفيء ولا يقطع من حقٍّ مسلم أو معاهَد. قال: وقد يكون الإقطاع تمليكاً وغير تمليك، وعلى الثاني يُحمل إقطاعه ﷺ الدور بالمدينة كأنه يُشير إلى ما أخرجه الشافعيُّ مُرْسلاً ووصله الطبراني، أن النبي ﷺ، لما قدم المدينة أقطع الدور، يعني: أنزل المهاجرين في دور الأنصار برضاهم.

قال ابن حجر: والذي يظهر لي: أن النبي ﷺ أراد أن يخصَّ الأنصار بما يحصلُ من البحرين، أما الناجزُ يَوْم عرض عليهم ذلك، فهو الجزيةُ، لأنهم كانوا صالحوا عليها، وأما بعد ذلك إذا وقعت الفتوحُ فخراجُ الأرض أيضاً، وقد وقع منه ﷺ ذلك في عدةِ أراضٍ بعد فتحها وقبل فتحها، منها: إقطاعه تميماً الداري بيت إبراهيم، فلما فتحت في عهد عمر، نجز ذلك لتميم، واستمر في أيدي ذريته

من ابنته رُقيّة، وبيدهم كتاب من النبي ﷺ بذلك، وقصته مشهورة، ذكرها ابن سعد، وأبو عبيد في كتاب الأموال، وغيرهما.

هذا، وقد عنون أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» فقال: أول مَنْ أقطع الأرضين عثمان، ولم يقطع النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا علي.. ثم قال: قد روي أن النبي أقطع قطائع فاقتدى عثمان به في ذلك..

وقد زل أبو هلال في نسبة هذه الأولية إلى عثمان رضي الله عنه، لأننا رأينا في الأحاديث الصحيحة ما يُثبت أن الإقطاع قديم، وحصل من رسول الله في مواضع متفرقة، لأشخاص كثيرين، ونقلنا عن أبي عُبيد في كتاب «الأموال» أن أبا بكر رضي الله عنه أقطع طلحة أرضاً، وأن عمر بن الخطاب أقطع أيضاً، فجاء عثمان متّبعاً السنة في ذلك، سنة النبي ﷺ، وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر.. واعتذر عنه القلقشندي في صبح الأعشى في باب «الإقطاع والمهادنات» فقال: اللهم إلا أن يريد أن عثمان أول مَنْ أقطع القطائع بعد الفتح. وهو تأويل مردود، لأن قطيعة عمر لأبي عبد الله الثقفي كانت من أرض البصرة بعد الفتح[1]...

جـ - من أحكام الإقطاع في الإسلام:

روى أبو عبيد في كتاب «الأموال» أن رسول الله ﷺ قال «عاديّ[2] الأرض لله ولرسوله ثم هي لكم مني».. ثم ذكر أحاديث

---

(١) انظر «كتاب الأموال» لأبي عبيد ص ٢٥٣. وانظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد جـ ١ و «نيل الأوطار» المجلد الثالث جـ ٥/٣٠٩ - ٣١١.

(٢) عاديّ الأرض: قديمها، كأنه من عهد عاد.

إقطاع الرسول عليه السلام بعض الصحابة أرضاً.. وقال: ولهذه الأحاديث التي جاءَت في الإقطاع وجوه مختلفة، إلا أن حديث النبي ﷺ في «عاديّ الأرض» هو عندي مفسر لما يصلح فيه الإقطاع من الأرضين ولما لا يصلح. قال: والعادي من الأرض: كلّ أرض كان لها ساكن من آباد الدهر، فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس، فصار حكمها إلى الإمام وكذلك كل أرض مَوَاتٍ لم يحيها أحدٌ، ولم يملكها مسلمٌ ولا معاهَد.

قال: فهذا وجه الإقطاع، أما إقطاع النبي ﷺ أرضاً ذاتَ نخلٍ، فلعلها من ملك يمين رسول الله، مما اصطفى رسول الله من أرض خيبر، فقد كان له من كلٍّ غنيمة الصفيّ[1]، وخمس الخمس. ولاَ أعرف لإقطاعه أرضاً فيها نخل وشجر وجهاً غير هذا، أما قُريّات تميم: - يريد ما أقطعه رسول الله لتميم - وهي أرض معمورة ولها أهل، فإنما ذلك على وجه النفل له من رسول الله قبل أن تفتح فجعلها له نفلاً من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليها.

ولكن الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» كان أكثر تفصيلاً لهذا الموضوع فقال: وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره ولا يصح فيما تعين فيه مالكه، وتميّز مستحقه. وهو ضربان: إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال.

---

(١) الصفيُّ من الغنيمة: ما اختاره الرئيس من المغنم واصطفاه لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيره، وهو الصفيّة أيضاً، وجمعه صفايا.

١ ـ فأما إقطاع التمليك، فتنقسم فيه الأرض المُقْطَعة ثلاثة أقسام:

موات ـ وعامر ـ ومعادن. وسوف أتحدث عن القسمين الأولين فقط، لأنهما أقرب ما يكونان إلى موضوع إقطاع تميم الداري.

فأما الموات: فعلى ضربين: أحدهما: ما لم يزل مواتاً على قديم الدهر فلم تجر فيه عمارة، ولم يثبت عليه مِلْك، فهذا الذي يجوز للسلطان أن يُقطعه مَنْ يُحييه ومَنْ يعمره، ويكون الإقطاع ـ على مذهب أبي حنيفة ـ شرطاً في جواز الإحياء، لأنه يُمنع من إحياء الموات إلا بإذن الإمام. وقال الشافعي: إن الإقطاع يجعله أحقَّ بإحيائه من غيره، وإن لم يكن شرطاً في جوازه. وعلى كلا المذهبين يكون المُقْطعُ أحقَّ بإحيائه من غيره. وقد أقطع رسول الله، الزبير بن العوام، رَكْضَ فرسه من مواتِ النقيع. والثاني من أنواع الموات: ما كان عامراً فخرب فَصَار مواتاً عاطلاً وذلك ضربان:

أ ـ ما كان جاهلياً كأرض عادٍ وثمود، فهي كالموات الذي لم يثبت فيه عمارة ـ ويجوز إقطاعه لقول رسول الله ﷺ: «عاديُّ الأرض للّه ورسوله ثم هي لكم مني».

ب ـ ما كان إسلاميّاً، جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى صار مَواتاً عاطلاً، وقد اختلف الفقهاء في حكم إحيائه على ثلاثة أقوال:

١ ـ ذهب الشافعي إلى أنه لا يُملك بالإحياء سواء عرف أربابه أم لم يُعْرفوا.

٢ ـ وقال مالك: يُملك بالإحياء سواءٌ عُـرف أربابُـه أم لـم يعرفوا.

٣ ـ وقال أبو حنيفة: إن عُرف أربابه لم يُمْلك بالإحياء، وإن لم يُعْرفوا، مُلك بالإحياء، مع شرط الإقطاع.

فإن عُرف أربابه لم يجزْ إقطاعُه، وكانوا أحقّ ببيعه وإحيائه وإن لم يُعرفوا جاز إقطاعه، وكان الإقطاع شرطاً في جواز إحيائه فإذا صار المواتُ إقطاعاً، فمن خصَّه الإمامُ به، وصار بالإقطاع أحقَّ به، لم يستقرّ مُلكه عليه قبل الإحياء، فإن شرع في إحيائه صار بكمال الإحياء مالكاً له، وإن أمسك عن إحيائه فإن كان لعذرٍ ظاهرٍ لم يُعْترض عليه فيه، وأُقرّ في يده إلى زوال عذره.

وإن كان غَيْرَ معذورٍ: قال أبو حنيفة: لا يُعارض فيه قبل مُضيّ ثلاث سنوات. فإن أحياه فيها، وإلا بَطلَ حكمُ إقطاعه بعـدها احتجاجاً بأنَّ عمر رضي الله عنه جعل أجل الإقطاع ثلاث سنين.

وقال الشافعي: إن تأجيله لا يلزم، وإنما المُعْتبرُ فيه القدرة على إحيائه، فإذا مضى زمانٌ عليه يقدر فيه على إحيائه، قيل له: إما أن تحييه فيقرّ في يدك، وإما أن ترفعَ يدك عنه ليعود إلى حاله قبل إقطاعه، وأما تأجيلُ عمر، فهي قضية في عين، يجوز أن يكون لسبب اقتضاه، أو لاستحسان رآه.

فلو تغلب على هذا الموات المُسْتَقْطع، متغلبٌ، فأحياه، قيل: إن محيية أحقُّ به من مُستقطعه، وهو قول الشافعي.

وقال أبو حنيفة: إنْ أحياه قبل ثلاث سنين، كان ملكاً للمُقْطَع،

وإن أحياه غيرَ عالمٍ بالإقطاع، خُيِّر المُقْطع بين أخذه وإعطاء المحيي نفقة عمارته، وبين تركه للمحيي والرجوع عليه بقيمة الموات قبل إحيائه.

وأما العامر من الأرض: فهو ضربان:

١ ـ ما تعيّن مالكه، فلا نظر للسلطان فيه، إلا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال، إذا كانت في دار الإسلام، سواء أكان لمسلم أم كانت لذمي.

فإن كانت في دار الحرب التي لا يثبت للمسلمين عليها يدٌ، فأراد الإمام أن يُقطعها ليملكها المُقطع عند الظفر بها، جاز. وقد سأل تميمٌ الداريُّ رسول الله أن يُقطعه عيون البلد الذي كان منه بالشام ـ فلسطين ـ قبل فَتْحه، ففعل.

وسأله أبو ثعلبة الخُشْني[1] أن يقطعه أرضاً كانت بيد الروم. قال: فكأنه أعجبه الذي قال، فقال ﷺ: «ألا تسمعون ما يقولُ؟» قال أبو ثعلبة: والذي بعثك بالحقّ لتُفتحنَّ[2] عليك فكتب له بها. وهكذا لو استُوهب من الإمام مالٌ في دار الحرب وهو على ملك

---

(١) أبو ثعلبة الخُشْني: صحابي معروف بكنيته، واختلفوا في اسمه واسم أبيه. قيل كان ينزل «داريّا» بالقرب من دمشق، وأسلم قُبيل خيبر، وحضر الحديبية وتوفي سنة ٧٥ هـ.

(٢) قوله: لتفتحنَّ: قسمٌ. وإنما أقسم على أمر مُستقبل وهو غيب لا يعلمه إلا الله، استناداً إلى ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿ليظهره على الدين كله﴾. وقوله: ﴿والله متمٌّ نوره﴾. وقوله عليه السلام: «والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه».

أهلها، أو استوهَبَ أحداً من سبيلها وذراريها ليكونَ أحقَّ به إذا فتحها جاز، وصحت العطية فيه مع الجهالة بها، لتعلقها بالأمور العامة.

وروى الشعبي أن خُريم بن أوس الطائي، قال للنبي ﷺ إن فتح الله عليك الحيرة، فأعطني بنت نُفَيلة[1]، فلما أراد خالد بن الوليد صُلْح أهلِ الحيرة، قال له خُريم: إنَّ رسول الله جعل لي بنت نُفيلة فلا تدْخلها في صلحك، وشهد له بشيرُ بن سعدٍ، ومحمدُ بن مَسْلمة، فاستثناها من الصلح ودفعها إلى خُريم، فاشتريت منه بألفِ درهمٍ وكانت عجوزاً قد حالت عن عهده، فقيل له: ويحك قد أرخصتها، كان أهلها يدفعون إليك ضِعْف ما سألت، فقال: ما كنتُ أظن أن عدداً يكون أكثر من ألف.

فإذا صح الإقطاعُ والتمليكُ على هذا الوجه، نُظر حالُ الفتح، فإن كان صُلْحاً، خلصت الأرض لمُقْطعها، وكانت خارجة عن حكم الصلح، بالإقطاع السابق، وإن كان الفتح عنوة، كان المُسْتقطع والمستوهب أحقَّ بما استقطعه واستوهبه من الغانمين.

ونُظر في الغانمين: فإنْ علموا بالإقطاع والهبة قبل الفتح فليس لهم المطالبة بعوض ما استُقطع ووُهب، وإن لم يعلموا حتى فتحوا عاوضهم الإمام عنه، بما يستطيب نفوسَهم، كما يستطيب نفوسهم عن غير ذلك من المغانم. وقال أبو حنيفة: لا يلزمه استطابة

---

(١) اسمها: الشيماء بنت نُفيلة الأزدية. والقصة في «الإصابة» ترجمة خُريم بن أوس الطائي.

نفوسهم عنه ولا عن غيره من الغنائم إذا رأى المصلحة في أخذها منهم.

الضرب الثاني من العامر: ما لم يتعين مالكوه: فإن كان الإمام قد اصطفاه لبيت المال من فتوح البلاد ـ إما بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغانمين ـ لم يجز إقطاعُ رقبته، لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال، ملكاً لكافة المسلمين، فصار على رقبته حكم الوقف المؤبد، والسلطان فيه بالخيار، بين أن يستغله لبيت المال وبين أن يتخير له من ذوي المَكَنة والعمل مَنْ يقوم بعمارة رقبته ويأخذ خراجه ويكون الخراجُ أجرةً عنه تُصرف في وجوه المصالح.

وإن كان العامر أرضَ خراجٍ لم يجزْ إقطاعُ رقابها تمليكاً. وإن كان المواتُ قد مات عنه أربابه من غير وارثٍ، صار لبيت المال ملكاً لعامة المسلمين.

٢ ـ الضرب الثاني من الإقطاع، إقطاع الاستغلال:

وهو إما خراجٌ، أو عُشْرٌ:

فأما الخراج: فإن كان من يُقطعه الإمامُ من أهل الصدقات، لم يجز أن يُقطع مال الخراج، لأن الخراج فيء لا يستحقه أهل الصدقة، كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء.

وإن كان من أهل المصالح ممن ليس له رزقٌ مفروضٌ، فلا يصح أن يُقْطعَه على الإطلاق، وإن جاز أن يُعطى من مال الخراج، وإنْ كان من مُرتزقة أهل الفيء وهم أهل الجيش، فهم أخصّ

الناس بجواز الإقطاع، لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف إليهم مصرف الاستحقاق من حيث إنها أعواض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذبّ عن الحريم.

ثم الخراج: إما جزيةٌ، وهو الواجب على الجماجم، وإما أُجرة وهو الواجب على رقاب الأرض، فإن كان جزيةً لم يجز إقطاعه أكثر من سنة لأنه غير موثوق باستحقاقٍ بعدها لاحتمال أن يسلم الذميُّ فتزول الجزيةُ عنه، وإن كان أجرةً جاز إقطاعه سنين لأنه مستقر الوجوب على التأبيد.

وأما العُشر: فلا يصح إقطاعه لأنه زكاة الأصناف، فيعتبر وصف استحقاقهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يوجد فلا تجب..

قال القلقشندي المتوفى سنة **٨٢١** هـ بعد أن ذكر حكم الإقطاع:

هذا حكم الإقطاع في الشريعة وعليه كان عمل الخلفاء والملوك في الزمن السالف، أما في زماننا فقد فسد الحال وتغيرت القوانين وخرجت الأمورُ عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعات تردُ من جهة الملوك على سائر الأموال، من خراجِ الأرضين والجزيةِ، وزكاةِ المواشي والمعادن والعُشْر وغير ذلك. ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها وعمت بذلك البلوى، والله المستعان في الأمور كلها.

أقول: ولو عاش القلقشندي القرون التالية، لرأى ظلمة أشد، ومظالم أعتى، ولكان قال: (رحم الله النبّاش الأول).

٢ ـ روايات نَصّ الإقطاع النبوي لتميم الداري، ورهطه:

تواترت الأخبارُ بقصة الإقطاع النبوي لتميم الداري ورهطه، وروى نصَّ الإقطاع عدد من المؤرخين والمحدّثين، ورواة السيرة النبوية، وأثبته المؤلفون في مصنفاتهم، منذ البدايات الأولى في التصنيف، وتتابع على رواية نصوص الإقطاع عدد من مؤرخي القرون المتأخرة، ممن جمعوا بين النقل والمشافهة، والرحلة، فأثبتوا نصّ الإقطاع من مشاهداتهم العينية حيث قصدوا ديار الخليل، والتقوا أعقاب تميم الداري، واطلعوا على ما في حوزتهم من الحجج التي تثبت حقهم الموروث في الإقطاع، وتتقارب الروايات كلها في المضمون والشكل مع شيء من الاختلاف الذي لا يؤدي إلى التعارض.. ولما كانت هذه النصوص ذات قيمة علمية وتاريخية أحببت أن أُثبت جلَّ ما وصلتُ إليه، مرتباً حسب زمن المؤرخ الذي روى نص الإقطاع، أو رآه ورواه:

أ ـ إن أقدم مَنْ أثبت نصّ الإقطاع، أبو يوسف القاضي المتوفى سنة ١٨٢ هـ، في كتابه «الخراج». قال: «فقام تميم الداري فقال: إن لي جيرةً من الروم بفلسطين، لهم قرية يُقال لها: حبرون[١]، وأخرى يُقال لها عَينون، فإن فتح الله عليك الشام، فهبهما لي، فقال: هما لك. قال: فاكتب لي بذلك كتاباً، فكتب له: هذا كتاب من محمد رسول الله لتميم بن أوس الداري، أن له

---

(١) سأفرد عنواناً خاصاً في هذا الفصل، للتعريف بالأماكن التي وردت في روايات الإقطاع.

قريةَ حبرونَ، وبيتَ عينون، قريتهما[1] كلهما سهلهما وجبلهما وماؤهما، وحرثهما، وأنباطهما[2] وبقرهما[3]، ولعقبه من بعده لا يحاقه فيهما أحد، ولا يلجهما عليهم أحدٌ بظلمٍ. فمن ظلم واحداً منهم شيئاً، فإنَّ عليه لعنةَ الله». فلما تولى أبو بكر: كتب له كتاباً نسخته: «هذا كتابٌ من أبي بكرٍ، أمين رسول الله، الذي استُخلف في الأرض بعده، كتب للداريين، أن لا يُفسد عليهم سَبَدُهم ولبدهم[4] من قرية حبرون وبيت عينون، فمن كان يسمع ويطيع، فلا يفسد منهما شيئاً، وليقم عمودي[5] الناس عليهما، وليمنعهما

---

(١) قوله: قريتهما كلهما: كأنه بيان لمضمون الإقطاع، ليكون شاملاً المساكن والأبنية والضياع، وزاد الأمر وضوحاً عندما فصّل فقال: وسهلهما.. الخ..

(٢) وأنباطهما: العاملون في زراعة أرضهما.

(٣) في تاريخ دمشق (ونفرهما).

(٤) قوله: سبدهم ولبدهم: قال ابن منظور: السبد: الوبر، وقيل: الشعر. والعرب تقول: ماله سبدٌ ولا لبدٌ أي: ما له ذو وبر، ولا صوف متلبد، يكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى بهما عن المعز والضأن، وقيل: يكنى به عن الإبل والمعز، فالوبر للإبل والشعر للمعز وقال الأصمعي: ما له سبدٌ ولا لبدٌ: أي: ما له قليل ولا كثير، وقيل: اللبد من الصوف. قال ابن منظور: معناه ما له قليلٌ ولا كثيرٌ، وكان مال العرب: الخيل والإبل والغنم والبقر، فدخلت كلها في هذا المثل.

(٥) عمود الأمر: قوامه الذي لا يستقيم إلا به. وقوله: وليقم عمودي الناس عليهما: أي: يلزم الناس باتباع ما جاء في نصّ الإقطاع، من حقّ تميم وآله في أن يكون لهم ما أعطاهم رسول الله ﷺ وفي الرواية التي نقلها ابن عساكر عن حميد بن زنجويه: «وليقم عمرو بن العاص عليهما».. وعمرو بن العاص، أحد الذين شاركوا في فتح فلسطين، ولعلها الرواية الأقرب إلى الصحة، وإن كان المعنى واحداً.

من المفسدين» ونقل ابن عساكر هذه الرواية أيضاً عن حميد بن زنجويه، المتوفى سنة ٢٤٧ هـ.

ب - وروى قصة الإقطاع أيضاً، القاسم بن سلام، أبو عُبَيد، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ في كتاب «الأموال» بصور متعددة: منها أن تميماً قال: يا رسول الله، إن الله مُظهرُك على الأرض كلها، فهبْ لي قريتي من بيت لحم فقال: هي لك، وكتب له بها، فلما استُخلف عمرُ فظهر على الشام، جاء تميم بالكتاب، فقال عمر: أنا شاهدَ ذلك، فأعطاه إياها. وروى أبو عبيد أيضاً: أن عمر أوصى ذلك لتميم وقال: ليس أن تبيعَ، قال أبو عبيد: وحدثنا عبد الله ابن صالح عن الليث بن سعد أن عمر رضي الله عنه، لما أمضى ذلك لتميم قال له: ليس لك أن تبيع. قال: فهي في أيدي أهل بيته إلى اليوم. وقد أسند أبو عبيد رواية إقطاع الرسول لتميم، عن ابن جريج عن عكرمة.

وروى أبو عبيد أيضاً [عن سماعة] أن تميماً سأل رسول الله ﷺ أن يقطعه قريات بالشام: بيت عينون، وفلانة[1] والموضع الذي فيه

(١) فلانة: بالفاء واللام والألف والنون.. هكذا في الأصل، وفي تاريخ دمشق لابن عساكر: «قلّاية» بالقاف واللام والألف والياء، وليس في فلسطين - في القرى الباقية والمندثرة - قرية بهذا اللفظ، وإنما يوجد «فلامة» وهي في قضاء طولكرم.. ولعل الراوي شك، فقال «فلانة» كناية عن مجهول. ولكن ابن منظور يقول: «فلان وفلانة» بغير تعريف كناية عن أسماء الآدميين.

والفلان والفلانة، بالتعريف، كناية غير الآدميين، ولكن يقصد بغير الآدميين الأحياء، فهل يكنى بها عن القرية أيضاً؟ ولكن المقريزي ذكرها بالقاف.

وقد جاء في «النهاية» في حديث عمر: لما صالح نصارى أهل الشام، كتبوا =

قبر إبراهيم وإسحٰق ويعقوب، قال: وكان بها رُكْحُه ووطنُه، فأعجب ذلك رسول الله فقال: إذا صليتُ فسلني ذلك، ففعل، فأقطعهنّ إياهنّ، فلما كان زمنُ عمر وفتح الله الشام، أمضى ذلك لهم. فقال أهل المدينة، ما الذي اشتراه الداريون، فقال: بجميع أركاحها، أي: نواحيها(١).

قال أبو عبيد: أهل المدينة إذا اشتروا الدار، قالوا: بجميع أركاحها، أي: نواحيها(٢).

= له: إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قليّة.. واسمها عند النصارى «القلاية» وهو تعريب «كلاذة» وهي من بيوت عباداتهم. أو هي مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى. وربما تكون هذه القلّاية في بيت لحم ـ إن صحت الرواية. قال المقريزي: وسند هذا الخبر مُعْضل.

(١) الركح ـ بالضم ـ من الجبل ـ الركن أو الناحية المشرفة على الهواء. وقيل: هو ما علا عن السفح وارتفع. والركح أيضاً: الفِناء، والجمع: أركاح، وركوح. وركحة الدار: ساحتها. وقوله: وكان بها ركحه: يعود الضمير على تميم الداري، ولعل المراد بذلك: أن بها مسكنه وفناءه ومسرحه، وزاد هذا المعنى وضوحاً قوله: ووطنه. وهو دليل على أن تميماً كان يسكن ديار الخليل.

(٢) قال المقريزي: وفي هذا الخبر مع إرساله انقطاع لأن ابن جُريج لم يسمع من عكرمة. وقد خالف في تسمية الأرض، وبيت لحم في القدس لا في بلد الخليل، ويمكن أن يقال: لعل بلد الخليل كان من جملة كورة بيت لحم، ويؤيده قوله «قريتي من بيت لحم». أي: كورة بيت لحم وانظر ما سنقوله عند التعريف بـ «بيت لحم».

ولكنه قال بعد روايتي أبي عبيد القاسم بن سلام: لكن يستفاد منه صحة أصل هذه القصة عند الليث بن سعد رحمه الله وشهادته بأن ذلك لم يزل في أيدي آل تميم، فإن ذلك يقتضي أن عصر الصحابة من لدن عمر، ثم عصر التابعين ثم عصر مَنْ بعدهم مضى على ذلك من غير إنكار. وانظر «عنوان: نقد الروايات».

جـ ـ وأخرج قصة الإقطاع، ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ في كتابه «الطبقات الكبرى» وليس فيما رواه زيادة عما سبق، إلا أنه روى عن طريقٍ، أن رسول الله كتب الإقطاع لنعيم بن أوس، أخي تميم الداري. جـ ١/٢٦٧.

د ـ وأخرج قصة الإقطاع الطبراني ـ سليمان بن أحمد ـ المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في معجمه، عن ابن سيرين عن تميم الداري قال: استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً بالشام قبل أن تُفتح، فأعطانيها، ففتحها عمر في زمانه، فأتيتُه فقلت: إن رسول الله ﷺ أعطاني أرضاً من كذا، إلى كذا، فجعل عمر ـ رضي الله عنه ـ ثلثها لابن السبيل، وثلثاً لعمارتها وثلثاً لنا[1].

هـ ـ وأخرج قصة الإقطاع، ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ في كتاب «تاريخ دمشق» وفي ترجمة تميم الداري، صور من روايات الإقطاع: أذكر منها الرواية التي تقول: إن رهط الداريين وفدوا على رسول الله في مكة، وكانوا ستة نفر. حيث أخرج ابن عساكر هذه الحكاية بسنده إلى أبي هند الداري[2]، وبها أنهم كانوا ستة،

---

(١) قال في «مجمع الزوائد» (٦/٨) ورجاله ثقات. ورواه القلقشندي في صبح الأعشى باب «في بيان معنى الإقطاعات وأصلها في الشرع». وأسنده إلى ابن عساكر في تاريخ دمشق.

(٢) روى ابن عساكر الخبر بسنده إلى زيّاد بن فائد عن أبيه فائد عن جدّه زيّاد بن أبي هند. وزيّاد هنا: بتشديد الزاي، كما نصّ عليه ابن حجر، والمشهور من صورة اسم «زياد» بدون تشديد الياء، ولكن التشديد «زيّاد» لا زال دارجاً في فلسطين، ومنه الشاعر المشهور «توفيق زيّاد» من فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ م. (انظر: ديوان الأرض المحتلة) ليوسف الخطيب.

فوفدوا على رسول الله في مكة قال: وسألناه أن يُعطينا أرضاً من أرض الشام فأعطانا وكتب لنا في جلد أَدَم، كتاباً فيه شهادة العباس، وجهم بن قيس وشُرَحْبيل بن حسَنة. قال أبو هند: فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، قدمنا عليه فسألناه أن يجدد لنا كتاباً، فكتب كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أنطى[1] محمدٌ رسول الله تميماً الداريّ وأصحابه.. (وذكر نصّ الإعطاء). وفي رواية: فسألناه أن يقطعنا من أرض الشام فقال: سلوا حيث شئتم، فقال تميم، أرى أن أسأله بيت المقدس وكُورَها، فقال أبو هند: هذا محل مُلْك العجم، وكذلك يكون فيها مُلْك العرب، وأخاف أن لا يتمَّ لنا هذا. فقال تميم: فنسأله بيت جبرين وكورتها، فقال أبو هند: أرى أن نسأله القرى التي يقع فيها تلّ، مع آثار إبراهيم (وفي رواية: القرى التي يصنع فيها الجصّ في التلّ مع آثار إبراهيم) فقال تميم: أصبت ووفقت قال: فقال رسول الله ﷺ لتميم: أتحبُّ أن تخبرني بما كنتم فيه أو أخبرك؟ فقال تميم: بل تخبرنا يا رسول الله، نزداد إيماناً فقال رسول الله ﷺ: أردتم أمراً، فأراد هذا غيره، ونِعْم الرأيُ رأى. فأتى رسولُ الله بقطعة من جلد من أدم، فكتب لنا كتاباً نسخته:

---

(١) أنطى: أعطى. والإنطاء: الإعطاء، بلغة أهل اليمن، وقد قرىء: «إنا أنطيناك الكوثر» وهي قراءَة شاذة، ولها شواهد في الحديث الشريف. (انظر لسان العرب) ولا زالت هذه اللهجة دارجة في بعض مناطق فلسطين، بحيث يجعلون العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ذِكْر ما وهب محمد رسول الله للداريين، إذا أعطاه الله الأرض، وَهَبَ لهم ما بين عَيْن حبرون وبيت إبراهيم بمن فيهنّ لهم أبداً.

شهد عباس بن عبد المطلب وجَهْم بن قيس وشُرَحْبيل بن حسنَة وكتب. قال: ثم دخل بالكتاب إلى منزله، فعالج في زاوية من الرقعة وغشّاه بشيء لا يُعرف، وعقد من خارج الرقعة بشيء عقدين وخرج به إلينا مطوياً وهو يقول: ﴿إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين﴾[1].

ثم قال: انصرفوا حتى تسمعوا بي أني قد هاجرت. قال أبو هند: فانصرفنا.

فلما هاجر رسول الله إلى المدينة قدمنا عليه، فسألناه أن يجدّد لنا كتاباً فكتب لنا كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أنطى محمدٌ رسول الله لتميم الداري وأصحابه، إني أنطيتكم عين حبرون، والرطوم، وبيت إبراهيم، وما بينهم وجميع ما فيهم عطية بَتّ، ونفذتُ وسلمتُ ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم، أبدَ الأبدِ، فمن آذاهم فيها، آذاه الله. شهد أبو بكر بن أبي

(١) هذه الآية دليل على أنّ الوفد كان بالمدينة، لأن سورة آل عمران التي منها الآية مدنية. قال ابن كثير: صدر آل عمران إلى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران وكان قدومهم سنة تسع من الهجرة، وقد بينا سابقاً ضعف رواية قدوم الوفد إلى مكة، أو أن إسلامهم تمَّ في مكة.

قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وكتبه.

فلما قُبض رسول الله، وولي أبو بكر، وجه الجنود إلى الشام، كتب لنا كتاباً نسخته:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليمنع من الفسادِ في قرى الداريين وإن كان أهلها قد جَلَوا عنها، وأراد الداريون أن يزرعوها، فعلوا فإذا رجع أهلها إليها فهي لهم وأحقّ منهم[1]. والسلام عليك.

و ـ وأثبت روايات الإقطاع، النويري (أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة ٧٣٣ هـ. في كتابه «نهاية الأرب» في المجلد الثامن، وليس فيما كتبه جديدٌ.

ز ـ وهذا ما شاهده، ووصفه العُمري (أحمد بن يحيى) المتوفى سنة ٧٤٨ هـ في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». قال: ـ وقد رأى كتاب الإقطاع ووصفه ـ: وكان قدومُنا هذه المرة على الخليل يومَ الاثنين لأربعَ عَشْرَةَ ليلةً خلتْ من ذي الحجة سنة خمس وأربعين وسبعمائة (٧٤٥ هـ) فبتنا ليلتنا نتبرك بما

(١) انظر «من تاريخ الإقطاع وأحكامه» في أول هذا الفصل.

حوت تلك القبور من العظام العظام[1]، ونعفّر الوجوه، في تلك البقعة المشرفة[2] في مواضع أقدام أولئك الأقوام، ثم أصبحنا وقد حمدنا السُّرى عند الصَّباح وطلبنا حوائجنا عند تلك الوجوه الصِّباح، فلما قضينا من الزيارة الأرب، وهزتنا من النَّوبة الخليلية الطرب، بعثت وراء الصاحب (ناصر الدين أبي عبد الله محمدِ بن الخليلي التميمي الداري) وهو بقيّة هذا البيت الجليل، والمنتهي إليه النظر على وقف الحبيب سيدنا محمد ﷺ، وبلد أبيه إبراهيم الخليل، والتمسْنا منه إحضار الكتاب الشريف النبوي المُكتتب لهم بهذه «النطيّة» [العطية] والمُشَرِّف لهم به على سائر البريّة، فأنعم بإجابة المُلتمس، وجاء به في أَقْرَب من رجع النَّفَس، وهو في خِرقة سوداءَ من مُلْحَم[3] قطنٍ وحرير من كُمِّ الحسن أبي محمد المستضيءِ بالله أمير المؤمنين[4] وبطانتها من كتّان أبيض على تقدير كلِّ إصبع منه ميلان أسودان مشقوقان بميل أبيض، جُعِلَ ضِمْن أكياسٍ يَضمُّها صندوقٌ من أنبوس يُلفّ في خرقة من حرير. والكتاب الشريف في خرقة من خُفٍّ من أَدَم أظنُّها من ظهرِ القدم، وقد مَوَّه سوادُ الجلدِ على الخطّ لا أنه أَذهبه وما أخفى من يد كاتبه المشرّفة ما كتبه، وهو بالخط

---

(١) العِظَام: بكسر العين: الأولى، جمع العَظْم، وهو قصب الحيوان الذي عليه اللحم. والعظام: الثانية بكسر العين أيضاً، جمع عظيم. وأراد الكاتب الجناس.

(٢) ننقل ما كتبه العمري للتأريخ، مع إيماننا بأن التبرك بالقبور، أمر لا يقره الشرع، وينافي التوحيد.

(٣) المُلْحَم: بضم الميم: جنسٌ من الثياب، وهو ما كان سداه من حرير أبيض ولحمته من غير ذلك.

(٤) المستضيء بأمر الله: خليفة عباسي (٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ) الخليفة الثالث والثلاثون تولى الخلافة من (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ) في زمنه زالت الخلافة الفاطمية وخُطب له =

الكوفي المليح القويّ، فقبّلنا تلك الآثار، وتمتعنا منه بمدد الأنوار ومعه ورقةٌ كتبها المستضيء بنصّه، شاهدةٌ لهم بمضمونه، ومزيلة لشكّ الشاكّ المريب وظنونه، ومضمون ما كُتب كهيئته وسطوره:

«نسخة كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه لتميم الداري وإخوته سنة تسع للهجرة بعد منصرفه من غَزْوة تبوك في قطعة من خفّ أمير المؤمنين عليّ وبخطه»:

«نسخة كهيئته»

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هـذا ما أنطى[1] محمدٌ رسولُ اللهِ لتميـم
الـداري وإخوته حَبْرونَ والمرطـومَ
وبيـت عَيْنون وبيت إبراهيم وما فيهـنّ
نطيّـةَ بتٍّ بذمتهم، ونفّذتُ وسلمتُ ذلك لهـم
ولأعقابهـم، فمَنْ آذاهم، آذاه الله، فمن آذاهـم
لعنـه الله. شهد عتيقُ بن أبو قحافة وعمر بـن
الخطـاب، وعثمان بن عفان وكتب عليٌّ بـنُ
بـو طالب وشهد:

قال العمري: «وأبـو قحافـة»[2] ألف وباء وواو ثم قحـافة.

= على منابر مصر.

(١) تكرر لفظ «أنطى» في روايات متعددة، وقالوا: هي لغة أهل اليمن في أعطى ومن المعروف أن رسول الله كان يخاطب بعض القبائل بلهجتها، وقبيلة لخم تعود إلى اليمن في أصولها القديمة.

(٢) يريد التنبيه على أن «أبو» لم تجرّ بالياء حيث جاءَت بعد «بن» وحقها أن يقال =

و «بو طالب»[1] باء وواوٌ ثم «طالب» وليس في «بو» ألف. بيّن ذلك ليعرف و«كتب» في ذكر «علي» مقدمة، و«شهد»[2] مؤخرة، بُيِّن ذلك أيضاً ليعرف.

قال العمري: وقد رأيتُ ذلك كلَّه بعيني ومن خط المستضيء نقلت، وهو خطه المعروف المألوف، وقد رأيتُه وأعرفه معرفةً لا أشك فيها ولا أرتابُ، وقرأته من الكتاب النبوي نفسه، وهو موافق لما كتبه المستضيءُ نَقْلاً عنه، على أن آثاره كادت تُعَفِّي وتحتجب عن الناس لفساد الزمان وتختفي.

وكان التبرك برؤية ذلك على ظَهْرِ القبو الصغير الشمالي في الحرم الخليلي الملاصق لقبر زوج يعقوب المُفْضَى منه إلى المئذنة بحضرة مخزن العدس[3].

ح - وروى قصة الإقطاع، القلقشندي (أحمد بن علي) المُتوفَّى

= «أبي» وربما لشهرة «أبو قحافة» بقيت بالواو، ولها شواهد في لسان العرب، انظر «لسان العرب» أبو.

(١) بو فلان. . لغة في «أبو فلان» لا زالت دارجة في جهات من المغرب العربي، وجهات من لبنان.

(٢) ملاحظة دقيقة من الواصف، لأن الشهادة في حقّ أبي بكر وعمر سبقت، وعندما جاء ذكر «علي» سبقت «كتب» «شهد» وأكثر الروايات تجعل الشهادة سابقة الكتابة.

(٣) انظر وصف الحرم الإبراهيمي في كتابنا «معجم بلدان فلسطين». وقوله: مخزن العدس: يريد العدس الذي يطبخ ويؤكل، حيث كان هناك مخزن للعدس، يطبخ منه في كل يوم ويقدم لكل مَنْ قدم إلى الحرم الإبراهيمي، إحياءً لسنة إبراهيم الخليل عليه السلام في إطعام الضيف. وسيأتي وصف ذلك بعد قليل.

سنة ٨٢١ هـ في كتابه «صبح الأعشى» من المجلد ١٣/١١٨ ـ ١٢٢، ونقل الروايات السابقة، مضافة إليها رواية عن ابن منده، بسنده إلى عمرو بن حزم[١] قال: أقطع النبي ﷺ تميماً الداري وكتب «هذا الكتاب من محمدٍ رسول الله لتميم بن أوس الداري أن له صِهْيون قريتها كلَّها، وسَهْلها وجبلها وماءَها وكرومها وأنباطها وورقها، ولعقبه من بعده، لا يحاقه فيها أحد، ولا يدخل عليه بظلم فمن أراد ظلمهم أو أخذه منهم، فإنَّ عليه لعنةَ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين».

قال القلقشندي: وهذه الرقعة التي كتب بها النبي ﷺ موجودة بأيدي التميميين خُدّام حرم الخليل عليه السلام إلى الآن ـ زمن المؤلف ـ وكلما نازعهم عليهم أحد أَتَوْا بها إلى السلطان بالديار المصرية[٢] ليقف عليها ويكفَّ عنهم مَنْ يظلمهم، وقد أخبرني برؤيتها غير واحد، والأديم التي هي فيه قد خَلُقَ لطول الأمد.

وقال القلقشندي: وشاهدتُ أنا (عند ورثةِ الصاحب[٣] الوزير فخر الدين أبي حفص عمر بن القاضي المرحوم الرئيس مجد الدين عبد العزيز المعروف بابن الخليلي التميمي رحمه الله) كتاباً يتوارثونه كابراً عن كابر يقولون: هو كتابُ رسول الله الذي كتبه لتميم الداري

(١) عمرو بن حزم: صحابي، توفي سنة ٥٣ هـ.
(٢) قوله: بالديار المصرية: لأن المؤلف عاش زمن المماليك، وكانت فلسطين تابعة للسلطنة المملوكية في مصر.
(٣) أحد الوزراء في عهد المماليك، وله ترجمة واسعة في «الدرر الكامنة» لابن حجر جـ٣، وينتهي نسبه إلى تميم الداري من ناحية ابنته رقية. توفي سنة ٧١١ هـ.

وأخوته وهو في قطعة من أدَم مُرَبّعة دون الشّبر قد غُلّفتْ بالأطلس (الحرير) الأبيض يزعمون أن ذلك من خُفٍّ كان لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وقد بقي بهذه القطعة الأدم آثارُ أحرف خافية لا تكادُ تبين إلا بعد إمعان التأمل وتحقيق النظر، وعلى هذه القطعة الأدم من الجلالة، ولها من الموقع في النفوس والمهابة ما يقوّي أنها صادرة عن المحلّ المنيف، وقرينُ هذه القطعة الأدَم قرطاسٌ أبيض قديم يزعمون أنَّ أسلافهم نقلوا ما فيه من الكتابة من كتاب رسول الله قبل أن تزول حروفُه، وفيه تسعة أسطر بما في ذلك من البسملة، وقد رأينا أن نضع ذلك في هذا الكتاب على هيئته في العدد وإن لم يوافق الخط[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أنطى محمدٌ رسولُ اللهِ لتميم
الداريِّ وإخوته حبرونَ والمرطومَ
وبيت عينونَ وبيتَ إبراهيم وما فيهنّ
نطيةَ بتٍّ بذمتهم ونفّذتُ وسلمتُ ذلك
لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه
الله، فمن آذاهم لعنه الله. شهد عتيق
ابن أبو[٢] قُحافة، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان

(١) وهو يوافق ما وصفه وأثبته العمري، ولكنه قال هناك، إن الورقة المرافقة بخط الخليفة العباسي المستضيء.

(٢) أبو قحافة: يوافق ما جاء عند العمري، بالواو.

قال المقريزي: وإلى الدعاء الذي في هذا الأثر يشير ما أخرجه أبو عُبيد =

وكتب علي بن أبو[1] طالب وشهد».

قال القلقشندي: هكذا شاهدت تلك الورقة التي هي قرينُ الكتاب.

والكتاب بأيديهم إلى وقتنا هذا ـ زمن المؤلف في القرن التاسع ـ وهو العَشْر الآخر من ذي القعدة سنة ست عشرة وثمان مائة وهذه الضياع الأربعة المذكورة بأيديهم إلى وقتنا هذا، لا يُنازعون فيها. وكان الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي رحمه الله إذا نابته نائبة أو صودر أو أوذي بوجه من وجوه الأذى توسل إلى الله تعالى بكتاب نبيه ﷺ، وأظهره للملوك فكفوا عن طلبه وأفرجوا عنه.

ط ـ وذكر قصة الإقطاع أيضاً ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ في مواطن متعددة من «فتح الباري» و«الإصابة» ولكنه لم

= البكري في كتاب «معجم ما استعجم» جـ٢/٤٢٠ =: أن سليمان بن عبد الملك أحد خلائف بني أُمية، كان إذا مرّ بقريتي تميم يخرج عنهما ويقول: أخاف أن تصيبني دعوة رسول الله ﷺ. قال: وجاء الدعاء المذكور من طريق أُخرى حسنة المخرج. وذكر رواية عن ابن سعد في الطبقات..

أقول: وفي هذا الأثر دليل على اعتقاد سليمان بن عبد الملك بوقوع هذا الإقطاع، وفيه دليل على ورع سليمان بن عبد الملك.. وكان من مناقبه رحمه الله أنه نقل الخلافة إلى الخليفة الزاهد، عمر بن عبد العزيز. والمعروف أن سليمان بن عبد الملك كان يسكن فلسطين قبل الخلافة، وهو الذي أنشأ مدينة الرملة، وجعلها عاصمة جند فلسطين.. فرحم الله سليمان وسقى الله أيام الرملة من مدرار رحمته ونصره، لعلنا نمتع النظر برؤيتها في أيدي المسلمين، لئلا نعدَّ من الأبناء العاقين الذين ورثوا فضيعوا.

(١) عند العمري «بو طالب» بدون همزة. ورواية العمري أصح، لأنه وصفها وقال بدون ألف، فانظره.

يذكر روايات نصوص الإقطاع، واكتفى بالإشارة إليها والإقرار بوجودها، فقال في شرح أحاديث «باب القطائع» من كتاب المساقاة: «وقد وقع منه ﷺ ذلك في عدة أراضٍ بعد فتحها وقبل فتحها، منها إقطاعه تميماً الداري بيت إبراهيم فلما فُتحت في عهد عمر نجز ذلك لتميم، واستمر في أيدي ذريته من ابنته رقية، وبيدهم كتاب من النبي ﷺ بذلك، وقصته مشهورة»[1].

ي - ونقل المقريزي (أحمد بن علي) المتوفى سنة ٨٤٥ هـ، خبر الإقطاع في كتابه «ضوء الساري» فأثبت الروايات كلها، وأول رواياته عن ابن سعد قال «فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتاباً» قال: وقوله: فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك، وكتب له به كتاباً: يُحمل الإعطاء من أبي بكر على الإمضاء، فإن عمر هو الذي أعطى تميماً ذلك، ولأن فلسطين وما حولها لم تُفتحْ إلا في خلافة عمر.

ك - وهذا ما كتبه مجير الدين الحنبلي، المُتوفى سنة ٩٢٨ هـ في كتاب «الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» جـ ٨١/٢. قال: «إقطاع تميم الداري الذي أقطعه له النبي ﷺ»: وهي الأرض التي بها بلد سيدنا الخليل عليه السلام وما حولها من الأرض، وكتب له في ذلك في قطعة أديم من خُفّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بخطه.

---

(١) وانظر ترجمة «تميم، ونُعيم» ابني أوس، وترجمة «أبي هند» و«الطيب» في «الإصابة».

قال: وقد روى المؤرخون لفظ الإقطاع على وجوه مختلفة، وقد رأيتُ عند التكلم على الإقطاع المشار إليه القطعة الأديم التي يُقال إنها من خف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد صارت رثة وفيها أثر الكتابة ورأيتُ معها ورقة مكتوبة في الصندوق الذي فيه القطعة الأديم منسوب خط هذه الورقة إلى أمير المؤمنين المستنجد[1] بالله العباسي تغمده الله برحمته، كتب فيها نسخة الإقطاع، وصورة ما كتبه المستنجد بالله؛ بخطه: وقد نقل ما كتبه العمري، والقلقشندي. . إلا أنه في ذيل النص شهد عتيق ابن أبي قُحافة ـ وكتب عليّ بن أبي طالب وشهد» بالجر بالياء في الاسمين، وليس كما ذكرهما العمري والقلقشندي (أبو قحافة ـ وأبو طالب ـ أو بو طالب).

أقول: ولكن العمري وصف هيئة الرسم ليعرف. . ولعل ما كتبه مجير الدين وصل إلينا محرفاً من النساخ، أو من منقحي الطباعة، لظنهم أن في الكتابة خطأً نحوياً، فأصلحوه.

قال مجير الدين: «وقد نسخت ذلك من خط المستنجد بالله كهيئته ولعل هذا أصح ما قيل فيه والله أعلم».

ثم قال: واستمر هذا الإقطاع بيد ذرية تميم الداريّ يأكلونه إلى يومنا (بداية القرن العاشر الهجري) وهم مقيمونَ ببلد سيدنا الخليل

(١) المستنجد بالله: هو يوسف بن المقتفي ـ خليفة عباسي من بغداد، ويعد من خيرة الخلفاء العباسيين بويع سنة ٥٥٥ هـ. واستمر حتى سنة ٥٦٦ هـ. . وهو والد الخليفة المستضيء بالله بن المستنجد بالله، وقد مرّ معنا أن كاتب صورة الإقطاع هو المستضيء بالله كما ذكره العُمري في «مسالك الأبصار» وعلى كل حال، فهذا أبو هذا، وذاك ابن هذا والزمن بينهما قريب.

عليه السلام، وهم طائفة كثيرة يقال لهم «الداريّة» وهذا ببركات النبي ﷺ.

قال مجير الدين: وقد تعرّض بعض الولاة لآل تميم وأراد انتزاع الأرض منهم، ورُفع أمرهم إلى القاضي أبي حاتم الهروي الحنفي قاضي القدس الشريف، فاحتج الداريون بالكتاب، فقال القاضي: هذا الكتاب ليس بلازم، لأن النبي ﷺ أقطع تميماً ما لم يملك، فاستفتى الوالي الفقهاءَ، وكان الإمام أبو حامد الغزالي[1] حينئذٍ ببيت المقدس قبل استيلاء الفرنج عليه[2] فقال: هذا القاضي كافر، فإن النبي ﷺ قال: «زُويت لي الأرضُ كلها»[3] وكان يقطع في الجنة فيقول: قَصْر كذا لفلان، فوعْده صدق وعطاؤه حقّ. فخزي القاضي والوالي وبقي آل تميم على ما بأيديهم.

ل ـ قال ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ في كتاب[4] «الاشتقاق»: فمن بني الدار: تميم بن أوس ونُعيم بن أوس، وفدا إلى النبي ﷺ، وأقطعهما النبي ﷺ قطيعتين بالشام: حِبْرى ـ وبيت عينون. وليس للنبي ﷺ قطيعةٌ غيرهما بالشام. وجاء في حاشية الكتاب بتحقيق عبد السلام محمد هارون «ح ـ بخط محمد بن عمر حفيد ابن الشِّحْنَة.

---

(١) توفي الإمام الغزالي سنة ٥٠٥ هـ.

(٢) استولى الفرنجة الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ.

(٣) رواه ابن ماجه، ورواه مسلم بلفظ (إن الله زوى لي الأرض) ومعنى زوى: جمع.

(٤) كان من حقّ هذا الكلام أن يكون في أول ما ذكرت من شواهد الإقطاع، ولكنني أخرته لأن الشاهد هنا في الحاشية التي وجدتها في تحقيق الكتاب.

قلت: وإلى الآن ذرية تميم الداري ببيت المقدس موجودون وبيدهم القطيعتـان المذكورتان، وكان عندهم المنشورُ الذي يتضمن إعطاء القطيعتين لتميم ويُسمّي كتاب «الإنطاء» لأنه: هذا ما أنطى محمد بن عبد الله إلى آخـره. وهو بخط الإمام علي بن أبي طالب، مكتوب في رَقّ غزالٍ بقاعدة كوفية، وكان نبغ فيهم واحد يسمى تقيّ الدين، وكان ذا علمٍ وأدب وفضلٍ ورياسة، فقدم دار السلطنة العليّـة في الدولـة المُراديـة وأهدى الكتـاب المذكـور للخزانـة السلطانية، وأُعطي في مقابل ذلك منصب قضاء في قلم مصر القاهرة، واجتاز بحلب واجتمع بالمرحوم الوالد فقال له الوالد: لعمري لقد أخطأتَ حيثُ بعتَ كتاب رسول الله ببقعة من بقع جهنم، والله أعلم، لمحرره محمد بن عمر».

وإذا صحت رواية محمد بن عمر هذه، فإن كتاب الإنطاء بقي في أيدي الداريين حتى نهاية القرن العاشر الهجري، وأن المقرَّ الأخير لهذا الكتاب في خزانة الدولة التركية، لأن تقيّ الدين الداري الذي أهدى الكتاب إلى الخزانة السلطانية يكون قد عاش بعد أن فتح الأتراك مصر حوالي سنة ٩٢٢ هـ، لأنه باع الكتاب بوظيفة قاضٍ في مصر. ودار السلطنة العلية: هي دار السلطنة التركية، لأن الرواية تقول: «واجتاز تقيّ الدين بحلب» حيث تسكن أسرة ابن الشِّحْنة، وحلب هي الطريق إلى عاصمة الدولة العثمانية، وأقرب سلطان عثماني يسمى «مراد» بعد فتح مصر، هو مراد الثالث الذي تولى السلطنة سنة ٩٨٢ هـ. والله أعلم.

٣ ـ نقد روايات الإقطاع والحكم عليها:

قصة الإقطاع النبوي لتميم الداري، نقلها ورواها عدد كبير من أهل التاريخ والسيرة، والفقه، والحديث، حتى أصبحت في حكم الثابت وقوعها وتداولتها كتب الدراسات الشرعية معتمدين عليها في استنباط الحكم الشرعي في أحد جوانب الإقطاع.

أ ـ نقل كتاب الإقطاع ـ أبو يوسف القاضي، صاحب أبي حنيفة في كتابه الخراج ـ وأبو يوسف فقيه عالم، كان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الفقه والرأي، تولى القضاء لهارون الرشيد.

ب ـ ونقله أبو عبيد القاسم بن سلام، قال فيه ابن حبّان: كان أحد أئمة الدنيا صاحب حديث وفقه ودين وورع ومعرفة بالأدب وأيام الناس جمع وصنّف واختار وذبّ عن الحديث، ونصره، وقمع مَنْ خالفه ونقل ابن حجر في تهذيب التهذيب: أن أبا عبيد كان فاضلاً في دينه وفي علمه مُقدّماً في أصناف من علوم الإسلام حَسَن الرواية صحيح النقل، لا أعلم أحداً من الناس طعن فيه(١).

جـ ـ وقد جاءت القصة عند ابن سعد في الطبقات، وقال عنه ابن حجر: هو أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين، ووصفوه بالفضل والفهم والنبل، ولم يتهمه أحد بالكذب أو الوضع وهذا يكفي. ويأتي الطعن عادة إلى إسناده لوجود شيخه الواقدي، فإذا روي الخبر من طرق أخرى فقد تعضد.

د ـ وروى حديث الإقطاع الطبراني بسند رجاله ثقات، كما جاء في مجمع الزوائد.

---

(١) وانظر تعليق المقريزي على روايتي أبي عبيد فقرة (ب) من روايات نصّ الإقطاع.

هـ ـ واستشهد بقصة الإقطاع، الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» لإثبات جواز إقطاع الأرض أو ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال إذا كانت في دار الحرب التي لا يثبت للمسلمين عليها يد ليملكها المقطع عند الظفر بها، توفي سنة ٤٥٠ هـ، وكان أقضى قضاة عصره نقل عنه الخطيب ووثقه، وإن وافق المعتزلة في بعض آرائهم.

و ـ ونقل المقريزي في «ضوء الساري» وأخرج قصة الإقطاع الحافظ أبو علي بن السكن، وأبو حفص بن شاهين في كتابيهما في «الصحابة» في ترجمة تميم الداري، من طريق إسماعيل بن عبد الله.. ورجاله موثقون وإسماعيل بن أبي أُويس من شيوخ صاحبي «الصحيح» وإسماعيل بن عبد الله ثقة مشهور وأبوه وثقه أحمد بن صالح المصري، ذكره ابن حبان في الثقات، وهو تابعي صغير، وكأنه وقف على الكتاب المذكور، فحكاه وهو يقوي ما تقدم ويعضده. وأورده الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتاب «الأحاديث المختارة» مما لم يُخرج في الصحيحين.

ز ـ وقال ابن حجر في «فتح الباري». كتاب المساقاة ـ باب القطائع:

«وقد وقع منه ﷺ ذلك في عدة أراض بعد فتحها وقبل فتحها، منها إقطاعه تميماً الداري بيت إبراهيم، فلما فتحت في عهد عمر نجز ذلك لتميم، واستمر في أيدي ذريته من ابنته رُقَيَّة وبيدهم كتاب من النبي ﷺ بذلك، وقصته مشهورة ذكرها ابن سعد، وأبو عبيد في كتاب «الأموال» وغيرهما».

وكان ابن حجر يستشهد بقصة الإقطاع على شرح الحديث الذي رواه البخاري في إقطاع النبي ﷺ الأنصار من البحرين.

وقال أيضاً في ترجمة «أبو هند الداري» ـ والكتاب ـ يريد كتاب الإقطاع ـ المذكور مشهورٌ بيد ذرية تميم، وقد كتبتُ في شأنه جزءاً سميته «البناء الجليل بحكم بلد الخليل».

وكفى بابن حجر شاهداً على صحة دليل، فهو الحبر العلّامة الذي قيضه الله لخدمة الحديث الشريف، حيث وصف بأنه أمير المؤمنين في الحديث.

ح ـ وقال مُهذّب تاريخ دمشق لابن عساكر، الشيخ عبد القادر بدران بعد أن ذكر روايات الإقطاع: هذا ما رواه ابن عساكر بأسانيده من طُرق متعددة وفيها اختلاف كثير غير أن جُملة الأخبار يثبت القضية. (ترجمة تميم جـ ٣).

ط ـ والدليل على ثبوت الإقطاع، ما ذكره القاضي مجير الدين الحنبلي عند الكلام على إقطاع تميم الداري، بأن بعض الولاة أراد التعدي على حقّ الداريين في هذه الأرض، وقول القاضي الذي رُفع إليه الأمر «إن هذا الكتاب ليس بلازم، لأن النبي ﷺ أقطع تميماً ما لم يملك».

فالقاضي لم ينكر كتاب الإقطاع، ولم يُنْكر ما في يد الداريين من صورة الكتاب النبوي، وإنما أراد أن ينكر حقّ الداريين في هذه الأرض، وهذا دليل على الاعتراف بأن أمر الإقطاع حاصل.

ي ـ ومن الأدلة على ثبوته، بقاء هذا الإقطاع بيد ذرية الداريين على مرّ القرون المتوالية حتى العصر التركي وقرأنا أن أحد بني تميم قد أهدى صورة الكتاب النبويّ إلى الخزانة السلطانية في الدولة المُرادية، وكان الداريون يتوارثون هذا الحق على مرّ العصور. والله أعلم.

(آخر مكتوب نبويّ حفظ التاريخُ عينَهُ لنا من كُتبه عليه السلام)[1] (لأهل الإسلام وتحافظهم عليه)

آخر مكتوب حفظ التاريخُ جلده المكتوب فيه بعينه، له عليه السلام، الكتابُ الذي أقطعَ بهِ تميمَ الداريَّ أرضاً بالشام. وهو مكتوب مشهورٌ معروف في العصور السابقة تكلم عليهِ أهل الحديث والتاريخ والفقه وغيرهم، ففي ترجمة تميمٍ من تاريخ ابن عساكر بسنده إلى أبي هندٍ الداريّ قال: قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن ستةُ نفرٍ، وفي «سيرة ابن هشام» عدهم ثمانية: تميم بن أوس، ونُعَيم بن أوس أخوه، ويزيد بن قيس، وأبو هند بن عبد الله، وهو صاحب الحديث، وأخوه الطيّب بن عبد الله، كان اسمهُ بُرّاً فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن وفاكه بن النعمان. وسألْنا رسول الله ﷺ أَن يُقطعنا أرضاً من أرض الشام فقال رسول الله ﷺ: حيث شئتم، فقال تميم: أرى أن نسأله بيت المقدس وكورها، فقال أبو هند: هذا محلُّ مُلْك العجم، وكذلك يكون فيه مُلْك العرب،

---

(١) هذا عنوان فصلٍ كتبه الكتاني في كتابه «التراتيب الإدارية» رأيتُ أن أثبته برمته، لما فيه من الفوائد الجليلة في تحقيق الكتاب النبوي لآل تميم الداري.
وقد أضفت في حاشيته بعض الشروحات والتوضيحات والتحقيقات الضرورية.

وأخاف أن لا يتمَّ لنا هذا فقال تميم: بيت جرين[1] وكورها فقال أبو هند: هذا أكبر وأكبر، فقال: فأيُّ شيء نسأله؟ فقال: أرى أن نسأله القُرىٰ التي يقع بها تلّ مع آثار إبراهيم، فقال تميم: أَصبتَ ووّفقتَ، قال: فقال رسول الله ﷺ لتميم: أَتحبُّ أن تخبرني بما كنتم فيه أو أُخبرَك؟ فقال تميم: بل أخبرنا يا رسول الله نزدادُ إيماناً فقال رسول الله ﷺ: أَردتم أمراً فأراد هذا غيره، ونعْم الرأيُ رأى. قال: فدعا رسول الله ﷺ بقطعة جلد من أَدَم فكتب لنا كتاباً نسختُه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا كتابٌ ذُكر فيه ما وَهَبَ رسولُ الله للداريّين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عَيْنون وجيرون[2] وبيت إبراهيم، بمْن فيهنَّ أبداً. شهد عباسُ بنُ عبد المطلب، وجهمُ بن قيس، وشُرَحْبيل بن حَسَنَة وكتب. قال ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالج في زاوية الرقعة وغشهُ[3] بشيء لا يُعرفُ وعقده من خارج الرقعة بسَيْر عُقدتين، وخرج به إلينا مطوياً وهو يقول: (إنّ أولى الناس بإِبراهيم لَلَّذين اتبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين) ثم قال: انصرفوا حتى تسمعوا بأني قد هاجرتُ[4]. قال أبو هند: انصرفنا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة قدمْنا عليه فسألناه أن يجدّد لنا كتاباً فكتب لنا كتاباً نسختُه:

---

(١) هكذا في الأصل، وصحيحها «بيت جبرين».

(٢) الصحيح «حبرون» بالحاء المهملة، ثم باء موحدة.

(٣) يريد «غشّاه».

(٤) هذه الرواية تخبر أنهم وفدوا على رسول الله بمكة، وهو قول ضعيف، وقد بينا ضعفه فيما سبقه، ومن أدلة ضعفها أن الآية (إن أولى . .) آية مدينة.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أعطى محمدٌ رسول الله لتميم الداريّ وأصحـابه، إني أعطيتُكم عَيْنون وحَبْرون، والرطومة[1] وبيت إبراهيم برُمتـهِ، وجميع مـا فيه، عـطيةَ بتٍّ وسلّمتُ ذلـك لهم، ولأعقـابهم مِنْ بَعْـدهم أَبَـد الأبد، فمن آذاهم فيها آذاه الله. شهد أبو بكر بنُ أبي قحافـة، وعمر ابن الخطّاب، وعثمانُ بن عفـان، وعلي بن أَبي طالب، ومعـاوية بن أبي سفيان، وكتب.

فلما قُبض رسول الله ﷺ وولي أبو بكر وجّه الجنودَ إلى الشـام فكتب لنا كتاباً نسخَتُه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من أبي بكـر الصـديق إلى أبي عُبَيْـدة بن الجـراح، ســلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إلٓه إلا هو، أَما بعـد: امنعْ مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفسـاد في قرىٰ الـداريين، وإِن كان أهلها قد رَحَلُوا عنها، وأَراد الداريون أَن يزرعـوها فليـزرعوهـا، فإِذا رجعِ أهلُها إليها فهي لهم، وأحقُّ بهم والسلام عليك. وروى بسنده أيضاً إلى الزهري وثور بن يزيد، عن راشـد بن سعد[2]، قـال: قدم تميمٌ الـداريُّ (وهـو تميمُ بن أوسٍ رجـلٌ من لخمٍ) فقـال: يـا

(١) قوله «الرطومة». الصحيح «المرطوم».

(٢) راشد بن سعد، القـرائي، تابعي، كـان من أهل حمص، ويعـدّ ثقة، من أثبت أهل الشام، تـوفي سنة ١٠٨ هـ. والحـديث مرسـل، لأنه لم يـذكر الصحـابي الذي سمع منه.

رسول الله إنْ لي جِيرةً من الروم بفلسطين، لهم قرية يقال لها حبرىٰ وأُخرى يقال لها بيت عَينون إن فتح الله عليك الشام فهبهما لي قال: هما لك، قال: فاكتب لي بذلك، فكتب له:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لتميم بن أوس الداري، إنَّ له قريةَ حَبْرىٰ وبيت عَيْنون، قريتها كلّها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ولعقبِهِ، لا يُحاقُّه فيها أحد ولا يلجُه أحدٌ عليهم بظلمٍ، فمن ظلمه أو أخذ من أحدهم شيئاً فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين. وكتب عليٌّ.

فلما ولي أبو بكر، كتب لهم كتاباً نسختُه: هذا كتاب من أبي بكر أمين رسول الله ﷺ الذي استُخلف في الأرض بعده، كتبه للداريين أن لا تُفسدَ عليهم مأثرتُهم، قريةُ حبرىٰ وبيتُ عينون فمن كان يسمع ويطيعُ فلا يُفسدُ منها شيئاً وليقم عمرو بن العاص فليمنعهما من المُفسدين - (انظر ص ٣٥١ من اختصار تاريخ ابن عساكر) - وروى ابن مندة بسنده إلى عَمْرو بن حزم[1] رضي الله عنه قال: أَقطع النبيُّ ﷺ لتميمٍ الداريّ وكتب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا كتابٌ من محمدٍ رسول الله لتميم بن أوس الداري إن له

(١) عمرو بن حزم، صحابي من الأنصار، استعمله النبي ﷺ على (نجران) وتوفي سنة ٥٣ هـ (انظر: الإصابة، ترجمة رقم ٥٨١٢).

صِهْيَوْن[1] قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وكرومها وأنباطها ولعقبِه من بعده لا يُحاقّهُ فيها أحد ولا يدخل عليهم بظلم فمن أَراد ظلمهم أو أَخْذَه عنهم فإنَّ عليهِ لعنةَ الله والملائكةِ والناس أجمعين، هـ. وفي «**عيون التواريخ**»[2] في حوادث سنة أربعين بعد الهجرة حين ترجم لتميم وذكر قصة الإقطاع هذا ما نصه: **ورأَيت النسخة** بيد الـدّاريين التي كتبها لهم ﷺ سنة تسع من الهجرة في قطعة أَدَم من خُفّ أمير المؤمنين عليّ وبخطه، رأيتها مرتين مرة سنة ٧٣٦ ومرة سنة **٧٤٩** وهي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أَنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم نطيّة بتّة بذمتهم ونفذت وسلمت لهم ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله، وكتب[3] وشهد عتيق ابن أَبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان، وكتب علي بن بو طالب وشهد. كذا رأيته في النسخة بإثبات الألف في أبي قحافة وبإسقاطها في بو طالب.

وأما الأدم فقد رأيته وقد احمر وخلق (هـ بواسطة سمط اللآل

---

(١) صِهْيون: بكسر الصاد المهملة: إحدى هضبات بيت المقدس، وقد تسمى بيت المقدس «صهيون».

(٢) عيون التواريخ: ألفه ابن شاكر الكتبي ورتبه على السنين، واسم المؤلف محمد ابن شاكر، متوفى سنة ٧٦٤ هـ.

(٣) قوله: وكتب: المعروف أنها تثبت مع آخر شاهد، وفي آخر الكتاب. وهنا، توهم بأن أبا بكر كتبه، وفي آخره نسبت الكتابة إلى عليّ، وهو الأصح.

للشيخ قويسم التونسي)[1] ونقل أيضاً عن «خصائص» المحقق قطب الدين الخيضري[2] ما نصه: وبأيدي الداريين الآن نسخة قديمة في قطعة أديم يَزْعمُون أنها كتاب النبي ﷺ لهم بذلك، وأَنها بخط عليّ ابن أبي طالب وقد وافق على صحتها جماعة من علمائنا المتقدمين ونقلوا منها نسخاً وقفت منها على نسخة بخط القاضي شهاب الدين ابن فضل العمري صاحب مسالك الأمصار، هـ. (قلت) وقد تكلم ابن فضل الله العمري، على هذا الكتاب في «مسالِكه» ص ١٧٢ من الجزء الأول من النسخة المطبوعة، وذلك أنه بعد أن ذكر زيارته لبيت المقدس والخليل سنة ٧٤٥ قال: فلما قضينا من الزيارة الأرب وهزنا من النوبة الخليلية الطرب، بعثتُ وراءَ الصاحب ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن الخليلي التميمي الداريّ وهو بقية هذا البيت الجليل والمنتهى إليهِ النظر على وقف الحبيب سيدنا محمد ﷺ وبلد أبيه إبراهيم الخليل، والتمسنا منه إحضار الكتاب الشريف المُكْتتب لهم بهذه النطيّة (العطية) والمُشرِّف لهم به على سائر البرية، فأنعم بإجابة الملتمس، وجاء به أقرب من رَجْع النفس، وهو في خرقة سوداءَ من ملحمِ قُطن وحرير من كُمّ الحسن أبي محمد المستضيء[3] بالله أمير المؤمنين، وبطانتها من كتان أبيض على

---

(١) محمد بن قويسم بن علي التونسي متوفى سنة ١١١٤ هـ. واسم كتابه «سمط اللآل في تعريف ما بالشفا من الرجال».

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر، توفي سنة ٨٩٤ هـ، أصله من عرب البلقاء، وله كتاب «اللفظ المكرم بخصائص النبيّ الأعظم» أظنه مخطوطاً.

(٣) خليفة عباسي (٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ) في أيامه انتهى حكم الفاطميين في مصر، وخُطب له على المنابر.

تقدير كلّ أصبع منه ميلان أسودان مشقوقان بميل أبيض جُعل ضمنَ أكياسٍ يضمُّها صندوقٌ من آبنوس يلفّ في خرقة من حرير والكتاب الشريفُ في خرقةٍ، من خفٍّ من أدم أَظنها من ظَهْر القَدَم وقد موّه سواد الجلد على الخط إلا أنه أذهبه وما أخفى من يد كاتبه المشرفة ما كتبه، وهو بالخط الكوفي المليح القويّ، فقبّلْنا تلك الآثار وتمتعنا منه بمدد الأنوار، ومعه ورقةٌ كتبها المستضيءُ بنصّه شاهدةً لهم بمضمونه، ومزيلة لشكّ الشاكّ المُريب وظنونه ومضمون ما كتبه كهيئته وسطوره.

نسخة كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبهُ لتميم الداري وإخوته في سنة تسع من الهجرة، بعد منصرفه من غزوة تبوك في قطعة أدم من خُفّ أمير المؤمنين عليّ وبخطه، نسختُه كهيئته.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أَنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم، وما فيهن نطيةً بتةً بذمتهم، ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم لعنهُ الله. شهد عتيق بن أبو قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وكتب علي بن بو طالب وشهد.

هذه نسخة المكتوب الشريف، وأَبو قحافة ألف وباء وواو، ثم قحافة، وبو طالب، باء وواو، ثم طالب، وليس في (بو) ألف بَيّن ذلك ليعرف، و«كتب» في[1] ذكر علي رضي الله عنه مقدمة،

---

(١) يريد: أن نصّ الرسالة «كتب عليّ بن أبي طالب وشهد» جاءَت «كتب» مقدمةً، و«شهد» مؤخرة.

و «شهد» مؤخرة، بَيِّن ذلك ليعرف. وقد رأَيت ذلك كله بعيني ومن خط المستضيء نقلتُ، وهو خطه المعروف المألوف، وقد رأيته وأَعرفه معرفةً لا أَشك فيها ولا أرتاب، وقرأْتُه من الكتاب النبوي نفسه لابن شاكر الكتبي، وهو موافق لما كتبه المستضيء نقلاً منه، على أَن آثاره كادت تعفى وتحجب عن الناس، لفساد الزمان وتتخفى. قال: وكنت رأيت ذلك مرة أُخرى متقدمة سنة ٧٣٩ ولكني إذ ذاك لم أَنقله، هـ. كلام ابن فضل الله، الجامع الذي ما وَصَفَ أحدٌ هذا المكتوبَ كوصفه، ولا دقق النعت أحدٌ كتدقيقه، جزاه الله خيراً.

وفي كتاب «**الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**» لقاضي القضاة أبي اليمن مجير الدين الحنبلي[1] ص ٤٤٨ «إقطاع تميم الداري الذي أقطعه له النبي ﷺ، وهي الأرض التي بها بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام وما حولها من الأرض وكتب له ذلك في قطعة أديم من خُفّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بخطه، وقد حكى المؤرخون لفظ الإقطاع على وجوه مختلفة، وقد رأيت عند التكلم على الإقطاع المشار إليه، القطعة الأديم التي يُقال إنها من خفّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد صارت رثّةً وفيها أثر بعض الكتابة، ورأيت معها ورقةً مكتوبةً في الصندوق الذي فيهِ القطعة الأديم منسوب خط هذه الورقة إلى أمير المؤمنين المستنجد[2] العباسي تغمده الله برحمتهِ، كتب فيها نسخة

---

(١) توفي سنة ٩٢٨ هـ.

(٢) خليفة عباسي، اسمه يوسف (٥١٨ ـ ٥٦٦ هـ). وقد مرّ عند العمري أن =

الإقطاع ، وصورة ما كتبه المستنجد بخطه :

الحمد لله ، نسخة كتاب رسول الله الذي كتب لتميم الداري وإخوته سنة تسع من الهجرة بعد منصرفه من غزوة تبوك في قطعة أديم من خف أمير المؤمنين عليّ وبخطه، نسخْتُه كهيئته رضي الله عنه :

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أَنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته حبرون والمرطون وبيت عَيْنون وبيت إبراهيم وما فيهم نطية بتة بينهم ونفذت ذلك، وسلمته لهم ولأعقابهم، ومن آذاهم آذاه الله، فمن آذاهم لعنه الله، يشهد عتيق بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان ابن عفان وكتب علي بن أبي طالب وشهد، وقد نسخت ذلك من خط المستنجد بالله كهيئتهِ، ولعل هذا أصح ما قيل فيه والله أعلم.

واستمر هذا الإقطاع بيد ذرية تميم الداري يأكلونهُ إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام، وهم طائفة كثيرة يقال لهم: الداريّة، وتقدم عند ذكر الصحابة أن تميم الداري كان أميراً على بيت المقدس. وقد[1] تعرض بعض الولاة لآل تميم وأَراد انتزاعَ الأرض منهم ورفع أمرهم إلى القاضي أَبي أبي حاتم الهروي الحنفي قاضي القدس الشريف، فاحتج الداريون

= الكتاب بخط ابنه المستنجد، فإما أن تكون تحريفاً من النساخ، وإما أنها كتبت مرتين.

(١) الكلام لمجير الدين الحنبلي.

بـالكتاب فقـال القـاضي: هـذا الكتـاب ليس بـلازم، لأن النبي ﷺ أَقطـع تميماً مـا لم يملك، فاستفتى الـوالي الفقهاءَ وكـان أبو حـامد الغزالي حينئذٍ ببيت المقدس، قبل استيلاء الفرنج عليه، فقال: هذا القاضي كافر، لأن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض كلُّها»[1] وكان يُقطع في الجنة فيقـول قَصْرُ كـذا لفلانٍ، فـوعْدُه ﷺ صِـدْقٌ وعطاؤه حق، فخزي القاضي والوالي، وبقي آل تميم على ما بأَيديهم، وكانت هذه الحادثة لما كان القاضي أبو بكر بن العربي بالشام، هـ.

(قلت) ما ذكره عن ابن العـربي هو لـه في «شرح المـوطأ» المسمى بالقبس في كتاب البيوع لمّا تكلم على حـديث عمرو بن شعيب عن أُبيهِ عن جده[2] قال: هي صحيفةٌ صحيحة، وإنما تـركها من تـركها لقولهم: إنها غيـر مسموعـة، وهذا لا يمنـع من الاحتجاج وقـد كان عند أولاد تميم الداري كتاب النبي ﷺ في قطعة أديم:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

هذا ما أنطى محمد رسـول الله تميماً الـداري، أقطعـهُ قريتين حبـرون وبيت عينون، ببلد الخليـل فبقي ذلـك في يـده، ويُشـاهـد الناسُ كتابهُ إلى أَن غلب الإفرنج على القدس والخليل سنة ٤٩٢.

---

(١) انظر تخريج الحديث في تسلسل الأخبار التي أثبتها قبل قليل.

(٢) الموطأ؛ كتاب البيوع: حدثني يحيى عن مالك عن الثقة عنـده، عن عمرو بن شعيب عن أبيـه عن جده، أن رسـول الله نهى عن بيـع العـربـان». وقـد تكلم العلماءُ على قولهم في السند (عن مالك عن الثقة عنده). مَنْ هو الثقة في هذا الموضع؟ ويرى ابن العربي أنها صحيفة، وقوّى الأخـذ بها، بكتـاب تميم وإن كان غير مسموع.

قال: ولقد اعترض بعض الولاة على آل تميم أيام كنتُ بالشام وأَراد انتزاعها منهم فحضر القاضي أبو حامد الهروي وكان حنفياً في الظاهر معتزلياً في الباطن مُلحداً شيعياً، فاحتجّ أولاد تميم بالكتاب، فقال القاضي: هذا الكتاب ليس بلازمٍ لأن النبي ﷺ أقطع تميماً ما لا يملك، فاستفتى الوالي الفقهاء، وكان الطوسيُّ يعني الغزالي حينئذٍ ببيت المقدس، فقال: هذا القاضي كافر فإن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض كلُّها» وكان يقطع الجنة فيقول قصر كذا لفلان ووعْدُه صدق، وعطاؤه حق. قال: فخزي القاضي والوالي وبقي أولاد تميم على ما بأيديهم، هـ. هذا ما رأَيت في شرح الموطأ وممن نقل كلامهُ هذا **الصلاح الصفدي** في تذكرته، وغيره من الأعلام وساق ابن العربي في «قانون التأويل» وهو كتاب جمعهُ من فوائد الغزالي فتوى للغزالي في «النازلة» أَفاد بها وأَجاد، وساق كلام «قانون التأويل» الخيضري في خصائصه، والشيخ قويسم في سمط اللآل فانظره فيهما. **وفي السيرة الشامية قال الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين** الدمشقي قال: **الصاحب الإمام سفير الخلافة (أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسين البادراني رحمهُ الله تعالى)** أنهُ شاهد خط أمير المؤمنين رضي الله عنه الذي كتبه بإذن رسول الله ﷺ هذا ما أعطى محمد رسول الله تميم الداري وأخوته حبرون والمرطون وبيت عينون وبيت إبراهيم عطية البتّ بذمتهم ونفذت ذلك وسلمتُه لأعقابهم، فمن آذاهم آذاه الله ومن آذاهم لعنه الله. شهد عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكتبه علي بن أبي طالب وشهد. ثم قال الشامي: تواردت الروايات الصحيحة أَن رسول الله ﷺ أقطع تميماً وأخاه نعيماً وأصحابهما وذريتهم قرى،

وكتب لهم بذلك كتاباً ولعن فيه من عارضهم. **ولم يزل هذا الكتاب بأيديهم إلى وقتنا هذا**. وقد ألف الحافظ أبو الفضل بن حجر والحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي وشيخنا الحافظ جلال الدين السيوطي في صحة ذلك مؤلفاً وفي كل ما ليس في الآخر فمن أراد الزيادة على ما هنا فليراجع ذلك، هـ. (قلت) تأليف الحافظ ابن حجر ذكره هو في الإصابة في ترجمة أبي هند الداري قال: قال أبو نعيم: هو أخو تميم، قدم مع تميم ومَنْ معهما على رسول الله ﷺ وسألوه أن يُقطعهم أرضاً بالشام فكتب لهم ما بها، فلما كان زمنُ أبي بكر أتوهِ بذلك الكتاب فكتب لهم إلى أبي عبيدة بإنفاذه، قلت: والكتاب المذكور مشهور بيد ذرية تميم وقد كتبتُ في شأْنهِ جزءاً سمّيتُه «البناء الجليل بحكم بلد الخليل»، هـ منها ص ٢٠٨ من الجزء السابع. وتأليف الحافظ السيوطي الذي ذكره الشامي سماه **الفضل العميم في إقطاع تميم (وهو موجود في المكتبة الخديوية المصرية)** - انظر قسم المجاميع ص ٦٣ من الجزء السابع من برنامجها وله كتاب آخر **في الإقطاع موجود في مكتبة باريز العمومية**. وأما كتاب ابن ناصر فقال عنهُ القطب الخيضري في خصائصهِ، صنف شيخنا الحافظ الحجة أَبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين **مسند تميم الداري** وذكر فيهِ قصة هذا الكتاب وأَنهُ وقف على أصله وحرر ذلك تحريراً شافياً، هـ.

وفي صبح الأعشى حين ذكر المكتوب المذكور عن تاريخ ابن عساكر ص ١٠٢٢ من الجزء الثالث عشر ما نصُّه: قلت: وهذه الرقعة التي كتب بها النبي ﷺ بيد التميميين خدام حرم الخليل إلى الآن وكلما نازعهم أحد أتوا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليقف

عليهـا ويكفّ عنهم مَنْ يظلمهم وقـد أخبـرني برؤيتها غيـر واحـد، والأديم التي هي فيهِ قد خلق لطول الأمر، هـ منه.

وفي الزرقاني على المختصر عند شرح قول خ في باب الزكاة وحكمه للإمام إلخ ما نصه: إقطاعه ﷺ تميماً الداري بعض أراضي بنواحي بيت المقدس قبل فتحهِ من خصائصهِ عليـه الصلاة والسـلام كما في خصائص السيـوطي الصغرى ونصـه: وكان يقـطع الأراضي قبـل فتحهـا لأن الله ملكـه الأرض كلهـا، وأفتى الغــزالي بكفـر من عارض أولاد تميم الداري فيما أَقطعهم، هـ. وزاد المناوي في شرحها، ونقله ابن العربي عنه في القانون وسلّمه، هـ. وقول الأجْهُوري: راجعت الخصائص فمـا وقفتُ على ذلك فيهـا، معناه: لم يتنزلوا في الخصائص للتعبير بأنهُ أَقطع تميماً بتقـدير الفتـح، لأن الله ملكهُ الدنيـا والجنة يقـطع فيهما مَنْ أراد، وأراه جميـع ما يفتـح عليهِ، وعلى أُمتِه، هـ المقصود. وفي شرح المناوي لألفية السير قبل قول العراقي: «كذا لـه أن يحيـي المواتـا بنفسـه مـا نصـه: ويقـطع الأرض قبل فتحها لأن الله تعالى ملكه الأرض. وأفتى الغـزالي بكفر من عارض أولاد تميم الداري فيمـا أَقطعهم. وقـال: كان يُقـطع في الجنة فالدنيا أوْلى، هـ. وقوله: كما للسيوطي في الخصائص الصغرى: هي «أنموذج اللبيب في خصـائص الحبيب» وما نقله عنـه فيها ذكره في الفصل الثالث منهـا. وقال الأجْهُـوري عند قـول خليل وبإقطاع ما نصه: قال التتاءي في شرح الجلاب ما نصه: وقـد أَقطع ﷺ بـلال بن الحارث القَبَليـة بفتح القـاف والباء المـوحّدة. وأقـطع تميماً الداري، قرية عينون بالشـام قبل فتحهـا، وإلى ثعلبة الخُشني شيئاً من بلاده قبل فتحها، وهو من المعجزات، وإذا كان له أَن يُقطع

الجنة لأن الله تعالى ملكها لـه كما ذكـره الغـزالي في بعض كتبهِ لاختصاصهِ بذلك دون سائر خلقه فكيف لا يُقطع الدنيا، هـ. (قلت) وما نقلوه عن الغزالي صرح الروضيّ في شرح «أنموذج اللبيب» بأَنهُ صرح به في منهاج العابدين المنسوب لـه، وساق نصّه وسبق عن غيره أن ذلك للغزالي في فتاويه. وفي شرح الزرقاني على المواهب ص ٢٧٨ من جـ ٥ أن السبكي أفتى بنحو ما للغزالي، وقد أشار لمعنى كلامه الشيخ علي الأجهوري حيث قال في شرح الأنموذج وغيره فقال:

قد خصّ رب العلىٰ تعالى نبينا الكاملَ المُكَمّل
بملك جنته وآذن بقطعها فيما يرى ويفعلْ

«**تنبيه**» - وفي «فواتح الأنس برحلتي لوادي القدس» للشيخ **مصطفى أسعد اللقيمي** وهو من أهل القرن الثاني عشر بعد أَن ساق إقطاع المصطفى المذكور لتميم ونصُّه كما سبق، قال وهذا الإقطاع مستمر بيد ذرية تميم يأكلونهُ إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد الخليل ونواحيها وهم طائفة كثيرة يقال لهم الدارية وهذا ببركة النبي ﷺ، هـ. (قلت) ولا زال ذرية الداريين هؤلاء بالقُدْس وجهاتهِ وهم إلى الآن أهل علم وفضل، وممن لقيته منهم ببلد الخليل لما زرته عام ١٣٢٤ هـ **في رحلتنا الحجازية الشامية**، خطيب الحرم الخليلي الشيخ عبد الحي بن الخطيب الحاج عبد الفتاح التميمي الداري، وكان عالم الخليل قريباً من ذلك التاريخ ومفتيه الشيخ خليل الداري الأزهري من مشاهير ذلك العصر، في الجهات الفلسطينية. / ثم وجدتُ الحجة من أئمة النسب فخر الأندلس الإمام ابن حزم نص في جمهرته **على أَن تميماً الداري هذا لم**

يُعقب. وفي «الاستيعاب» لابن عبد البـر في ترجمـة تميم ويكنى أبا رقية بابنة له تسمى رقية لم يولد له غيرها، هـ. ونحوه للنووي في تهـذيب الأسماء واللغـات. وفي ترجمتـه من تهـذيب التهـذيب ص ٥١٠ ج ١ للحافظ ابن حجر قال يعقوب بن سفيان: لم يكن له ذكر إنما كانت له ابنة تسمى رقية. وقال ابن سميع: مات بالشام ولا عقب له، هـ. وفي شرح الأربعين النووية للشهاب ابن حجر الهيتمي والبرهان الشبرخيتي لدى الحديث العاشـر المصدّر من **النـووي** بعن أَبي رُقَيّة تميم الداري قالا: مصغر، ابنة لم يُولد له غيرها، هـ. ونحوه في نسيم الـرياض. وقـد سبق قـول الحـافظ **ابن العـربي في القبس فـاسـتظهـر أولاد تميم بكتـاب النبي ﷺ** وبقي أولاد تميم بكتـابهم. وقول مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلي: واستمـر هذا الإقـطاع بيد ذرية تميم الداري. وقوله أيضاً فيما سبق عنه أيضاً: وقد تعرض بعض الـولاة لآل تميم. وقولـه: بقي آل تميم يعبّـرُ بـالآل لا بـالأولاد وفي السيـرة الشاميـة نقلاً عن نص الإقـطاع النبوي: هـذا آخر مـا أَعطى محمد رسول الله لتميم وإخوتهِ، ولكن سبق عن اختصـار تاريـخ ابن عسـاكر في إحـدى الروايـات نصّ الإقطاع النبـوي لتميم ولعقبهِ من بعده كما سبق عن الحافظ ابن حجر وبيد ذرية تميم، وقول السيوطي أولاد تميم، إلا أن يكونوا أَرادوا أولاد بنتِه والله أعلم. «**تنبيه**» ـ ما سبق عن عيون التواريخ من (وكتب علي بن بو طالب) كذلك، رأيته في سمط اللآل بخط مؤلفهِ. ونحوه رأى بعينهِ ابن فضل الله العمري كمـا سبق عن «المسالـك والممـالـك» لـه من (وشهـد عتيق بن أبـو قحافه) و (كتب علي بن بو طالب). وقـد ذكر ابن سلطان في شـرح الشفـا في مبحث فصاحتـهِ عليـه السـلام أن ابن أَبي زيـد حكى في

نوادره عن الأصمعي عن يحيى بن عمر أَن قريشاً كانت لا تغير الأبّ في الكنية تجعله مرفوعاً في كل وجه من الجر والنصب والرفع، هـ. أي: كما يقال علي بن أبو طالب. وقرىء «تبت يدا أَبو لهب». ورأيت في كتاب «عمدة الطالب في أنساب أبي طالب» لجمال الدين أحمد بن علي بن الحسين بن مهنا بن عتبة الداودي، أَنهُ رأَى هو وغيره عدة مصاحف بخط علي بن أبي طالب كتب اسم والده هكذا (علي بن أَبيطالب). وذكر أيضاً أنهُ رأى بالمزار مصحفاً بخط سيدنا علي في مجلد واحد وفي آخره بعد تمام كتابة القرآن: بسم الله الرحمٰن الرحيم «كتبه علي بن أبيطالب»، هـ. والله اعلم.

انتهى النقل من «التراتيب الإدارية».

٤ ـ لماذا اختار تميم وأصحابه ديار الخليل؟

أثبتنا فيما سبق، أن تميماً وقومه، كانوا يعرفون الأماكن التي اختاروها لاستقطاعها من رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا من سكانها أو من جيرانها، ولو لم يجدوا أو يروا فيها الخير الوافر ما اختاروها.. فما صفة هذه الديار التي رغب تميم وصحبه فيها؟ إننا لا نملك وصفها لحالها يوم فتحها المسلمون، لأن رواة الأخبار والفتوح الأوائل لم يكونوا يُعنون بوصف الديار، وإنما كان يهمهم وصف المعارك والفتوح، وذكر الشعوب والقبائل، وعندما ظهرتْ كتب الجغرافية والبلدان أخذنا نقرأ فيها وصف القرى والمدن وما فيها من أشجار وأنهار وزروع، وقد ظهرت هذه الكتب في العصر العباسي، بعد القرن الثاني الهجري..

فهل يُوافق ما ذكروه عن حال البلاد في القرن الثالث، ما كان عليها إبّان الفتح، أو قبله بقليل؟

نقول: يظن أن الحياة الاقتصادية، وبخاصةٍ الأحوالَ الزراعيةَ لم تكن سريعة التبدل في الأزمنة الغابرة، فما نجده من أوصاف الأرضين في القرن الثالث الهجري، وما بعده، قد يكون كله أو جله هو الحال الذي كانت عليه البلاد في القرن الأول، وبخاصة إذا عرفنا أن الدولة الإسلامية في القرن الأول كانت مشغولة بالفتوحات حيناً، والفتن حيناً آخر، فلم تفرغ الدولة كثيراً للإصلاح الزراعي فإذا وجدنا وصفاً لهذه البلاد في كتب الرحالة الجغرافيين ابتداء من القرن الثالث، فإننا نأنس به لمعرفة حال البلاد في القرن الأول وما قبله بقليل، أي: في الزمن الذي اختار تميم هذه الأرض لتكون إقطاعاً.

ومع ذلك فإننا لا نحرم أن نجد فيما كُتب عن هذه البلاد ـ قبل الميلاد ـ ما يدل على أنها أرضٌ ممرعة خصبة منذ سكنها الإنسان.

أ ـ من ذلك أن إبراهيم عليه السلام، عندما قدم إلى فلسطين في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد، سكن سنوات تحت بلوطات[1] ممرا[2]، أو بطمات ممرا، الواقعة شمال مدينة الخليل. ولما توفيت في تلك الأثناء «سارة» زوجة إبراهيم عليه السلام، دفنها في مغارة «المكفيلة» التي اشتراها هي وحقلها من عفرون بن صوحر. وفي قوله تعالى، يقص قصة إبراهيم عليه السلام:

---

(١) البلوط، والبطم، نوعان من أشجار السنديان، يبلغ علو الشجرة منه خمسة عشر متراً، ويؤكل ثمره ويدبغ بقشره. وممرا: أمير، أموري اتخذ هذا الموقع سكناً له منذ الهجرات العربية القديمة، قبل حلول سيدنا إبراهيم، ضيفاً على البلاد.

(٢) ممرا: هي الموضع الذي يقال له «الرامة» بالقرب من مدينة الخليل من جهة الشمال، قبلي قرية حلحول. قالوا: وهي أرض بها عين ماء وكروم.

﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾[1] قال أهل التفسير: بارك الله فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنيّ والفقير. ورُوي أنه لما خرج إبراهيم عليه السلام من العراق، فقيل له إلى أين؟ فقال: إلى بلد يُملَؤُ فيه الجِرابُ بدرهم[2]. والمعروف أن إبراهيم عليه السلام قصد الشام، ثم خص من الشام فلسطين، وخص من فلسطين ديار الخليل.

قالوا: وعندما بعث موسى عليه السلام جواسيسه إلى فلسطين، ليتجسسوا ويستكشفوا أحوالها وأهلها، زاروا قرية «أَرْبَعَ» وهي الخليل. وقد أرعبهم الكنعانيون سكانُ البلاد الجبابرة الذين اشتهروا بطول قامتهم وكثرتهم وقوتهم. ولما غادر الجواسيس قرية «أربع» وهو الاسم القديم للخليل، أخذوا معهم شيئاً من رمانها، وتينها وعنقوداً من عنبها كبير الحجم ثقيل الوزن، بحيث لزم رجلان لحمله[3].

ومع ما في هذا الوصف من مبالغة، فإنه يبقى دليلاً على ما عرف الرواة من كثرة النماء والخصب، بسبب البركة التي وضعها الله في هذه الأرض. ولا يُقاس ما في زماننا ـ مع قوة الآلة وتقنية العمل ـ على ما كان في الأزمان الغابرة.. فما ذكره القرآن من النعيم الذي تفضل به على الأمم السابقة لم نر مثله في منام ولا يقظة. واقرأ إن شئت ما أخبر القرآن به عندما قصّ علينا أخبار قوم هود، وقوم صالح، فإنك واجد من النعيم عجباً.. وقال تعالى في وصف حال قوم سبأ: ﴿ وجعلنا بينهم وبين القُرى التي باركنا فيها قُرى ظاهرةً،

---

(١) الأنبياء: ٧١. (٢) تفسير الكشاف، سورة الأنبياء.

(٣) انظر «النبوة والأنبياء» للشيخ الصابوني ١٨٤ . وكتاب «الخليل» لمصطفى مراد الدباغ.

وقدّرنا فيها السَّيْر سيروا فيها لياليَ وأياماً آمنين ﴾. قال المفسرون: القرى التي باركنا فيها، هي قرى الشام، وقرى ظاهرة: أي متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين، أو راكبة مَتْن الطريق، ظاهرة للسابلة، لم تَبْعُدْ عن مسالكهم حتى تخفى عليهم.

ومعنى قدرنا فيها السير: قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدوّاً، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء.

فمن منا رأى، أو قرأ، بعد ذلك العهد، أن بين اليمن والشام قرى متواصلة؟ وهل يمكن أن تصل قدرة الإنسان اليوم على بلوغه؟ والناس أحوج ما يكونون إليه اليوم، لكثرتهم وقلة ما بأيديهم من الزاد، أو لعجزهم عن استنباط كل خيرات الأرض الطيبة المباركة.

ب ـ وفي نصوص روايات الإقطاع التي أثبتناها سابقاً، ما يدل على خيرات هذه الأرض، لأنها ذكرت عيون الماء، والأنباط (الفلاحين) والبقر، والزرع.

جـ ـ وقال الإصطخري في كتابه «المسالك والممالك» الذي ألفه عام ٣٤٠ هـ: «ومن بيت لحم على سمته في الجنوب مدينة صغيرة شبيهة في القدر بقرية، تعرف «بمسجد إبراهيم» (الخليل) والقرية في وهدة بين الجبال كثيرة الأشجار، وأشجار هذه الجبال وسائر جبال فلسطين وسهلها: زيتون وتين وجميز وعنب، وسائر الفواكه أقلّ من ذلك.

ووصف ديار الخليل، الرحالة المقدسي، المعروف بالبشاري في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» والمؤلَّف عام **٣٧٥ هـ**. فقال: «حبرى: هي قرية إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذه القرية إلى نحو نصف مرحلة من كل جانب، قرى وكروم وأعناب وتفاح جبل نصره لا يُرى مثله ولا أحسن من فواكهه، عامتها تحمل إلى مصر، قيل: ربما وزنت التفاحة مائة درهم وكان يباع التفاح الجيد أحياناً، كل ألف حبة بدرهم.

قال: وفي هذه القرية ـ الخليل ـ ضيافة دائمة، وطباخ وخباز وخدم مرتبون، يقدمون العدس بالزيت لكل مَنْ حضر من الفقراء ويُدفع إلى الأغنياء إذا أخذوا، ويظن أكثر الناس أنه من قرى إبراهيم، وإنما هو من وقف تميم الداري وغيره، والأفضل عندي التورع عنه»، وانظر ما نقلناه في وصف فلسطين، في الفصل الأول.

ونزل الخليل، الرحالة الفارسي «ناصر خسرو» عام **٤٣٨ هـ**. وكتب عنها في مؤلّفه «سَفَر نامه» ما يأتي:

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس، عزمتُ على زيارة مشهد إبراهيم الخليل، في يوم الأربعاء غرة ذي القعدة سنة **٤٣٨ هـ**، والمسافة بينهما ستة فراسخ عن طريق جنوبي به قُرى كثيرة وزروع وحدائق وشجر برّي لا يُحصى، من عنب وتين وزيتون وسمّاق: وقال: يُسمي أهل الشام، وبيت المقدس هذا المشهد «الخليل» ولا يذكرون اسم القرية التي هو بها، وهي قرية «مطلون»[1] وهي

---

(١) لم أجد هذا الاسم، ولعله تحريف «المرطوم»، وستأتي ترجمته.

موقوفة عليه مع قُرى كثيرة، وفي هذه القرية عينُ ماءٍ تخرج من الصخر يتفجر ماؤها رُويداً رويداً. قال: وأغلب الزراعة هناك الشعير، والقمح قليل والزيتون كثير، ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون، وهناك طواحين كثيرة تُديرها البغال والثيران لطحن الدقيق. وبالمَضْيفة خادمات يخبزن طول اليوم.. ويُعطى مَنْ يصل هناك، رغيفاً مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كلَّ يوم، وهذه عادة بقيت من أيام الخليل عليه السلام حتى الساعة. وفي بعض الأيام يبلغ عدد المسافرين خمسمائة فتُهَيَّأ لهم الضيافة جميعاً.

د ـ وزار الخليل «دانيال» الراهب الروسي يوم نزوله فلسطين سنة ١١٠٦ م حوالي القرن السابع الهجري وقال: «أما الخليل وما جاورها، فإنها بلاد الله المرجاة، كثيرة القمح والكروم والزيتون وجميع أصناف الخضروات، وأغنامها تلقح مرتين في العام، ونحلها يبني خلاياه في صخور جبالها الجميلة المكسوة سفوحها بما لا يُحصى من الأشجار المثمرة، كالزيتون والتين والخرنوب والتفاح، **وليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة**»[١].

هـ ـ ونزل الخليل سنة ١٠٣٧ هـ الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني صاحب «نَفْح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» فقال: وعلى مسافة سبعة فراسخ من بيت لحم، مدينةُ حَبْرون، التي يدعوها العرب «الخليل». وبيوتها مبنية بأنقاض قلعة قديمة، والأراضي التي بجوارها لها شكل حوض مُنْبتٍ طوله خمسة

---

(١) عن «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» لنقولا زيادة.

فراسخ أو ستة تتوالى فيه على نمط لطيف الآكامُ الوعِرة وغاباتُ البلوط والصنوبر وبساتين الزيتون والكروم التي لا يستخرج السكان من عنبها خمراً، لأنهم جميعهم مسلمون، بل يجففونه زبيباً، ولو أنهم لا يُتقنون عمله، ويزرعون القطن فيغزلونه ويبيعونه في القدس أو غزة، ويصنعون الصابون» اهـ.

إننا لا نشك، بعد هذه الأوصاف المتوالية عبر العصور، أن بلاد الخليل، كانت[1] وما زالت، وستبقى مصدر خير ونعيم، ولهذا أرادها تميم لتكون إقطاعاً له، ولذريته من بعده.

---

(١) يقول مجير الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل» الذي ألَّفه في بداية القرن العاشر الهجري، يصف السماط الخليلي، في مدينة الخليل:

«وبجوار مسجد الجاولي من جهة القبلة، المطبخ الذي تعمل به، الجشيشة أو الدشيشة (من القمح المسلوق) للمجاورين والواردين وعلى باب المطبخ تُدقُّ (الطبلخانة) في كلّ يوم بعد العصر عند تفرقة السماط الكريم، وهذا السّماط من عجائب الدنيا، يأكل منه أهل البلد والواردون، وهو خبز يُعمل في كل يوم ويفرق في ثلاثة أوقات بُكرةَ النهار، وبعد الظهر، لأهل المدينة، وبعد العصر، تفرقة عامّة، لأهل البلد والواردين. ومقدار ما يُعمل من الخبز في كل يوم أربعة عشر ألف رغيف، ويبلغ إلى خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات وأما سعة وَقْفه، فلا تكاد تنضبط، ولا يمنع من سماطه الكريم أحد، لا من الأغنياء ولا من الفقراء.

وأما السبب في دقّ الطبلخانة في كل يوم عند تفرقة السماط بعد العصر، فيقال إن الأصل في ذلك أن سيدنا إبراهيم الخليل، كان لما يأتي إليه الضيوفُ ويصنع لهم ما يأكلونه ويكونون جماعة متفرقين في المنازل التي أنزلهم بها، فإذا قصد إطعامهم، دقّ الطبل لإعلامهم أنه هيأ لهم ما يأكلونه ليجتمعوا، فإذا سمعوه بادروا واجتمعوا لأكل سماطه الكريم، فصارت سُنّةً بعده، تُعْمل في كل يوم عند تفرقة السماط.. وعلى باب المسجد الذي تدق عنده الطبلخانة المكان الذي يُصنع منه السّماط من الأفران والطواحين، وهو مكان متسع =

٥ ـ التعريف بالأماكن التي وردت في روايات كتاب الإقطاع:

تعددت الروايات التي نقلت صورة الكتاب النبوي في الإقطاع، وقد تتفق الروايات، وقد تختلف، ومن مجموعها كانت الأعلام التالية:

(حبرى، أو حبرون) (بيت عَيْنون، أو عينون، أو عين عينون) (بيت إبراهيم) (الرطوم أو المرطوم) (بيت لحم) و (صِهْيون) و «بيت لحم».

وورد ذكر «بيت جبرين» فيما أشار به تميم على أخيه أبي هند لتكون مكان الإقطاع، ولم يحصل عليها الاتفاق بينهما لأسباب سأذكرها عند التعريف بهذا العلم.

وإليك تعريفاً موجزاً، بما اتفقت الروايات عليه، أو انفردت به بعضها:

■ حبرون: ويقال فيها «حَبْرى» وهو الاسم الشائع في كتب الأقدمين، لمدينة الخليل.. ولكنه لم يكن أول اسم وضع على هذا المكان فقد كان أول اسم، أطلقه الكنعانيون العرب على هذا المكان هو «قرية أَرْبَع» على لفظ العدد أربعة، وذلك قبل ٥٥٠٠ سنة، نسبة إلى مؤسسها «أَرْبع» العربي الكنعاني، أحد ملوك

= يشتمل على ثلاثة أفران وستة أحجار للطحن، ويعلو هذا المكان الحواصل التي يوضع فيها القمح والشعير، (ودوية) هذا المكان عُلْواً وسفلاً من العجائب، فإنه يدخل إليه بالقمح، فلا يخرج منه إلا وقد صار خبزاً، وأما الاهتمام بعمل سماطه من كثرة الرجال في تعاطي أسبابه، من طحن القمح وعجنه وخبزه، وتحضير الآلة من الحطب والاعتناء بأمره، فمن العجائب، لا يكاد يوجد مثل ذلك عند ملوك الأرض» ا. هـ.

العناقيين، الذين كانت تمتد منازلهم من جنوبي الخليل إلى القدس. وكان العناقيون يُوصفون بالجبابرة، وقد خاف اليهود منهم قبل أن يحاربوهم. وعندما دخل «يوشع» فلسطين، أقطع أحد جنوده قرية (أربع) فغيّر اسمها إلى «حبرون» نسبةً إلى أحد أولاده بعد أن بقيت تدعى باسم «أربع» حوالي (١٥٠٠) سنة.

وحبرون: اسم عبري، معناه «عُصْبة، أو صُحْبة، أو رباط، أو اتحاد». وقد بنيت، أربع، أو حبرون على تلة (الرميدة) شمال غربي البلدة الحالية وكان بيتُ إبراهيم على سفح جبل الرأس، المقابل لجبل الرميدة، ثم اتصلت حبرون مع بيت إبراهيم، فكانت مدينة الخليل الحالية. ويبدو أن (حبرون) أضحَتْ علماً على أرض، وليست علماً على مكان مأهول، قبيل الإسلام، وربما يكون الفرس الذين غزوا فلسطين سنة ٦١٤ م قد خربوها، ولذلك لم يكن لها ذكر في الفتوحات الإسلامية.. وعلى كل حال، فإنّ استبدال «الخليل» بـ «حبرون» ربما كان بعد القرن الثاني الهجري وكان في البداية اسماً شعبياً يتداوله الناس فيما بينهم، ثم غلب على سائر الأسماء بعد القرن الرابع الهجري، من باب غلبة الجزء - وهو مقام الخليل عليه السلام - على الكل، وهو المدينة، ولأن المدينة أضحت مزاراً ومقصداً بسبب مقام الخليل.

■ بيت إبراهيم: هو المغارة التي دُفنت فيها سارة زوجة إبراهيم الخليل ومن بعدها إبراهيم ثم إسحٰق، وقيل: إن يعقوب ويوسف عليهما السلام قد نقلا من مصر ودفنا فيها، والله أعلم.

وقد نزل إبراهيم الخليل هذا المكان سنة ١٨٠٥ قبل الميلاد،

وأصبح منزلاً له، ثم مدفناً له، ولآله من بعده، وهو ما يُسمى اليوم «الحرم الإبراهيمي» والراجح أن السور الذي يحيط بالحرم الإبراهيمي هو من بقايا بناءٍ أقامه هيرودوس الآدومي الذي ولد المسيح عليه السلام في آخر أيام حكمه، وفي عهد المسيح بنيت حول سور المقبرة بعض المنازل التي لم تلبث أن تحولت إلى قرية، عرفت باسم بيت إبراهيم، وفي العهد الأموي، شاد الأمويون سقف الحرم الحالي والقباب التي فوق مراقد إبراهيم ويعقوب. والإقطاع لم يكن يقصد هذه المقبرة وإنما أراد ما حولها من الأراضي، وسميت «بيت إبراهيم» من باب إطلاق جزء الشيء على كله، ولأنه أعرف شيء في ذلك المكان. ويمكن القول: إن حبرون، وبيت إبراهيم، أصبحتا اليوم شيئاً واحداً هو مدينة الخليل وما يحيط حولها من الأراضي.

■ بيت عينون، أو عَيْنون، أو عين عينون، جاءَت الروايات بالصيغ الثلاث. ويقع هذا المكان في جوار قرية الشيوخ من قضاء الخليل، على بعد خمسة أكيال إلى الشمال الشرقي من مدينة الخليل. قال علماء الآثار: ربما كانت تقوم على موقع مدينة «بيت عنوت» بمعنى بيت الآلهة عناة الكنعانية، وعناة: اسم إلهة الحرب عند الكنعانيين.

وفي العهد الروماني، كانت من أعمال قطاع الخليل، وحصنت بقلعة تحمل هذا الاسم. وقد عُرفت بيت عينون بكرومها وزبيبها منذ القديم كما يذكر ذلك المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» ونسب إليها عدد من العلماء في القرن الثالث، منهم عبد الصمد بن

محمد بن أبي عمران العينوني، مُحدّث ومقرىء، توفي سنة ٢٩٤ هـ بقريته عينون، وروى عنه أبو القاسم الطبراني.. وكانت بيت عينون مأهولة بالسكان حتى وقت قريب، حيث كان يسكنها سنة ١٩٦١ م حوالي مائتي مسلم.

■ المرطوم: قال الدباغ في تحديد مكانها: لعل المرطوم، هو «ممرى» حيث ذكر صاحب «الأنس الحليل» أن الخليل عليه السلام كان أول نزوله مقيماً بـ (ممرى) في مخيمه. والمرطوم، أو «ممرى» بالقرب من مدينة الخليل من جهة الشمال، وهي أرض بها عين وكروم. والمرطوم أيضاً، هو ما يُسمى «رامة الخليل» أو حرم رامة الخليل الواقعة في شمال الخليل على بُعْد ميل ونصف، ومسيرة نحو (٤٠٠) متر للشرق من الطريق بين الخليل والقدس. ويذكر في الأخبار أن إبراهيم عليه السلام أقام في هذه البقعة مرات، وفيها بشرت الملائكة سارة بمولودها إسحٰق.. وفي هذا المكان بنى قسطنطين الكبير سنة ٣٢٥ م كنيسة ما زالت بقاياها ماثلة للعيان.

والله أعلم.

■ صِهْيون: بكسر الأول وسكون الثاني، وفتح الياء وسكون الواو، وآخره نون، وهو اسم عِبْري معناه «حصن» وهو اسم لتلة من التلال التي تقوم عليها مدينة القدس، وكثيراً ما يطلق اسم «صهيون» على القدس كلها.

وقد جاء هذا العلم في رواية ابن منده بسنده إلى عمرو بن حزم ولم يذكره غيره. ويبدو أن مجيء اسم «صِهْيون» في روايات

الإقطاع، وَهْمٌ من الراوي. أو أنه تعريف المكان الأصغر بالأشهر منه، وكثيراً ما يحدد القدماء أماكن القرى بأنها من قرى بيت المقدس، لأنها الأشهر، وتكون بعيدة عن القدس. وعندما أرادوا تحديد مواقع قرى الإقطاع قالوا: إنها (صِهْيون) أو من صهيون، وليس كذلك.

والمعروف في إحدى روايات الإقطاع عن ابن عساكر، أن حواراً دار بين تميم بن أوس وأخيه أبي هند، حول الأماكن التي سيطلبان إقطاعها من رسول الله ﷺ، وأن تميماً أشار، أن يسألوا رسول الله «بيت المقدس وكورها» فقال أبو هند: هذا محل ملك العجم، وكذلك يكون فيها ملك العرب، وأخاف أن لا يتم لنا هذا.. وصوّب الرسول عليه السلام رأي أبي هند عندما كشف لهم عن مكنون محاورتهم، وبذلك لم يتمّ إقطاع بيت المقدس.

■ بيت لحم: جاءَت في إحدى روايات ابن عساكر، ولفظها: أن تميماً قال: يا رسول الله، إن الله مظهرُك على الأرض كلّها فهب لي «قريتي من بيت لحم». فقال: هي لك، وكتب له بها كتاباً. وعلى هذه الرواية ملاحظتان:

١ ـ قوله «قريتي» بالإضافة إلى ياء المتكلم، ثم حدد قريته بأنها من بيت لحم، فقوله: من بيت لحم ربما كان من كلام الرواة الذين أرادوا تحديد قرية تميم أنها بالقرب من بيت لحم.. وهذا صحيح، لأن الأشهر أن تميماً كان يسكن قبل الإسلام في نواحي الخليل، وبيت لحم تقع إلى الشمال من حدود قضاء الخليل، وتبعد عن مدينة الخليل سبعة وعشرين كيلاً، بل هي قريبة من حدود قضاء

الخليل، ولعل الراوي أراد أن يعرّف قرية تميم فذكر أقرب الأماكن شهرة إلى قريته وهي بيت لحم. وقد تكون الرواية «قريتيّ» بصورة المثنى المنصوب بالياء، حُذفت منه النون لإضافته إلى ياء المتكلم. ومما يقوي هذه القراءة، أن كثيراً من الروايات ذكرت قطيعتين فقط، هما «حبرون ـ وبيت عينون».

٢ ـ قوله «من بيت لحم»: لعل الرواية كانت بيت (لخم) بالخاء المعجمة: ولهذا الاحتمال وجهان:

الأول: أن يكون الراوي وقع في وَهْمٍ وقع فيه بعض الجغرافيين والمؤرخين وأن «لحم» من (بيت لحم) بالخاء المعجمة، ظناً منهم أنها باسم قبيلة لخم، وتميم الداري من قبيلة لخم. وإذا صح لفظ «لخم» بالخاء المعجمة ـ كما عند ياقوت، فإنها لا علاقة لها بقبيلة لخم العربية وإنما اسم «بيت لحم» معناه بيت القوت والطعام والقمح، لأنها كانت تُدعى عند الكنعانيين «بيت الإله لاحاما» أو «لاخاما» وهذا الإله، هو إله القوت والطعام عند الكنعانيين، حيث كانت المدينة تقعُ في منطقة خصبة ترعى فيها المواشي وتنتشر فيها حقول القمح والشعير والكروم والزيتون. (وبيت لحم) بالآرامية معناه، بيت الخبز. والمدينة قديمة سُكنت حوالي سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد وأخذت شهرتها من مولد المسيح عليه السلام فيها.

الوجه الثاني من رواية «بيت لخم» بالخاء المعجمة، أن يكون معنى «بيت لخم» مسكن لخم، ولا يراد به المدينة المعروفة.. ولكن رواية الحاء المهملة هي الأقوى عند صاحب الرواية، لأن أبا عبيد القاسم بن سلام، في كتاب «الأموال» نقل هذه الرواية،

وشرح المراد من «بيت لحم» وأنها البلد التي ولد فيها المسيح عليه السلام.

هذا: وقد بنى الرومانُ في بيت لحم «كنيسة المهد» وقد زارها عمر بن الخطاب عندما حضر لفتح القدس، وأعطى أماناً لأهلها وصلى في كنيسة المهد، عند الحَنِيَّة القبلية، وفي رواية أنه صلى بالقرب منها، وبُني مكان صلاته مسجدٌ لا زال معروفاً.

■ بيت جبرين: جاء ذكرها في الرواية التي تقول: إن تميماً أشار على أخيه أبي هند أن يسألا رسول الله «بيت جبرين وكورها» ولكن أبا هند لم يشر بها لأنها كانت تضم قرى وأراضي أكثر اتساعاً من قُرى القدس، وخشيا ألا يتم لهما الإقطاع فعزفا عن طلبها.

وبيت جبرين قرية فلسطينية تقع شمال غربي الخليل على بُعْد ستة وعشرين كيلاً، وتعد أكبر قرى قضاء الخليل: وهي بلدةٌ قديمة تعود بتاريخها إلى جبابرة العمالقة، القبيلة العربية الكنعانية التي استقرت في فلسطين في فَجْر حياتها لأن معنى الاسم «بيت أو محلة الرجال الأقوياء الجبابرة» وكلمة جُبْرا، آرامية بمعنى القوة والشدة.

وفي العهد الروماني كانت عاصمة لأكبر مُقاطعة في فلسطين شملت قسماً كبيراً من أراضي أقضية غزة وبئر السبع والخليل والقدس والرملة وفي عام ٤٠ ق م هدمها الفرس الذين استولوا على فلسطين مدة وجيزة ثم أُعيد بناؤها عام ٦٨ ق م باسم «بيت جبرا».

وفي العهد العربي الإسلامي استولت عليها جيوش عمرو بن العاص بعد أن فُتحت له غزة وعمواس ويبنة.

وبعد الفتح كانت بيت جبرين تابعة لـ (جند فلسطين) ثم نزلها قوم من جُذام واتخذها الصحابي واثلة بن الأسقع مسكناً له. استولى عليها الصليبيون وأقاموا فيها قلعة حصينة تشرف على الطريق بين غزة وعسقلان من ناحية وبين الخليل من ناحية أخرى، وعُهد بحمايتها إلى الفرسان الأسبتارية من غارات أهل البلاد.. واستردها صلاح الدين بعد موقعة حطين وعندما جاءَت الحملات الأوربية بعد سقوط القدس، رأى صلاح الدين تدمير حصونها فدُمرتْ عام ١١٩١ م وأخيراً، أخرج السلطان بيبرس، الإفرنج منها عام ١٢٤٤ م.

وفي عام ٩٥٨ هـ - أيام الحكم العثماني - أُعيد تحصين بيت جبرين وقد بقيت هذه البلدة حتى سنة ١٩٤٨ م حيث تمكن اليهود من اغتصابها وتدميرها وإخراج أهلها.

وتضم بيت جبرين رفات الصحابي تميم الداري صاحب الترجمة، وكان يقع قبره في شمال بيت جبرين يحتوي على لوح رخامي منقوش عليه كتابة عربية في المقام.. وفي «الأنساب» للسمعاني أن بُرَير أخا تميم الداري لأمه سكن فلسطين أيضاً، وهو من الصحابة ومات ببيت جبرين. والله أعلم.

نقول: إن أقوى الروايات في هذا الإقطاع تلك التي ذكرت: حبرون، وبيت إبراهيم، وبيت عينون، والمرطوم، لأنها أماكن متجاورة في قضاء الخليل.

ونقول أيضاً: إنَّ تحققَ هذا لتميم بعد فتح الشام من دلائل نبوته ﷺ بعد وفاته، حيث بشّر بفتح الشام في أحاديث كثيرة ثم

أقطع فيها قبل فتحها، ثم فُتحت. وإن تميماً ما كان ليطلب الإقطاع لولا معرفته من ثقافته النصرانية، أن محمداً عليه السلام هو النبي الذي ينتشر دينه في الأرض. وما كان رسول الله ﷺ ليقطع أحد أصحابه أرضاً إلا وهو عالم بما يُوحى إليه: أن الإسلام سيصل إلى هذا الإقطاع، كما تحقق وعده أيضاً لسراقة بن مالك، بأن يلبس سواري كسرى ـ وقد تحقق ذلك بفتح فارس، وليست هاتان الحادثتان مما تحقّق بعد وفاته دليلاً على نبوته ﷺ فقط، فهناك الكثير من العلامات، فانظرها في (فتح الباري) من كتاب (المناقب) في باب «علامات النبوة في الإسلام» والله الموفق.

٦ ـ حكم إقطاع تميم الداري:

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الموطأ، لما تكلم على حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: هي صحيفة صحيحة، وإنما تركها مَنْ تركها لقولهم إنها غير مسموعة، وهذا لا يمنع من الاحتجاج. وقد كان عند أولاد تميم كتاب النبي في قطعة أَدَم.. فبقي ذلك في يده ويد أهله إلى أن غلب الإفرنج على القدس والخليل سنة ٤٩٢ هـ. وقد اعترض بعض الولاة على آل تميم أيام كنت بالشام سنة ٤٨٥ هـ، وأراد انتزاعها منهم.. (وذكر فتوى الغزالي (انظر الفقرة ك من الرقم ٢) وذكر القصة ابن العربي في كتاب «قانون التأويل» من فوائد الشيخ أبي حامد الغزالي؛ وقد سأله: ما قوله، فيما أقطع رسول الله تميماً الداري من الشام قبل أن يملكه الإسلام، ما وجه صحته مع أنه جرى قبل المِلْك ولم يتصلْ به للقبض، ولم يَجْرِ تحديد محل الإقطاع، هل يجوز للإمام أن ينزع

ذلك من يد آل تميم، ومتى يحصل الملك للمُقطع؟ فأجاب: ذلك الإقطاع صحيح لتميم، ومنتقل إلى أعقابه، ووقت حصول الملك عند تسليم الإمام المستولي على تلك الأرض له ذلك، ووجه صحته أن رسول الله كان مختصاً بالصفايا من المغنم.. فكان له أن يستثني بقعة من ديار الكفر عن ملك المسلمين ويعينها لبعض المسلمين فتصير ملكهم، ويكون سبب ذلك تسليم الإمام بأمر رسول الله ﷺ، وهي من التخصيصات قبل الاستيلاء، وليس ذلك لغيره من الأئمة، فإنه - ﷺ - كان مطلعاً بالوحي على ما سيملك في المستقبل، وعلى وجه المصلحة في التخصيص والاستثناء ولا يطلع غيره عليه.

وأما قول مَنْ قال: لا يصحّ إقطاعه لأنه قبل المِلْك: فهو كُفْر محض، لأنه يقال له: هل حلّ لرسول الله ما فعل، أو كان ظالماً بتصرفه ذلك؟ فإن جعله ظالماً كفر. وإن قال: بل حلّ له ذلك قيل: أفعلم أن ذلك يحصل أو لا؟ فإن جهَّلَه، كفر. وإن قال: إنه علم، لكن علم أنه لا يحصل، قيل له: فلا يبقى إلا أنه أقدم عليه مع علمه ببطلانه، فطيّب قلب مَنْ سأله، فلا يحصل له، وهذا محض الخداع والتلبيس، ومَنْ نسبه إلى ذلك فقد كفر.

وأما قوله: إن القبض لم يحصل، فهو مردود من وجهين: أحدهما: أن أفعاله ﷺ حجه، فهو كما لو وهب امرأة رجل لرجل آخر، فإنها تحرم على الأول، ويحمل على أنه أُوحي إليه أنها حُرّمتْ عليه وحلّت للآخر، بل الإقطاع المذكور نظير ما لو أقطع الإمام شخصاً من موات الأرض شيئاً فإن الإقطاع يصح، ولا يملكه المقطع في الحال، بل انما يملكه بالإحياء، والقبض ليس بشرط

في صحة هذا التخصيص. وأما الحدّ: فليس شرطاً في الصحة وإنما يشترط التسليم. . ا. هـ. قال أبو بكر: وفي كلام الغزالي ما يشير إلى أن ذلك من جملة وعوده ﷺ، ولم يَعدَّ ذلك أحد من الخصائص سواه.

وقال الشيخ السبكي (ت ٧٥٦ هـ): إقطاعات النبي ﷺ كانت في الموات. وقال الماوردي: إلا ما كان من شأن تميم الداري وأبي ثعلبة الخُشَني فيحتمل أن يكون أقطعهما إقطاع تقليد لا إقطاع تمليك، ويجوز أن يكونا مخصوصين بذلك، لتعلقه بتصديق خبر وتحقيق إعجاز. وقد فصل المقريزي أحكام هذا الإقطاع في مسائل فقال:

س ١: هل صحت دعوى الداريين العطية المذكورة؟.

جـ ـ الجواب: إن يدهم ثابتة ومستندها الآثار المتقدمة، فإن مجموعها يدل على أن لذلك أصلاً مع ما انضم إلى ذلك من شهادة الليث بن سعد أحد فقهاء الأمصار وعن غيره بأصل العطية.

س ٢: هل كانت على جهة الوقفية أم الهبة أم غيرها؟.

جـ : الجواب: إنه ليس في شيء من الآثار التصريح بالوقفية إلا ما في الأثر عن عمر رضي الله عنه أنه شرط عليه أن لا يبيع وأن يخرج ثلثاً في العمارة وثلثاً لأبناء السبيل، والذي يتحرر أن ذلك كان إرصاداً له ولذريته إلى آخر الدهر، فامتثل الأئمة ذلك إلى اليوم.

أقول: وقد جاء في الخبر الذي رواه محمد بن الربيع أن عمر

قال لتميم: ليس لك أن تستخدم أهلها ولا تبيع ولكن خراجهما لك. . (ضوء الساري ص ٧٩).

س ٣ ـ هل تقبل دعواهم أن البلدتين المذكورتين الموجودتين الآن هما المراد بما في العطية المذكورة؟

جـ ـ الجواب: إنه مهما كان بأيديهم فإنه يُحمل على أنه من العطية، ومهما كان ليس بأيديهم لم يُقبل أنه داخل من العطية إلا ببينة، لأنه يطرقه احتمال حدوث إحياء فيما يجوز فيه الإحياء مما كان خارج البلد ثم اتصل بها. . وتشمل العطية ما كان مبنياً أو مغروساً أو مسكوناً في وقت العطية.

س ٤ ـ هل يستحقون حكر جميع البلدتين حتى المغارة؟.

جـ ـ الجواب: أن الأصل استحقاقهم لذلك جميعه، ويستثنى ما كان من مساجد ومقابر المسلمين. . وأما المغارة التي فيها قبور الأنبياء فلا يحلّ لأحد المطالبة بحكرها، فإنها لم تدخل في العطية، لكون الخليل عليه السلام اشتراها لدفن أهله، فإن العطية وقعت على ما كان لا ملك فيه لمسلم ولا اختصاص فكيف إذا كان لنبي من أنبياء الله تعالى.

الفَصْلُ السَّادِسُ

مَنَاقِبُه وآثَاره

١ ـ خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا.

٢ ـ حديث الجساسة.

٣ ـ القاص الواعظ.

٤ ـ تواضعه.

٥ ـ صاحب الكرامات.

٦ ـ اختصاصه بإشارة آيات القرآن إليه [صاحب الجام ـ ومن عنده علم الكتاب].

٧ ـ كونه من جُمّاع القرآن وقُرّائه.

٨ ـ تدبره آيات الكتاب وقيام الليل ببعض آية.

٩ ـ راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين.

١٠ ـ مآثره في مسجد رسول الله ﷺ:

أ ـ أول مَنْ أسرج مسجد رسول الله.

ب ـ الإشارة بصنع المنبر النبوي.



١ ـ نكاد نجزم بأنَّ إسلام تميم الداري كان سنة تسع من الهجرة، منصرف رسول الله من تبوك، ذلك أن أكثر الروايات تشير إلى هذا الزمن. ومع قصر المدة التي عاشها تميم في العهد النبوي ـ وهو مسلم ـ فإن مناقبه ومآثره ومرات ذكره في مأثور الكلام كثيرة، لا تقل عن مناقب كثير من الصحابة الذين سبقوا تميماً إلى الإسلام.

ذلك، أن المناقب لا تُوهب، وإنما تكون من عمل صاحبها، حيث يؤهله تكوينه الثقافي والعقلي السابق، لمتابعة مناقبه الحميدة التي كان عليها قبل الدخول في المرحلة الجديدة، ولكن سلوكه الجديد يكون مُوجَّهاً بتعاليم الإسلام، بل مَنْ كان على مناقب حميدة في جاهليته يكون كفؤاً لإحداث مناقب جديدة بعد إسلامه. وقد قال ﷺ «تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[1]. قال شارحه ابن حجر العسقلاني رحمه الله: معناه تجدون الناس صوراً مختلفة. والمعادن: جمع

(١) رواه البخاري في كتاب «المناقب» باب/ ١.

مَعْدن، وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً. ووجه الشبه: أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه، ولا تتغير صفته، فكذلك صفةُ الشرف لا تتغير في ذاتها، بل مَنْ كان شريفاً في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم، استمرّ شرفه، وكان أشرفَ ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية. وأما قوله: إذا فقهوا: ففيه إشارة إلى أنَّ الشرف الإسلاميَّ، لا يتم إلا بالتفقه في الدين.. وقسّم الشارح الناس أربعة أقسام ثم قال: فأرفع الأقسام مَنْ شَرُف في الجاهلية. ثم أسلم وتفقه. ويليه: مَنْ كان مشروفاً ثم أسلم وتفقه ويليه مَنْ كان شريفاً في الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه ويليه مَنْ كان مشروفاً ثم أسلم ولم يتفقه. وأما مَنْ لم يسلم، فلا اعتبار به سواء كان شريفاً أو مشروفاً، تفقه أو لم يتفقه.

قال ابن حجر: والمراد بالخيار والشرف: مَنْ كان متصفاً بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفّة والحلم وغيرها، متوقياً لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها[1].

وتميم الداري ـ رضي الله عنه ـ كان في جاهليته نصرانياً متعمقاً[2] في فهم أسرار ما أنزل الله على عيسى عليه السلام، تشتاق نفسه إلى مزيد من المعرفة عن حقائق الدين الإلّهي، بل يتطلع إلى النبي والنبوة الخاتمة، التي تأتي بالقوانين المنظمة لحياة

---

(١) فتح الباري: ٦/٥٢٩.

(٢) نقل ابن حجر في «تهذيب التهذيب: ترجمة تميم الداري» عن قتادة: أن تميماً كان من علماء أهل الكتابَيْن.

الناس، على مستوى يتناسب مع ما وصل إليه الإنسان من الترقي العقلي والقدرة على تحمل التكاليف الإلّهية.

وعندما أكرمه الله بالإسلام، وجد فيه المنهل العذب الصافي الذي تتطلع إليه نفسه، واستمع إلى الكلام الإلّهي الصحيح الذي لم تلعب به أهواء القساوسة والرهبان، فعبّ حتى ارتوت نفسه المتعطشة إلى الحقّ، وظهر ذلك على سلوكه في الحياة، وسلوكه في طلب الآخرة. ولذلك، وجدنا في كتب التراجم، ومصنفات الأحاديث النبوية، ومرويات المأثورات الإسلامية، مناقب تميم الداري ومآثره، التي أثبتها له الرواة الصادقون..

ولا أقول إنني حصرتُ ـ في هذا الفصل ـ مناقب تميم ومآثره كلها، ولكنني ذكرتُ منها ما يدل على فضل صاحبنا، ويثبت حقّه علينا في الاحترام ورفع المقام، وما يُظهر لنا من حياته المثل والقُدوة، للاقتداء به طاقتنا.

وقد قال ﷺ: «أصحابي كالنجوم فبأيّهم اقتديتم اهتديتم»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «النجومُ أَمَنَةٌ للسَّماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوْعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهبتْ أصحابي أتى أمتي ما يُوْعَدون»[2].

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» رواه البيهقي، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ «أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم».

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب «بيان أن بقاء النبي ﷺ، أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة». ورواه أحمد جـ ٤/ ٣٩٨.

قال النووي في شرح «صحيح مسلم» قوله وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي: أي: من الفتن والحروب وارتداد مَنْ ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك. وقوله «وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي».. معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن.

أقول: وليس معنى ذهاب أصحاب رسول الله ﷺ موتهم فقط، لأن موتهم محققٌ لا محالة، وإنما المراد والله أعلم، ذهاب الأسوة بهم، والاقتداء بأفعالهم التي هي سنة تتبع سنَنَ النبي عليه السلام، فإن من أسباب تشرذم الأمة، وذهاب ريحها، أنها لم تقتد بأساتذة المدرسة الأولى من الصحابة، الذين تفرقوا في البلاد ونشروا سنة النبي ﷺ، قولاً بالرواية، وعملاً بالسير على سنّة رسول الله العملية، لتكون تربية عملية للأجيال.

٢ ـ وأول مناقبه وأعلاها، وأكثرها قدراً، ودلالة على منزلته، حيث تفرّد بها بين أصحاب رسول الله ﷺ: ما ذكره ابن حزم وغيره قال: «ولا نعلمُ أحداً روى عنه رسول الله ﷺ حديثاً حدّث به الناسَ، إلا تميماً الداري هذا، وحده»[١].

وقال ابن حجر في الإصابة: كان تميم نصرانياً وقدم المدينة فأسلم وذكر للنبي ﷺ قصة الجساسة والدجال، فحدّث النبيُّ ﷺ عنه بذلك على المنبر، وعُدّ ذلك من مناقبه.

وقال الإمام النووي ـ وهو يشرح حديث الجساسة في صحيح

(١) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم.

مسلم ـ: (قوله ﷺ عن تميم الداري: «حدثني أنه ركب سفينة» هذا معدود في مناقب تميم الداري، لأن النبي ﷺ روى عنه هـذه القصة، وفيه: روايةُ الفاضل عن المفضول، ورواية المتبوع عن تابعه، وفيه قَبُولُ خبر الواحد).

وحديث الجساسة، رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن فاطمة بنت قيس[1]، والإمام أحمد في مسنده (فاطمة بنت قيس) ورواه الطبراني في مسند تميم برقم (١٢٧٠)، وله طرق متعددة.

قـالت فاطمـة بنت قيس: سمعت[2] نداء المنـادي ـ منـادي رسول الله ﷺ ـ ينادي: الصلاةَ جامعةً[3] فخرجتُ إلى المسجد، فصليت مع رسول الله فكنتُ في صفّ النساءِ الذي يلي ظهورَ القوم[4] فلما قضى رسول الله صلاتَـه، جلسَ على المنبر وهـو يضحكُ، فقال: ليلزمْ كلُّ إنسانٍ مُصلاه ثم قال: أتـدرون لِمَ جمعتكم؟ قالوا: اللهُ ورسوله أعلمُ. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ، ولكن جمعتكم، لأنَّ تميماً الداريَّ، كان رجلاً

---

(١) فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفهرية أخت الضحاك بن قيس، كانت من المهاجرات الأُول، وكانت ذات جمال وعقل. كانت عند أبي بكر ابن حفص المخزومي، فطلقها، فتزوجت بعده أسامة بن زيد قال ابن حجر: وهي التي روت قصة الجساسة بطولها، فانفردت بها مطولة، قال: وقد وقفت على بعضها من حديث جابر وغيره، وسيأتي ذكر رواته في حاشية قادمة إن شاء الله.

(٢) في أول الحديث تروي قصة طلاقها وطلب نفقتها وعدتها.

(٣) الصلاةَ جامعةً: الصلاة: منصوبة بتقدير: الزموا. وجامعة: حال منصوبة، ويخطىء المؤذنون في أيامنا فيلفظونها مرفوعة.

(٤) تحديد مكانها في المسجد، للدلالة على قدرتها على السماع شفاهاً من رسول الله.

نصرانياً[١] فجاء فبايعَ وأسلمَ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنتُ أُحدّثكم عن مسيح الدجال. حدثني: أنه ركب في سفينةٍ بحريةٍ مع ثلاثين رجلاً من لخم وجُذام ـ وفي رواية لأحمد ـ أن نفراً من أهل فلسطين ـ فلعبَ بهم الموجُ شهراً في البحر، ثم ارفـؤا إلى جزيرة في البحر حين مغرب الشمس، فجلسوا في أَقْرُب[٢] السفينة فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابةٌ أَهْلَبُ[٣] كثيرُ الشَّعر، لا يدرون ما قُبُلُه من دُبُـره من كثرة الشعـر، فقالـوا: ويلكِ! ما أنتِ؟ فقـالت: أنـا الجساسةُ[٤] قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لمّا سَمّتْ لنا رجلاً، فَرِقْنا منها أن تكون شيطانةً، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأيناه قطُّ، خَلْقاً وأشدّه وِثاقاً، مجموعةً يداه إلى عنقه، ما بين رُكبتيه إلى كعبيه بالحديد قلنا: ويلك ما

---

(١) حرصتُ على إثبات حديث الجساسة، لأن فيه شيئاً من ترجمة تميم الداري، الذي وقفنا هذه الدراسة عليه.

(٢) أَقْرُب السفينة: هذه رواية مسلم. قال النووي: بضم الراء: سفينة صغيرة تكون مع الكبير كالجنيبة يتصرف فيها ركابُ السفينة لقضاء حوائجهم، والجمع: قوارب ومفرده قارِب بكسر الراء وفتحها. وجاء هنا «أقرُب» وهو صحيح لكنه خلاف القياس وقيل: المراد بأقرب السفينة: أخرياتها، وما قرب منها للنزول. وفي إحدى روايات الإمام أحمد (في قُوَيرب).

(٣) أهْلَب: بفتح الهمزة وسكون الهاء، وفتح اللام: معناها كثير الشعر. وذكّر الصفة، لأن الدابة تقع على الذكر والأنثى.

(٤) الجساسة: بفتح الجيم وتشديد السين المهملة الأولى، قيل: سميت بذلك لتجسسها الأخبار للدجال، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنها دابة الأرض المذكورة في القرآن.

أنتَ؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصَادَفْنا البحر حين اغتلم[1] فلعب بنا الموجُ شهراً، ثم أَرْفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقرُبها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابةٌ أَهْلَبُ كثيرُ الشعر، لا ندري ما قُبُلُه من دُبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك ما أنتِ؟ فقالت: أنا الجساسة، قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نَخْل بَيْسان[2] ـ وفي رواية لأحمد: ما فعل نخلُ بين عمّان وبيسان ـ قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبرُ؟ قال: أسألكم عن نخلِها هل يُثمر قُلنا له: نعم. قال: أما إنها يوشك أن لا تثمر قال: أخبروني عن بُحيرة طبرية؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هي كثيرةُ الماء، قال: أما إن ماءَها يوشك أنْ يذهب. قال: أخبروني عن عَيْن زُغَر. قالوا: عن أيِّ شأنها تستخبرُ؟ قال: هل في العين ماءٌ، وهل يزرع أهلُها بماءِ العين، قلنا: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها ـ وفي رواية الطبراني: أما إنه سوف يغور ماؤها ولا يحترث أهلها ـ قال: أخبروني عن نبيّ الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب قال: أقاتلْته العربُ؟ قلنا: نعم قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه ظهر على مَنْ يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إنّ ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه، وإني

---

(١) اغتلم البحر: هاج، وجاوز حدّ المعتاد. وقال الكسائي: الاغتلام: أن يتجاوز الإنسان ما حُدَّ له من الخير المباح.

(٢) سوف أعرف بالأعلام الواردة في الحديث بعد التمام من دراسته.

مخبركم عني: إني أنا المسيحُ[1] الدجّال، وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج، فأخرجَ، فأسيرَ في الأرض فلا أدعْ قريةً إلا هبطتها في أربعين ليلة، غيرَ مكة وطَيْبة فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردتُ أن أدخل واحدة منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيفُ صَلْتاً يصدّني عنها وإن على كل نَقْب منها ملائكةً يحرسونها.

---

(١) في معنى اسم المسيح: عيسى بن مريم، والمسيح الدجال أقوال، أوجز منها ما جاء في «لسان العرب» قال: والمسيحُ: الصدِّيق: وبه سُمّي عيسى عليه السلام قال: واللغويون لا يعرفون هذا، ولعله كان يستعمل في بعض الأزمان فدرس فيما درس من الكلام. قال الكسائي: قد درس من كلام العرب كثير. قال: والمسيح عليه السلام سمي بذلك لصِدقه، وقيل: سمي به لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقر، وقيل: لأنه كان يمسحُ بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله. أما المسيح الكذاب؛ الدجّال: فسمّي مسيحاً لأن عينه ممسوحة عن أن يُبصَر بها. وقيل: المسيح بن مريم، الصديق، وضد الصدّيق: المسيح الدجال، أي الضلّيل الكذاب، خلق الله المسيحين: أحدهما ضد الآخر، فكان المسيح بن مريم يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وكذلك الدجال، يحيي الميت، ويميت الحيّ وينشىء السحاب، وينبت النبات بإذن الله، فهما مسيحان: مسيح الهُدى، ومسيح الضلالة. ويقال: مسحه الله: أي خلقه خلقاً مباركاً حسَناً، ومسحه الله أي: خلقه خَلْقاً قبيحاً ملعوناً. . وجاء في الحديث: أما مسيح الضلالة. . فكذا. . فدل هذا الحديث على أن عيسى مسيح الهدى وأن الدجال مسيح الضلالة. انتهى كلام ابن منظور.

وقال مصطفى مراد الدباغ في كتاب «بلادنا فلسطين» ص ٦٥٠: المسيح أي الممسوح بدُهْن الكهنوت والملك، وهي تحريف لكلمة (مشيا) العبرانية التي كان يستعملها اليهودُ لقباً لملوكهم الذين كان يمسحهم رجالُ الدين بالدُّهن ليتولوا الملك، ولما كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح من جيل إلى جيل، استعملوا «مشيا ـ المسيح» للملك المنتظر أيضاً. وهذا يوافق قول الأزهري الذي نقله ابن منظور حيث قال: أُعرب اسم المسيح في القرآن على «مسح» =

قالت فاطمة بنت قيس: قال رسول الله ﷺ ـ وطعن بمخصرته في المنبر ـ هذه طيبة، هذه طيبة، يعني المدينة..

ألا هل كنتُ حدثتُكم ذلك؟ فقال الناس: نعم.

فإنه أعجبني حديثُ تميم، أنه وافق الذي كنتُ أُحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو[1]. وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظتُ هذا من رسول الله ﷺ».. وفي هذا الحديث فوائد جليلة أذكر منها ما يلي:

الفائدة الأولى: قال النووي في شرح صحيح مسلم «باب ذكر الدجال»:

«قال القاضي: هذه الأحاديث التي ذكر مسلمٌ وغيره في قصة الدّجال حجةٌ لمذهب أهل الحقّ في صحة وجوده، وأنه شخص بعينه، ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله

= وهو في التوراة «مشيحا» فعرّب وغيّر، كما قيل موسى، وأصله «موشى» والأقرب عندي أنه اسم معرّب، وليس بعربيّ.. وسمي المسيح الدجال بذلك، لشبه بينهما في الأفعال، مع الاختلاف في الهدف، فكلاهما أوتي المعجزات ولكن المسيح عيسى، كانت معجزاته لهداية الناس، والمسيح الدجال، لفتنة الناس وإضلالهم، أما كونه ممسوح العين، أو أعور العين اليمنى، وكونه قبيح الهيئة، فهذه صفات وضعها الله فيه لئلا يشتبه بالأنبياء، لأن الأنبياء مبرءون من النواقص الخِلْقية، ولتكون علامات يعرفه الناس بها، فلا يعتبروا بمعجزاته الضالة. والله أعلم.

(١) قال النووي: قال القاضي: لفظة ما هو، زائدة، صلة للكلام، ليست بنافية، والمراد إثبات أنه من قبل المشرق.

تعالى، من إحياء الميت الذي يقتُله، ومن ظهورِ زَهْـرةِ الدنيـا والخَصبِ معه، وجَنَّتِهِ وناره، ونهريه ـ نهرٍ من ماء، ونهرٍ من نار ـ واتباع كنوز الأرض له وأمرِه السماءَ أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كلّ ذلك بقدرة الله، ثم يُعجزه الله بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غَيْره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى عليه السلام، ويثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.

هذا هو مذهب أهل السنة وجميع المُحدّثين والفقهاء والنظار، خلافاً لمن أنكره وأبطل أمـره من الخوارج والجهميـة، وبعض المعتزلة، وخلافاً للجبائي من المعتزلة وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يُدّعى مخارفُ وخيالات لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقاً، لم يوثّق[1] بمعجزات الأنبياء.. قال القاضي: «وهذا غلط من جميعهم، لأنه لم يدّع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدّعي الإلٰهية، وهو في نفس دعواه مكذِّب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقْص صورته، وعَجْزه عن إزالة العَوَر الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرهـا لا يغترّ به إلا رعاعُ الناس لشدة الحاجة والفاقة رغبةً في سدّ الرَّمق أو تقية وخوفاً من أذاه، لأن فتنته عظيمة جداً تدهشُ العقولَ وتحيّر الألباب، مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكثُ بحيث يتأمل الضعفاءُ حالَـه ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه مَنْ يصـدقه في هـذه الحالـة. ولهذا

(١) لم يوثّق: بتشديد الثاء، أي: لم يعط من المعجزات ما يجعله مدعماً بـالحجج والبراهين على صدقه.

حذرت الأنبياءُ من فتنته، ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق، فلا يغترون به ولا يُخدعون لما معه، لما ذكرناه من الدلائل المكذِّبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله»[1].

وقد أثبتُّ ما نقله الإمام النووي، بطوله، لأن أحمد أمين ـ سامحه الله ـ ذكر في كتابه «فجر الإسلام»[2] «قصة الجساسة والدجال» بصورة توحي إلى القارىء أنها من قصص تميم الداري المُخترعة، أو من قصصه التي حفظها من كتب النصارى. فيقول: «وتميم هذا كان نصرانياً من نصارى اليمن[3] أسلم سنة تسع من الهجرة، وقد ذكر للنبي ﷺ قصة الجساسة والدجال، وكان يترهّب حتى قال عنه أبو نُعيم: إنه راهب أهل عصره، وهي نزعةٌ نصرانيةٌ بقيتْ عنده في الإسلام . . ».

ثم قال: «وتكاد الروايات تتفق على أنه أول قاص[4] ولم أقف على ما كان يقصه، ولكن نظرة في حديث الجساسة والدجال وفي أقوال له أخرى كثيرة منثورة، تدلنا على عقليته ونوع قصصه ومنحاه فيما يروي». وأوجز في الحاشية حديث الجساسة، بصورة تدل على الشك في روايته فقال «وحديث الجساسة فيما يذكرون أنَّ تميماً حدَّث أنه ركب في سفينة . . الخ». ولم يسنده إلى أحد رواة الأحاديث.

---

(١) شرح النووي على صحيح الإمام مسلم جـ ١٠ ص ٣٨٦، على حاشية شرح القسطلاني لصحيح البخاري.

(٢) فجر الإسلام ص ١٥٩.

(٣) وقد ثبت بالأدلة، أنه من عرب الشام في فلسطين، وأنه وفد على رسول الله من فلسطين وأن أصوله القديمة من القحطانية، وأخذ نصرانيته من الشام.

(٤) سيأتي عند الكلام على «تميم الداري القاص» بيان بطلان هذا القول.

وأسلوب أحمد أمين في عرض القصة، وجَعْلها دليلاً على عقلية تميم ومنحاه فيما يروي.. يدل على أنه ينكر ثبوت الأمر شرعاً بل يعدّه من القصص الوعظي. ويبدو أن الكاتب لم يطلع على كتب الأحاديث التي روتْ قصة الجساسة، ولذلك لم يشر إليها، أو أنه اطلع عليها وأغفل ذكرها تقيّة وجبناً من مواجهة المسلمين بما يرى لأن إثبات المصدر المسند، مع الشك فيما يُروى، معناه الشك في قيمة المصادر الحديثية، وهذا طعنٌ لا يقوى أحمد أمين على البوح به أمام جماهير المسلمين..

ونحن نقول: إن حديث الجساسة والدجال، روته جماعة من أهل الرواية والدراية ممن اتفقت الأمة على صدقهم، ولم ينفرد برواية الحديث الإمام مسلم عن فاطمة بنت قيس، وإنما رواه أيضاً عدد من الصحابة في مصادر حديثية أُخرى. وأنقل هنا كلام شيخ أهل الحديث ابن حجر العسقلاني حيث يقول «وقد توهم بعضهم أنه ـ أي حديث الجساسة ـ غريب فرد، وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس، أبو هريرة، وعائشة، وجابر بن عبد الله ـ أما أبو هريرة، فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله. وأخرجه أبو داود مُختصراً، وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة. وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن أبي هريرة قال: استوى النبيّ ﷺ على المنبر، فقال: حدثني تميم، فرأى تميماً في ناحية المسجد فقال: يا تميم، حدّثْ الناس بما حدثتني، فذكر الحديث.

وأما حديث عائشة، فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال:

ثم لقيت القاسم بن محمد فقال: أشهد على عائشة، حدثتني كما حدثتك فاطمة بنت قيس.

وأما حديث جابر: فأخرجه أبو داود بسند حسن من رواية أبي سلمة عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ، ذات يوم على المنبر أنه بينما أناسٌ يسيرون في البحر، فنفذ طعامُهم، فرُفعتْ لهم جزيرة، فخرجوا يريدون الخبز، فلقيتهم الجساسة، فذكر الحديث وفيه سؤالهم عن نخل بيسان»[1].

أقول: إن أحمد أمين ـ رحمه الله ـ يحذو في سلسلته (الفجر، والظهر.. الخ) حذو المستشرقين، في الاعتماد على المذهب العقلي، لنفي الشيء أو إثباته، ولا يقيمون لأسانيد المسلمين وزناً. وإذا كان المستشرقون يَفعَلون هذا لأنهم لا يؤمنون بعقيدتنا، أو لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، وتراثهم ورجالهم، فما كان لأحمد أمين أن يدخل جُحْر الضب الذي دخلوه، وهو يعلم، ولا بدّ أن يعلم بسوء نيّاتهم ويعلم أحمد أمين أن في العقيدة الإسلامية أموراً غيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد بصحتها، ولو لم توافق عقلنا القاصر، لأنَّ الذي أخبر بها، إما القرآن، كتاب الله، وإما محمد رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، ونقل إلينا هذه الأخبار أئمة أفذاذ، بطرق من نقل الكلام، لم يُوجد في الدنيا كلها مثيل لها. وقد اختص الله المسلمين أن هداهم إلى هذا الطريق من نقل الدين ولذلك يقول الإمام ابن حزم الأندلسي: «نَقْلُ الثقةِ عن

---

(١) فتح الباري، كتاب «الاعتصام بالسنة» باب /٢٣/.

الثقة حتى يبلغ النبيَّ ﷺ مع الاتصال، خصَّ اللهُ به المسلمين دون سائر الملل، وأما مع الإرسال والإعضال[1]، فيوجد في كثير من اليهود، ولكن لا يقربون من موسى قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً، وإنما يبلغون شمعون ونحوه وأما الطريق المشتملة على كَذّاب أو مجهول العين فكثير من نقل اليهود والنصارى، وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبيّ أصلاً ولا إلى تابع له ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص». ويقول المستشرق الألماني سبرنجر «لم تكن فيما مضى أُمةٌ من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم»[2] وقد انتدب المسلمون أنفسهم لذلك، لخدمة دينهم، فقد أخرج الإمام مسلم عن ابن المبارك قوله «الإسناد من الدين، لولا الإسناد، لقال مَنْ شاء، ما شاء»[3].

أقول: لقد استشرت آراء أحمد أمين التي نشرها في كُتبه حتى أصبحت مَرَضاً مستوطناً عند الباحثين الكسالى في زماننا، فيأخذون بما يرويه ويقوله دون تحقيق. وجلّ ما يريد أن يثبته ويسعى إليه

---

(١) المرسل: ما سقط من سنده الصحابي. والمعضل: ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي.
(٢) أضواء على التاريخ الإسلامي، لفتحي عثمان ص ١٣٦.
(٣) قواعد التحديث، من فنون مصطلح الحديث/ لجمال الدين القاسمي ص ٢٠١.

الرجل ـ من تأثير مدرسة الاستشراق ـ القول بتأثير الثقافة اليهودية والنصرانية في آراء المسلمين وحياتهم، ولم يسلم الصحابة من مطاعنهم هذه، بل كثيراً ما يلمحون بهذا إلى حياة الرسول وأقواله ـ كذبوا ـ ولذلك يقول في «ضحى الإسلام»: (ويظهر أن ثقافة تميم الداري النصرانية قبل الإسلام كانت واسعةً حتى عُدّ ممن ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ ومَنْ عنده علم الكتاب ﴾ وهذه جعلته ـ بعد الإسلام ـ يحدّث بروايات وقصص عن الجساسة والدجال وإبليس وملك الموت والجنة والنار. وكان له أثرٌ كبير من هذه الناحية في علم الشام بل وفي علم المسلمين عامة)[1]. وسوف نرى بطلان قولهم بالأخذ عن الأديان السابقة[2]، عند الكلام على عبادة تميم الداري، ووصفه بأنه «راهب عصره».

الفائدة الثانية: من حديث الجساسة: في القصة دليل على أن إسلام تميم الداري كان بعد غزوة تبوك، وأنه وفد على رسول الله في المدينة، لأن المكان الذي سمعت فيه فاطمة بنت قيس وغيرها، هذا الخبر من رسول الله، كان في المدينة، فذكرت المسجد، والمنبر، والمناداة بأن الصلاة جامعة وهذا كله كان في المدينة.. وفي رواية أبي يعلى: أن الرسول عليه السلام رأى تميماً في ناحية المسجد ـ وهو مسجد المدينة، بل في القصة دليل قويّ على ذلك، لأنهم أخبروا الدجال بهجرة الرسول إلى المدينة وظهوره على مَنْ حوله من العرب وطاعتهم له، وكان ذلك قبل إسلام تميم، ولأن

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ /٩٧.

(٢) وانظر كتابنا «المدينة في العصر الأموي» وقد فندنا فيه رأي أحمد أمين القائل، بأن أبا ذر الغفاري أخذ آراءه الاقتصادية من عبد الله بن سبأ اليهودي.

نقل رسول الله ما أخبره به تميم كان بعد إسلام تميم دون تأخير، حيث قال: (إن تميماً بايع وأسلم، وأخبرني . .) وفرحة رسول الله بخبر تميم جعلته يُسرع بإخبار المسلمين به، في إثر سماعه من تميم الداري.

الفائدة الثالثة: في القصة دليل على أن أخبار الدعوة الإسلامية كانت تصل إلى العرب في بلاد الشام، لأنهم أجابوا الدجال عن سؤاله عن حال نبيّ الأميين، بأنه هاجر إلى المدينة وأن قومه قد اتبعوه وآمنوا به بعد أن قاتلوه.

الفائدة الرابعة: في القصة دليلٌ على البيئة التي كان يعيش فيها تميم ورهطه اللخمويون والجذاميون ـ ركاب السفينة ـ وهذه البيئة هي فلسطين لأن إجابتهم عن حال طبرية ونخل بيسان وعين زُغر كانت إجابة العارف بها، ولا يعرف هذه الأماكن إلا مَنْ جاس خلالها ورآها، ونظر إليها عن قرب.

الفائدة الخامسة: في الحديث دليل على حرمة مكة والمدينة وكونهما باقيتين على مرّ الزمان مأوى للمؤمنين ومئرزاً للإيمان، حيث لا يستشري الضلال فيهما مهما تلبدت سحب الضلالة في عالم المسلمين، وقد ثبت على مرّ التاريخ الإسلامي أن الحرمين لم يكونا يخلوان من الجوار الآمن المؤمن في أشد أوقات المسلمين حُلكة، حيث يرضى المؤمنون بالقليل من العيش ويصبرون على اللأواء، وهم يستمتعون بحلاوة الإيمان ويرتوون من الجوار القدسي، وذلك استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام لمكة المكرمة، ودعوة محمد عليه السلام للمدينة المنورة.

الفائدة السادسة: وعدتُ القارىء أن أقدم له لمحة جغرافية وتاريخية عن الأماكن التي وردت في سياق القصة، وهذا وقت الوفاء بما وعدت:

■ بَيْسان: مدينة فلسطينية من أقدم مدن فلسطين، تقع في غور الأردن وتنخفض مائة وخمسين متراً عن سطح البحر، ولذلك تكون صالحة لزراعة النخيل بسبب مناخها الحار صيفاً.

تقع على مسافة ٣٨ كيلاً جنوب طبرية، وتبعد عن القدس ١٢٧ كيلاً وعن جنين ٣٣ كيلاً. وكان الدجال قد سأل عن نخيلها، وكانت صالحة لزراعة النخيل في القديم. يقول ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ: وتوصف بيسان بكثرة النخيل، وقد رأيتها مراراً فلم أر فيها غير نخلتين حائلتين، وهو من علامات خروج الدجال.

فتح العرب المسلمون بيسان سنة ١٣ هـ على يد عمرو بن العاص أو شَرَحْبيل بن حسنَة. قال ياقوت: وينسب إليها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، وزير صلاح الدين، والمتحكم في دولته وصاحب البلاغة والإنشاء التي أعجزت كل بليغ، وفاق بفصاحته وبراعته المتقدمين والمتأخرين، وتوفي بمصر سنة ٥٩٦ هـ.

أخذ الأعداء الصِّهْيونيون بيسان في ١٩٤٨/٥/١٢ م وطردوا سكانها ودمروا بيوتها وبنوا على أنقاضها مدينة جديدة دعوها (بيت شان) وهو الاسم الكنعاني القديم.

■ طبرية (البحيرة) بحيرة طبرية، جزء من مجرى نهر الأردن في الشمال الشرقي من فلسطين، يأتي إليها نهر الأردن من الشمال ويصب فيها ويخترقها، ويخرج منها متجهاً نحو الجنوب، سُميت باسم مدينة طبرية التي تقوم على شاطىء البحيرة الغربي، نسبة إلى الأمبروطور الروماني «تايبريوس» الذي أسسها سنة ٢٢ م ويطلق على البحيرة اسم «بَحْر الجليل» أحياناً لوقوعها في الطرف الشرقي لإقليم الجليل الفلسطيني. وهي ذات شكل بيضي غير منتظم يُشْبه الكمثرى. تبلغ مساحتها ١٦٥ كم٢ وأكبر طول لها ٢٣ كيلاً وأعظم عرض لها ١٤ كيلاً، ويتدرج انخفاض مستوى سطح مائها من ٢٠٩ ـ ٢١٤ م دون سطح البحر. وتقع أعمق أجزاء البحيرة على مستوى ٢٥٤ م دون مستوى سطح البحر في وسط البحيرة. استولى عليها الأعداء مع مدينتها طبرية سنة ١٩٤٨ م، وكان شاطئها الشرقي مع سورية ثم لحق بغربيه سنة ١٩٦٧ م.

وفي سنة ١٩٦٤ م انتهى الأعداء من تنفيذ مشروع نهر الأردن ـ النقب لضخ مياه بحيرة طبرية إلى النقب، وهذا يؤدي إلى غور مائها وهو من علامات خروج الدجال.

وإياها كان يعني المتنبي عندما مدح أحدهم(١) ويصف الأسد:

أمعفّر الليثَ الهِزَبْرَ بسوطه
لمن ادخرتَ الصارمَ المصقولا

---

(١) يمدح بدر بن عمار.

وقــعــتْ عــلى الأردن مــنــه بَــليّــةٌ
نُضِــدت لهــا هــامُ الــرِّفــاق تُلُولا[1]

وَرْدٌ إذا وَرَدَ الــبــحــيــرةَ شــاربــاً
ورد الــفــراتَ زئــيــره والــنــيــلا[2]

■ زُغَر: بوزن زُفر، أو عين زُغر، كانت تقع على شاطىء البحر الميت الجنوبي الشرقي. ذكرها ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧ هـ. وياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ. أما الآن، فلا وجود لها، وتقع آثارها في ديار شرقي الأردن. قيل: إن لوطاً سكنها بعد أن حلّ بقومه ما حلّ.

قال ياقوت: كانت في وادٍ وخم رديء من أشأم بقعة إنما يسكنه أهله لأجل الوطن، وقد يهيج فيهم في بعض الأعوام مرض فيُفني كلَّ مَنْ فيه أو أكثرهم.. وغور ماءِ زُغر من علامات قيام الساعة كما جاء في حديث الجساسة.

■ عمّان: جاء في بعض الروايات سؤال الدجال عن النخل بين عمان وبيسان، وعمان: بفتح العين وتشديد الميم هي عاصمة الأردن اليوم.

---

(١) قوله: وقعت على الأردن.. لأن طبرية كانت من جند الأردن في التقسيمات الإدارية القديمة.
(٢) وردٌ: الورد: الذي يضرب لونه إلى الحمرة، ويريد به الأسد. والبحيرة: هي طبرية.

٣ - تميم الداري القاصّ الواعظ:

أ - قال ابن منظور: القصة: الخبر، وهو القَصَصُ. وقصَّ عليَّ خبره، يقصّه، قصاً وقصصاً: أورده. والقصص: الخبر المقصوص - بالفتح - وضع موضع المصدر، حتى صار أغلب عليه. والقِصص: بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب.

وقال: القصة: الأمر، والحديث. واقتصصت الحديث: رويته على وجهه. يقال: قصصتُ الرؤيا على فلان: أي: أخبرته بها والقصُّ: البيان. والقاصّ: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.

فالقصة إذن: ترادف الخبر. والخبر يحتمل الصدق والكذب - بغض النظر عن قائله - بل وفي الأخبار ما هو صادق وما هو كاذب، بحسب نيّة الراوي، وبحسب الوقوع أو عدمه.. وكذلك القصة. وبهذا فإن القصة والتاريخ يتفقان في الموضوع وقد يختلفان في أسلوب الأداء.

ب - وكانت العرب في الجاهلية تعرف القصص - أي الإخبار عما حدث في الماضي - وهو باب كبير من أبواب أدبهم. من ذلك: قصص أيام العرب التي تدور حول الوقائع الجريئة التي وقعت في الجاهلية بين القبائل، كيوم الفجار، ويومِ داحس والغبراء وغيرها. وكانت هذه القصص موضوع العرب في سمرهم في جاهليتهم وقد قيل لبعض أصحاب رسول الله: ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كنا نتناشدُ الأشعار ونتحدث بأخبار جاهليتنا. ومن قصصهم ما يتحدث عن الوفاء، كقصة شريك مع المنذر، وأنه أتاه

في يوم بؤسه فأراد المنذر قتله.. الخ[1] وعرفت العربُ في الجاهلية قصصاً عن أخبار الفرس، وكانوا يروونها ويتسامرون بها، فقد جاء في سيرة ابن هشام[2] أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله ويَنْصُبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أخبار ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله مجلساً فذكر الله، وحذّر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه، فهلمَّ إليّ فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: نزل فيه ثمان آيات من القرآن: قول الله تعالى: ﴿إذا تُتْلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين﴾ وكلّ ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

ولم يكن لقصصهم من هدف إلا التسلية أو التفاخر، لنقل تراث الآباء إلى الأبناء.

جـ ـ وعندما نزل القرآن على محمد ﷺ، كانت القصة أحد أساليبه في الدعوة إلى التوحيد، والترغيب في الخير، والترهيب من الكفر ونبذ ما كان عليه الجاهليون من عادات مرذولة.. وكانت أحداث القصة القرآنية تدور حول سيرة الأنبياء عليهم السلام وما لاقوه من أقوامهم، ومصير الأقوام المعاندين. قال تعالى: ﴿وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرُّسُل ما نثبّتُ به فؤادَك، وجاءَك في هذه

---

(١) انظر الأغاني جـ ١٩/ ٨٧.

(٢) تهذيب السيرة ص ٦٩.

الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ وقال تعالى: ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبْرةٌ لأولي الألباب ﴾.

وقد أجمل الأستاذ سيد قطب أهداف القصة في القرآن فقال: «سيقت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية بحتة، وقد تناولت هذه الأغراض عدداً وفيراً يصعب استقصاؤه لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية.. فإثبات الوحي، وإثبات وحدانية الله، وتوحيد الأديان في أساسها، ومظاهر القدرة الإلّهية، وعاقبة الخير والشرّ، والصبر والجزع والشكر والبطر وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، قد تناولته القصة وكانت أداة إليه، فإذا نحن استعرضنا أغراض القصة القرآنية، فإنما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها ونترك استقصاءَها وتتبعها»[1].

وجاءَت القصة أيضاً في الأحاديث النبوية، وكان موضوعها نماذج بشرية من الأمم الماضية، هدفها الموعظة[2].

فالقصة في القرآن والحديث إذن كانت الإخبارَ بحوادث وقعتْ، فيها موعظة للناس، وإن شئت فقل: هي التاريخ يُعرض بأسلوب جذاب يأسر الألباب.

د ـ ولكن القصة والقاصّ، قد اتخذا مَفْهوماً وشكلاً جديدين فيما بَعْدُ ـ وإن بقيا على الهدف الأصلي وهو التوجيه ـ حيث أصبح

(١) التصوير الفني في القرآن.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ٣/٤٠ قصة المرأة القصيرة. وج ٦/١٧ ـ قصة الملك والساحر. وجـ٢/٣٨٥.

يُطلق القاصُّ، على صاحب الموعظة، ويُراد بالقصة: التذكير والوعظ، وأصبح للقاص مجلسٌ يتحلق فيه حوله الناس ويستمعون إليه، وكأن هذا الإطلاق، من باب إطلاق الشكل على الهدف، حيث يكون الغرض من إلقاء القصة هو الموعظة، أو الموعظة عن طريق القصة، أو يكون من باب إطلاق جزء الشيء على كله، لأن الموعظة لا بد أن تتخللها القصةُ، حيث تميل النفس بطبعها إلى سماع القصة، لإثبات أن الموعظة ليست نظرية صعبة التطبيق، وإنما هي أمرٌ حاصل من نماذج بشرية. ولذلك عُدت القصة من أقوى الوسائل التعليمية.

هـ ـ وقد بدأت مجالسُ الذكر والموعظة التي يُطلق على صاحبها اسم «القاص» منذ العهد النبوي، فقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله على قاص يقصّ، فأمسك، فقال رسول الله: «قُصَّ، فلأن أقعد غُدوةً إلى أن تشرقَ الشمسُ أحبُّ إليّ من أن أُعتقَ أربع رقاب، وبعد العصر حتى تغربَ الشمسُ، أحبُّ إليّ من أن أُعتق أربعَ رقاب»[1].

وروى الإمام أحمد عن رجل من أهل بدر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحبُّ إليّ من أن أُعتق أربع رقاب». قال أحمد: يعني القصص. وقال شعبة: فقلت: أي مجلس يعني، قال: كان قاصاً[2].

---

(١) المسند، ج/ ٥/٢٦١. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وعزاه لأحمد والطبراني في الكبير، قال: ورجاله موثقون، إلا أن فيه أبا جعد عن أبي أُمامة، فإن كان هو الغطفاني، فهو من رجال الصحيح، وإن كان غيره لم أعرفه.

(٢) المسند جـ ٥/٣٦٦.

و ـ ولكن القصص والموعظة، لم تكن مباحةً لكل إنسان، وإنما هي مقصورة على وليّ الأمر، أو مَنْ ينيبه عنه، وجاءَت الأحاديث النبوية تقيّد صاحب الحقّ في موعظة الناس، فقال ﷺ: «لا يقصُّ إلا أميرٌ أو مأمورٌ أو مراءٍ»(١). قال: فقلت له ـ يقول الراوي ـ إنما كان يبلغنا «أو متكلِّف» قال: هكذا سمعت النبي ﷺ يقول.

وعن عوف بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقصُّ إلا أميرٌ أو مأمور أو مختال»(٢).

قال المنلا عليّ القاري في شرح «المشكاة»: القصص: التكلم بالقصص والأخبار والمواعظ(٣). وقيل: المراد به الخطبة خاصة. وقال غيره: القصص: التحدث بالقصص، ويستعمل في الوعظ: يريد: مَنْ يعظهم، إما أميرٌ أو مأمور، أو يجوز لهما الوعظ. أما مختال يعظ لطلبه الرياسة والتكبر، فلا يُقبل هذا في الخطبة، فالأمر فيها إلى الأمراء، أو إلى مَنْ يتولاها مِن قِبَلهم.

ونقل ابن منظور في «اللسان» بعد إيراده الحديث السابق: أي لا ينبغي ذلك، إلا لأمير يعظُ الناسَ ويخبرهم بما مضى ليعتبروا وإما مأمور بذلك، فيكونُ حكمه حكم الأمير، ولا يقص مكتسباً أو يكون القاص مختالاً يفعل ذلك تكبراً على الناس أو مرائياً يرائي الناس بقوله. وعليه، لا يكون وعظه وكلامه حقيقةً. وقيل: أراد الخطبة،

---

(١) المسند جـ ٢ / ١٨٣.

(٢) المسند جـ ٦ / ٢٧، قال الهيثمي: وإسناده حسن.

(٣) التراتيب الإدارية للكتاني جـ ٢ / ٣٣٦.

لأن الأمراء كانوا يلونها في الأول ويعظون الناس فيها، ويقصون عليهم أخبار الأمم السابقة.

ز ـ ومن هنا نفهم لماذا كان عمر بن الخطاب، يمنع القصاص من القصّ في المسجد ويحذرهم من ذلك، فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة أن عمر بن الخطاب، مرّ بقاص فقال: ما أنت؟ قال: قاصّ. قال: كذبتَ، إنما يقص على الناس أمير أو مأمور، فخفقه بالدرة، وقال: ما أنت؟ قال: مُذكّر، قال: كذبت، قال الله تعالى: ﴿ فذكرْ إنما أنت مذكّر ﴾. ثم خفقه بالدرة، فقال: ما أنت؟ قال: ما أدري ما أقول! قلتُ: قاص، فرددت عليّ، وقلتُ: مذكّر، فرددتَ عليّ، فقال: قل: أنا أحمق مراءٍ متكلف.

ورُوي أيضاً عن ابن عمر قال: خرج عمر بن الخطاب إلى المسجد، فرأى حِلَقاً في المسجد فقال: ما هؤلاء؟ فقالوا: قُصّاص، فقال: وما القُصاص؟ سنجمعهم على قاص واحد، يقص لهم في يوم سبتٍ مرةً، إلى مثلها من الآخر، فأُمّر تميم الداري رضي الله عنه.

وروى ابن شبة: أن رجلاً استأذن عمر رضي الله عنه في القصص فقال: وددت لو أنك رُفعت إلى الثريا ثم رُمي بك إلى الأرض فإياك وإياه، فإنه الذِّبح.

فالمنع والتحذير، سببه والله أعلم، أن الموعظة إنما تكون بتكليف من الأمير إن لم يكن الأمير نفسه، حتى لا يتولاها مَنْ لا يعرف القول الصحيح من القول السقيم، فيضل الناس معه. ويؤيد هذا رواية الطبراني، أنَّ تميماً استأذن عمر في القصص فأبى أن

يأذن له ثم استأذنه فأبى أنْ يأذن له ثم استأذنه فقال: إن شئت وأشار بيده يعني الذبح.

ولذلك قال الليثُ بن سعد: القصص نوعان: قصص العامة، وقصص الخاصة، فأما قصص العامةِ، فهو الذي يجتمع إليه الناسُ يعظهم ويذكرهم، ويقصُّ عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى ونحو ذلك، لا يعتمدُ فيها على الصدق، بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب قال: فذلك مكروهٌ لمن فَعله، ولمن استمعه[1].

وأما قصص الخاصة: فهو الذي جعله معاوية، ولّى رجلاً على القصص، فإذا سلّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله وحمده ومجّده، وصلى على النبي ﷺ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وجنوده، ودعا على أهل حَرْبه، وعلى المشركين كافة[2].

ح ـ فالقاص، إذن، أصبح وظيفة، يُعيّن لها الخليفةُ، أو الأميرُ مَنْ يجد فيه الكفاءة لذلك، وقد ورد في الأخبار ما يؤيد ذلك فقد جاء في تاريخ ابن شبة عن نافع قال: كان قاص الجماعة يقصّ فيحلق حلقة، حول القاسم بن محمد، ولا يدخل معهم في قصصهم. وهنا نجد اصطلاح «قاص الجماعة». وروي أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً وهو بالمدينة أن يقصَّ على الناس،

---

(١) جاء في الحديث «القاص ينتظر المقت» لما يعرض في قصصه من الزيادة والنقصان ومنه الحديث «إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا» أي: اتكلوا على القول وتركوا العمل، فكان ذلك سبب هلاكهم (عن لسان العرب).

(٢) خطط المقريزي جـ ٢/٢٥٣.

وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عَبد الملك، جعل له ستة دنانير كل سنة.

ورأينا قبل ذلك، أن عمر بن الخطاب جمع القُصّاص على قاصٍ واحد، ولكن لا نعلم، إن كان ذلك مقابل عطاء خاص، أو كان تطوعاً. وأصبح فيما بَعْدُ من الوظائف التي ترافق الجنود في الحرب، كالذي يكون في أيامنا، حيث يُعين الوعاظ في الجيوش، وقد جاء في مسند الإمام أحمد، في سند الحديث «حدثنا عمرو بن الحارث عن بكير بن عبد الله أن يعقوب أخاه، وابن أبي حفصة حدثاه أن عبد الله بن يزيد، قاص مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية حدثهما عن عوف بن مالك قال[1]:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقص على الناس إلا أمير أو مأمور أو مختال».

ومسلمة بن عبد الملك، هو القائد الأموي الذي كان يقود الجيش لغزو القسطنطينية. وقوله: قاصّ مسلمة: يريد أنه مرافق له في حربه.

ط ـ وقد جاء في روايات متعددة أن أول مَنْ قصَّ تميم الداري في زمن عمر بن الخطاب. فقد روى ابن عساكر قال: وكان تميم أول من قص على الناس بأمرٍ من عمر. وروى ابن شبة قيل للحسن البصري: متى أحدث القصص؟ قال: في خلافة عثمان،

---

(١) مسند أحمد جـ ٦/٢٧. قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان قاصاً لمسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وكذا ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق.

فقيل: مَنْ أول مَنْ قصَّ قال: تميم الداري. وإذا صحت هذه الأخبار، فإنها تُحمل على أن أول مَنْ قصَّ بعد رسول الله ﷺ أو أول رجل بدأ يقص في عهد عمر هو تميم، ولم يسبقه في عهد عمر أحدٌ من أهل القصة[1].

وقول الحسن: أُحدث القصص في زمن عثمان: معناه كَثُر في أيامه، حيث يُروى أن عثمان وسّع في الإباحة فجعل للقصة يومين أو ثلاثة أيام وربما كثر القصاص ولم يقتصر الأمر على تميم الداري.

وروى ابن شَبّة: أنه لم يكن يُقص في زمن النبي ولا أبي بكر ولا عمر، وإنما كان القصص حديثاً أحدثه معاوية، حين كانت الفتنة..

ويحمل هذا على إرادة القاص الخاص الذي يلازم الأمير، أو القاص الذي يوجه قصته لأهداف تخدم وجهة رأي الأمير. حيث يروي ابن تيمية في منهاج السنة، أن بدء التلاعن بين المعسكر الشامي والمعسكر العراقي، أن أحد طرفي النزاع، بدأ يلعن أعداءَه بعد الصلاة ففعل الطرف الثاني كما فعل الأول[2]، وعرفنا قبل قليل أن الذي يقوم بالدعاء بعد صلاة الصبح، هو القاص الخاص للأمير.

---

(١) ويؤيد هذا الرأي ما رواه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن تميماً استأذن عمر في القصص سنين ويأبى عليه فلما أكثر عليه قال: ما تقول: قال: أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر قال عمر: ذاك الربح ـ من ربح يربح ـ ثم قال: عظ قبل أن أخرج للجمعة. (ترجمة تميم).

(٢) روى المقريزي في كتاب «المواعظ والاعتبار» ١٢٠/٣: أن علياً رضي الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه، فبلغ ذلك معاوية، فأمر رجلاً أن يقصّ بعد الصبح وبعد المغرب، يدعو له ولأهل الشام، وكان ذلك أول القصص.

ي - ونصِلُ بعد هذه الجولة إلى القول: إن تميماً الداري، ربما كان القاص الأوحد في عهد عمر بن الخطاب، وقد رأينا سابقاً أن عمر منع كل قاص غير تميم، وجمع الناس على قاص واحد، هو تميم الداري. وتشير روايات أخرى إلى أن عمر أذن لتميم في القصة بعد أن أكثر عليه في الطلب، فقد نقل المقريزي أن تميماً استأذن عمر أن يذكر الله مرة فأبى عليه، ثم استأذن أخرى فأبى عليه، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر يوم الجمعة، قبل أن يخرج عمر رضي الله عنه.

ونقل لنا ابن عساكر الملامح العامة لما كان يقوله تميم في مجلسه فقال: وكان يقرأ عليهم القرآن ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر. قال: وجلس إليه عمر مرة مع ابن عباس، فسمعه يقول: اتقوا زلة العالم(١) فكره عمر أن يسأله(٢)، فقال لابن عباس: إذا فرغ فاسأله، فلما فرغ تميم قام يصلي، وكان يطيل الصلاة، ثم إن ابنَ عباس أتاه فسأله: ما زلة العالم، فقال: يزل بالناس، فيؤخذ به، فعسى أن يتوب منه العالم، والناس يأخذون به.

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء: رواه العسكري والديلمي عن عمرو بن عوف مرفوعاً بزيادة «وانتظروا فيئته» وهو كما قال المناوي: ضعيف، إن لم يكن موضوعاً. لكنه بمعنى ما رواه ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً «إن أشد ما أتخوف على أمتي ثلاثة: زلةُ عالم، وجِدالُ منافقٍ بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم، فاتهموها على أنفسكم».. ورواه ابن المبارك في الزهد عن عبد الله ابن جعفر أنه قال: قيل لعيسى: يا روح الله وكلمته: مَنْ أشدّ على الناس فتنة، قال: زلةُ عالمٍ إذا زل، زل بزلته عالم كثير. قال: والمشهور على الألسنة «زلة العالِم، زلةُ العَالَم».

(٢) وفي رواية: فكره عمر أن يسأله عنه، فيقطع بالقوم، وحضر منه قيام..

ك ـ ولكن لماذا اشتهر تميم الداري في باب القصة بمعنى الموعظة، وكونه أول مَنْ قصَّ ولماذا ألحَّ على عمر رضي الله عنه ليسمح له بالقصص؟ أقول ـ وبالله التوفيق ـ إن ذلك موافق لما عرفنا، ونعرف عن شخصية تميم الداري، بل عن سجيته التي فطره الله عليها، وما عرفناه عن مكونات شخصيته المكتسبة. وما يكون المكتسب إلا موافقاً للطبع والسجية التي فُطر عليها الإنسان.

فتميم الداري، مهيؤ بطبعه لئن يكون قاصاً واعظاً، لأننا عرفنا عنه ميله الشديد إلى العبادة والإكثار منها والتفرغ لها، ولذلك وصف بأنه «راهب عصره، وعابد أهل فلسطين».

وكأنه لاحظ انصراف الناس بعد الصلاة المكتوبة إلى أعمالهم الدنيوية، فأراد أن يطيل مدة اتصالهم بالمسجد، بل ربما كان يرى أن التعامل الاجتماعي في السوق والشارع ـ لكي يكون إسلامياً ـ لا بدَّ أن يحمل المسلم بين ضلوعه شحنة من الروادع والنواهي، وشحنة من المرغبات في عمل الخير. . نعم: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. . ولكنها قد تصبح عادة، ولا بدَّ أن يتزود رواد المسجد للصلاة المكتوبة جماعة، بكمية من الدوافع والعواطف التي تزيد من تذكيرهم بالله الذي عبدوه، وجعلوا صلاتهم له. ومن هنا نفهم قول الرسول عليه السلام للقاص: «فلأن أقعد غُدوةً إلى أن تشرق الشمس، أحبُّ إليَّ من أن أُعتق أربع رقاب، وبعد العصر حتى تغرب الشمسُ أحبُّ إليّ من أن أُعتق أربع رقاب»[1].

فقد اختار رسول الله مقامين: الأول في بداية النهار، لتزويد

---

(١) رواه أحمد في المسند جـ ٥/٢٦١.

المسلم بالموعظة التي تصاحبه عامة النهار. والثاني: بعد صلاة العصر، لتزويده بالموعظة عامة الليل، فالمسلم إذن محتاج إلى مَنْ يذكره بربه، لتكون أعماله دائماً موجهة للّه. وهذه الرقائق التي ينثرها القاص على مستمعيه، هي زاد إيماني يجعله متصلاً بربه ولا يُستبعد أن يكون هذا هو هدف تميم عندما منعه عمر، فألح عليه فقال: إنَّ لي فيه نيّة، وأرجو أن أوجر فيه؛ فنيّة تميم الداري رضي الله عنه، ترقيق القلوب وربطهم بالله تعالى.. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم، يشكون من انشغالهم عن الآخرة، في زمن رسول الله ﷺ والوحي يتنزل، ولم تُقبل الدنيا على المسلمين بَعْدُ، فكيف صار الحال بعد أن فُتحت البلاد، وانهال الخير على المسلمين.. روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، قُلنا يا رسول الله: إنّا إذا رأيناك رقّتْ قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال: لو تكونون على كلّ حالٍ على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفّهم ولزارتكم في بيوتكم.. الحديث»[1].

وتميم رضي الله عنه مؤهل لأن يكون قاصاً واعظاً بسبب علمه الذي جمع بين رقائق الإنجيل وبين فقه الإسلام، وكان على اطلاعٍ واسع بأخبار الأمم الماضية وقصص الأنبياء، لأنه كان نصرانياً عالماً بما في الكتب السابقة. فقد روى قتادة في قوله تعالى: ﴿ ومَنْ عنده علم الكتاب ﴾ قال: منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري.

---

(١) المسند جـ ٢/٣٠٥.

ورويْنا سابقاً أن تميماً الداري، كان من علماء أهل الكتابَيْن.

وكان تميم الداري رضي الله عنه، من حفظة القرآن المداومين على تلاوته فقد أخرج ابن سعد، أن رسول الله قُبض، ولم يجمع القرآن من أصحابه إلا أربعةُ نفر كلهم من الأنصار، والخامس يختلف فيه فالنفر الذي جمعوه من الأنصار: زيد بن ثابت، وأبو زيد ومعاذ بن جبل وأبيُّ بن كعب، والذي يُختلف فيه: تميم الداري.

وكان أُبيٌّ يختم القرآن في ثماني ليالٍ وتميم يختمه في سبع.

فقد كان تميم إذن صاحب ثروة علمية، وصاحب ثروة إيمانية يؤهلانه للوعظ والإرشاد والقصّ، وقول الرقائق التي تلين القلوب وتديم اتصالها بالله. وتميم الداري، أحد رواة الحديث النبوي الشريف الذي يقول «إنما الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله، قال: للّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم». وفي لفظ «إن الدين النصيحة كررها ثلاثاً». وسيأتي تخريجه وشرحه في مسنده؛ وكونه أصلاً من أصول الإسلام.

ل ـ بقيت كلمة، لا بدّ من قولها حول القصة والقاصّ، حيث نجد في كتب الحديث تحذيراً من القصة والقاصّ، بل نجدّ ذماً وقدحاً في أخلاقهم ومروياتهم، وألف العلماء الكتب والرسائل في ذمهم. فما السبب في ذلك؟ الجواب: إن الطابع القويم الذي انتهجه القصاصون الأوائل لم يلتزم به مَنْ خلفهم بعد ذلك من القصاصين، فأُصيبت القصة الوعظية على أيديهم بفسادٍ كبير وانحرفت عن طريقها السوي، ودخلت في القصة الأكاذيب والأحاديث الموضوعة، واكتنفتها الإسرائيليات والخرافات، وذلك

بدوافع عديدة منها: التكسّب، والرغبة في الإغراب، وإرضاء الحكام، والنزعات المذهبية والصوفية، وأحياناً يكون الكذب غير متعمد بسبب الجهل بعلم الرواية.

ولذلك نجد الإمام مسلم يحذّر من روايات القصاص، والصالحين، فروى في مقدمة صحيحه عن عاصم قال: «لا تجالسوا القُصّاص».

وعن يحيى بن سعيد القطان قال «لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث». وفي رواية «لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث» قال مسلم: يعني أنه يجري الكذبُ على لسانهم ولا يتعمدون الكذب.

وقال النووي: لكونهم لا يعانون صناعة أهل الحديث فيقع الخطأ في رواياتهم ولا يعرفونه ويروون الكذب ولا يعلمون أنه الكذب[1] ولكنّ آخرين من القصاص، يتعمدون الكذب للتكسب، ولذلك يقول ابن قتيبة في كتابه «تأويل مختلف الحديث» معدداً أسباب وضع الأحاديث:

والوجه الثاني: القصاص، فإنهم يُميلون وجه العوام إليهم ويستجدون ما عندهم بالمناكير والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعودُ عند القاصّ ما كان حديثُه عجيباً خارجاً عن نظر المعقول، أو كان رقيقاً يُحزن القلب، فإذا ذكر الجنة قال: فيها الحوراءُ من مسكٍ أو زعفران، وعجيزتُها ميلٌ في ميل، ويبوىء الله

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي ص ١١٣.

وليّه قَصْراً من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون ألف مقصورة في كل مقصورة سبعون ألف قُبّة، فلا يزال في السبعين ألفاً لا يتحول عنها»[1].

وروى ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات» أن أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين صليا في مسجد الرُّصَافة، فقام بين أيديهم قاصٌ فقال:

حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ مَنْ قال لا إله إلا الله، خَلَق اللهُ من كلّ كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشُه من مرجان، وأخذ في قصته نحواً من عشرين ورقة فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين، وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد بن حنبل فقال له: أنت حدثتَه بهذا؟ فقال: والله ما سمعتُ هذا إلا الساعة، فلما فرغ من قصصه وأخذ الأعطيات ثم قعد ينتظرُ بقيتها، قال له يحيى بن معين بيده، تعال، فجاء متوهماً لنوالٍ، فقال له يحيى: مَنْ حدثك بهذا الحديث فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فقال: أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله، فقال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمقُ وما تحققتُ إلا الساعة، كأنه ليس

(١) المقاصد السنية في الأحاديث القدسية، وما أضيف إليها من الحكايات الوعظية والأشعار الزهدية لعلي بن بلبان المقدسي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ بتحقيق ـ مستو ـ والخطراوي. وفي الكتاب نماذج من القصص الوعظي يمثل الانحراف بالقصة عن جادة الصواب.
وانظر «لسان الميزان» لابن حجر جـ ١٣/١.

في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما!! وقد كتبتُ عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين[1].

م ـ ومع ذلك بقيتْ قلةٌ قليلةٌ من أهل القصة ممن سار على النهج الصحيح وقد وضع العلماءُ شروطاً للقاص، وموضوع القصة، ليكون كلام القاص مقبولاً.

قال الكتاني في «التراتيب الإدارية»[2] بعد أن أثبت وجود القصة في زمن رسول الله ﷺ، وكون القصة موكلة بالأمير أو مَنْ يكلفه الأمير: (ولا ينافي أحاديث الترجمة ما جاء عن بعض السلف من إنكار القصة وذم القاصين، فقد جاء في كتاب «الإحياء»[3] بعد أن ذكر أن الحسن البصري كان يتكلم في قصصه في علم الآخرة، والتذكير بالموت، والتنبيه على عيوب النفس، وآفاتِ الأعمال، وخواطر الشيطان، وَوَجْه الحذر منها، ويذكّر بآلاء الله ونعمائِه، وتقصير العبد في شكره، ويعرف حقارة الدنيا وتصرفها وقلة عهدها، وعظم الآخرة وأهوالها..

قال الغزالي: فهذا هو التذكير المحمود شرعاً. ثم تكلم الغزالي على الذين نقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق التذكير المحمود، واشتغلوا بالقصص التي يتطرق إليها الاختلاق والزيادة والنقصان، وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها.

---

(١) الموضوعات، لابن الجوزي ١/٤٦.
(٢) جـ ٢/٣٣٧.
(٣) للإمام الغزالي.

وقال: من القصص ما ينفعُ سماعُه ومنها ما يضر سماعُه وإن كان صادقاً، فالقصص المحمودة: ترجع إلى ما يشتملُ عليه القرآن وإلى ما صح من الكتب الصحيحة من الأخبار.

وقد رُوي أن عمر بن الخطاب بلغه أن قاصاً يقصّ بالبصرة، فكَتب إليه ﴿ الر تلك آياتُ الكتاب المُبين، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصص ﴾ فعرف الرجل فتركه.

ورُوي أن ابن عباس مرّ على عُبيد بن عُمير وهو يقص فقال:

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾ الآية ﴿ واذكر في الكتاب إدريس ﴾ ذكرْنا بأيام الله، وأثنِ على مَنْ أثنى الله عليه.

قال الكتاني: قال الزبيدي في «الإتحاف» لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن الحافظ لحديث رسول الله ﷺ، العارفُ بصحيحه من سقيمه وسنده ومقطوعه ومنفصله العالم بالتواريخ وسير السلف الحافظ لأخبار الزهّاد، الفقيه في دين الله، العالم بالعربية واللغة، ومدار كل ذلك على تقوى الله وأن يُخرج الطمع في أموال الناس من قلبه)[1].

ن ـ وبناءً على ما تقدم فإننا ندعو دور النشر في ديار الإسلام ألا تنشر كتاباً من كتب التراث إلا بعد تحقيقه وتخريج ما فيه من الأحاديث والحكايات، والحكم عليها، لئلا يعتمد عليها القارىء ويظن أن كل ما فيها صحيح، وقد درج القُراء في عصرنا على

---

(١) التراتيب الإدارية ـ للشيخ عبد الحي الكتاني جـ ٢/٣٣٨.

تقديس الحرف المطبوع والوثوق فيما تنقله الكتب، وبخاصة الكتب القديمة، فيأخذون منها ويعملون بما جاء فيها، ولا أخص كتب الحديث، فكتب الأحاديث المعروفة أكثرها مخرّج وموثوق وأقل ما فيها من الأحاديث الضعيفُ، ويعمل به في فضائل الأعمال. ولكنني أقصد كتبَ الأدب والتاريخ، والسيرة، فهي عامرة بالأحاديث وأخبار الصحابة والتابعين ولم يكن من شرط مؤلفيها التزام صحة النقل، بل كان هدفهم جمع الروايات دون تحقيق، وترك الأمر للقارىء ليحقق السند والمتن[1].

كما أننا ندعو الوعاظ ألا يعتمدوا في موعظتهم إلا على الكتب الموثوقة وهي كثيرة، وبعضها مشروح، كالبخاري ومسلم، وألا يعتمدوا على الأحاديث الواردة في كتب التفاسير والتاريخ إلا إذا كانت مخرجة معزوة إلى راويها من أصحاب الكتب الموثوقة.

ص ـ كما أننا نحذّر من الربط بين القصص القرآني والنبوي، وبين القصص الأدبي الحديث، لأن القصص القرآني والنبويّ، تاريخ حقيقي صادق، لا أثر للفنّ فيه إلا من حيث العرض المشوّق الجذاب، أما القصص الأدبي، فيعتمد أكثره على الكذب الفني، وأكثر شخصياته وحوادثه مختلقة، لا أساس لها من الواقع التاريخي، إلا كونها شخصيات وحوادث مشابهة لنماذج من الشخصيات والأحداث الإنسانية، ويجب أن يتنبه لهذا دارسو الأدب

---

(١) من أمات الكتب الأدبية التي يكثر فيها الحديث وأخبار السلف «الأغاني» لأبي الفرج، وهو رأس الضلال. وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان للجاحظ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه. . وجل مروياتها لا يعتمد عليها إلا بعد التحقيق، لأنها موصوفة بالكذب والتلفيق.

عندما يدرسون تاريخ القصة في الأدب العربي.

٤ ـ تميم الداريّ المتواضع:

وتميم الداري رجلٌ متواضع حَسَنُ العشرة مألوف من أهله ومن الناس، يتتبع سنَّة رسول الله ﷺ ويرغب في كل ما رغّب فيه، ويسعى وراء ثواب الآخرة. فقد روى الطبراني عن رَوْح بن زنباع الجُذامي قال: دخلت على تميم الداري، وهو أمير على بيت المقدس، وهو ينقّي لفرسه شعيراً، فقلت: أيها الأمير، أما كان لك مَنْ يكفيك هذا قال: لا[1]، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نقّى لفرسه شعيراً ثم قام به، حتى يعلّقه عليه، كتب الله بكل شعيرة حسنة».

ورواه ابن ماجه بلفظ «مَنْ ارتبط فرساً في سبيل الله ثم عالج علفه بيده، كان له بكل حبة حسنة».

ورواه الإمام أحمد في مسنده، مع اختلاف يسير في اللفظ واتحاد في المعنى.. وهو مؤيد في معناه بأحاديث صحيحة، منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) هكذا جاءَت في رواية الطبراني (قال: لا) وهو جواب لاستفهام منفي (أما) والمعروف أن جواب الاستفهام المنفي، بلى في الإثبات، (ونعم) في النفي.
وفي رواية أحمد (قال تميم: بلى) فرواية الطبراني تنفي وجود مَنْ يقوم مقامه في اجتناء الثواب، لأن ثواب العمل لفاعله، ولذلك فهو يقول بعدها: (إنّي) أما رواية أحمد، فهو يثبت، ثم يستدرك، يعني يوجد من يكفيني المؤونة، ولكنني أريد الثواب وإذا صحت رواية الطبراني، فإنها تنقض القاعدة النحوية التي تجعل جواب الاستفهام المنفي بـ «نعم» في النفي و«بلى» في الإثبات.
أو أنه يجوز الوجهان.

«من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[1].

٥ ـ تميم الداري صاحب الكرامات[2]:

روى أبو نُعيم في «دلائل النبوة» عن معاوية بن حَرْمل قال: «قدمتُ المدينة فذهب بي تميم الداري إلى طعامه، فأكلت أكلاً شديداً وما شبعت من شدة الجوع، وقد كنتُ أقمتُ في المسجد ثلاثاً، لا أطعم شيئاً، فبينا نحن ذات يوم، إذ خرجتْ نارٌ بالحرة، فجاء عمر إلى تميم فقال: قمْ إلى هذه النار، فقال: يا أمير المؤمنين ومَنْ أنا، وما أنا، فلم يزل به حتى قام معه. قال: وتبعتهما فانطلقا إلى النار، فجعل تميم يحوشها بيده هكذا حتى دخلت الشِّعْب ودخل تميمٌ خلفها، وجعل عمرُ يقول: ليس مَنْ رأى كمن لم ير».

ونقل ابن حجر في «الإصابة» قال: وروى البغوي في الصحابة قصة لتميم الداري مع عمر، فيها كرامةٌ واضحة لتميم وتعظيمٌ كثير

---

(١) البخاري كتاب الجهاد كتاب ٥٦/ باب ٤٥.

(٢) الخوارق على أربعة أقسام: فإن ظهرت لرسولٍ قبل بعثته، سُميت إرهاصاً أي: تأسيساً للرسالة، وإن ظهرتْ لرسولٍ بعد البعثة، سُميت معجزة، وإن ظهرت لمؤمن ظاهر الصلاح، ولم يدّع النبوة، سميت كرامة، وهو ما يُسمى كراماتِ الأولياء. وإنما قلنا: لمؤمن ظاهر الصلاح، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء. أما الأولياء، فيخطئون، ولكنهم سرعان ما يهرعون إلى التوبة.

وإن ظهرت الخوارقُ لمن ظاهره الفسْق، كانت استدراجاً، حيث يُملي الله تعالى له، فيتمادى في غَيّه، حتى إذا أخذه الله، كان أخذه له شديداً.

ونحن نؤمن بوجود الكرامة، إلا أننا نلحّ في إثبات صحتها بالسند الصحيح، لأن الخرافة قد شاعت وانتشرت، فيجب تمييز الكرامة عنها بالنقل الصحيح.

من عمر له، وفيها عن معاوية بن حَرْمل قال: قدمت على عمر فقلت: يا أميرَ المؤمنين، تائبٌ من قبل أن يُقدر عليّ. فقال: مَنْ أنت، فقلتُ: معاويةُ بن حَرْمِل[1] خَتَن[2] مسيلمة الكذاب، قال: اذهب فانزل على خَيْر أهل المدينة، قال: فنزلت على تميم الداري، فبينا نحن نتحدث إذْ خرجتْ نار بالحرة حتى قال: ثم قام فحاشها ـ أي النار ـ حتى أدخلها الباب الذي خرجت منه، ثم اقتحم إثرها، ثم خرج فلم تضرّه.

(١) معاوية بن حرمل الحنفي، صهر مسيلمة. قال ابن حجر: وكان مع مسيلمة في الردة ثم قدم على عمر تائباً. . ولكن كيف يقدم تائباً في عهد عمر من خروجه مع مسيلمة، وكان مسيلمة قد انتهى أمره سنة ١٢ هـ في عهد أبي بكر، وقد انتهى المسلمون من تطهير الجزيرة من المرتدين في عهد أبي بكر؟ فأين كان في هذه المدة. وقوله: قدم تائباً: هل الردة عن الإسلام يعقبها (توبة) أم يعقبها إسلامٌ، للدخول في الإسلام؟ أقول: لعلّ معاوية كان قد فعل ذنباً بعد نهاية مسيلمة، ولم تكن توبته من الردّة.

(٢) الختن: بفتح الأول والثاني: كل مَنْ كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، وزوج الابنة. ويذكرون هذه الكلمة في تاريخ بداية اللحن عند العرب. فقالوا: إن رجلاً دخل على عبد العزيز بن مروان ـ أمير مصر ـ يشكو صهراً له فقال: إن خَتَني فعل بي كذا وكذا فقال له عبد العزيز: مَنْ خَتَنَك: بفتح النون، فعل من الختان. فقال له: ختنني الذي يختن الناس فقال عبد العزيز لكاتبه: ويحك بم أجابني فقال له: أيها الأمير إنك لحنت ـ وهو لا يعرفُ اللحن ـ كان ينبغي أن تقول: ومَنْ خَتَنُك ـ برفع النون ـ فقال عبد العزيز: أراني أتكلم بكلام لا يعرفه العرب، لا شاهدتُ الناس حتى أعرف اللحن، فأقام في البيت جمعةً لا يظهر، ومعه من يعلمه العربية، فصلى بالناس الجمعة وهو من أفصح الناس. .

والقصة يبدو فيها التلفيق، فكما كان من أهل الوعظ من يلفق القصص ويضع الأحاديث، كان أيضاً المعلمون الذين يضعون القصص عن أول وجود اللحن، وينسبونه إلى فُصحاء القوم. . ومثل هذا اللحن الذي ذكروه لا يقع =

وروى القصة البيهقي في «دلائل النبوة» في باب «ما جاء من الكرامة التي ظهرت على تميم الداري شرفاً للمصطفى ﷺ، وتنويهاً باسم مَنْ آمنَ به».

ونقلها أيضاً «السمهودي» في كتاب «وفاء الوفا» عند حديثه على نار الحجاز. ورواها أيضاً ابنُ كثير في «الشمائل» وغيره.

وتواردُ الرواةِ على ذكر القصة، يوحي بوقوعها، وإن لم تكن إحدى طرقها تصل إلى درجة الصحيح، فهي على كل حال ليست من القصص الموضوعة ولهذا فإننا لا ننكر وقوعها، لتوارد الرواة من أهل العلم على ذكرها، ولأن إثبات الكراماتِ لغير الصحابة جائز، فكيف بصحابة رسول الله ﷺ، وكراماتهم تعدّ امتداداً لمعجزات الرسول عليه السلام، الدالة على نبوته. ولذلك ذكرها أبو نُعيم الأصبهاني من دلائل النبوة، لأنها جرت على يدي أصحاب رسول الله. وعدّ البيهقي ظهور هذه الكرامة على يدي تميم شرفاً للمصطفى، وتنويهاً باسم مَنْ آمن به. وهو والله كما قالوا، فالصحابة رضوان الله عليهم، شهد الله لهم في كتابه وعظّم قدرهم رسول الله في حديثه، وتتابع الناسُ على كونهم خيارَ أمةِ محمد ﷺ.

= فيه طالب مدرسة في أيامنا، لأن رفع جزئي الجملة الاسمية بالضمة من ألف باء النحو العربي، ولو حصل هذا في هذه اللفظة، فإنما يكون زلقة لسان لمجاورة الفتحة على التاء للضمة التي يجب أن تكون على آخر الاسم وللشبه الشديد بين لفظي الفعل والاسم في «خَتَن» وبخاصة في حالة النصب فنقول: إنَّ ختنك زيدٌ فتنصب، وتقول: ختنك الطبيبُ فتفتح النون لبناء الفعل على الفتح.

فقال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجتْ للناس﴾ والصحابة أخص الناس بهذا الذكر. وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبُك اللهُ ومن اتبعك من المؤمنين﴾. وثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أحدٍ ذهباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه».

وتواتر عنه ﷺ قوله: «خيرُ الناس قرني ثم الذين يلونهم» وقد شهرت كراماتٌ ظهرتْ على يد عددٍ من صحابة رسول الله ﷺ: منها ما أخرجه البيهقي، وأبو نُعيم في «دلائل النبوة» عن نافع عن ابن عمر قال: وجّه عمر بن الخطاب جيشاً ورأس عليهم رجلاً يُدعى سارية، فبينما عمرُ يخطبُ، جعل ينادي: يا ساريةُ الجبل ثلاثاً. ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمرُ فقال: يا أمير المؤمنين هُزمنا، فبينا نحن كذلك، إذ سمعنا صوتاً ينادي: يا ساريةُ الجبل، ثلاثاً، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله. قال: قيل لعمر، إنك كنت تصيح بذلك. وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم. قال ابن حجر في الإصابة إسناده حسن.. وهناك كرامات أُخرى ذكرها الرواة لعمر، فانظرها في كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص ١٢٥.

ومن كرامات الصحابة ما رواه أبو نُعيم في الدلائل، وابن سعد في الطبقات عن أبي هريرة قال: لما بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، تبعتُه فرأيتُ منه خصَالاً ثلاثة لا أدري بأيتهن أعجبُ! انتهينا إلى شاطىء البحر، فقال: «سموا الله، واقتحِموا، فسمينا واقتحمنا، فعبرنا وما بلّ الماءُ إلا أسفل خفاف

إبلنا.. وذكر بعدها كـرامتين». وفي طبقات ابن سعـد: «رأيته قـطع البحر على فرسه يوم دارين»[1].

ومنها قصة سفينة مولى رسول الله، وقد ركب البحرَ، فانكسرت سفينته ورُمي به إلى أجمة فيها أسـد.. وأخرجهـا الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم..

ولكن، لنا عند كرامة تميم وَقْفة، حيث تقول الرواية: «خرجتْ نار بالحرة» يعني أنها التي تكون من البراكين، وقد جاء في الحديث الصحيح «لا تقوم الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز، تضيءُ أعناق الإبل ببُصرى»[2] وثبت بالتواتر أنَّ هذه النار قد ظهرت سنة ٦٥٤ هـ في شرق المدينة النبوية[3] فيما يسمى الحرة الشرقية، بالقرب من بحيرة العاقول على يمين الذاهب إلى مطار المدينة.

واتفق العلماء على أنها هي التي وافقت ما جاء في الحديث. ولم ينقل أحدٌ أن ناراً بركانية حدثتْ في عهد عمر، وإلا لعدّها العلماء هي التي تكون تحقيقاً لنبوءَة النبي ﷺ، لأنهـا ستكون الأسبق. والدليل على أن النار التي أطفأها تميم، نارٌ بركانية، أنه

---

(١) أقول: لكن البحرين، المذكورة في كرامة العلاء بن الحضرمي، ليست البحرين المعروفة اليوم، وإنما كانت تطلق على المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. و«دارين» المذكورة في رواية ابن سعد، تكون بالقرب من القطيف من شرق السعودية وهي جزيرة في البحر ـ في الخليج ـ وهناك تتسع مساحة الجزر والمدّ، فإذا حصل الجزر قلّ الماء، بل قلّ عمق الماء في الطريق إليها. وانظر كتابنا «المعالم الأثيرة في الحديث والسيرة».

(٢) البخاري ك ٩٢/ باب ٢٤.

(٣) انظر «فتح الباري» جـ١٣/ ٧٩ و«وفاء الوفا» للسمهودي جـ١/ ١٤٢.

قال: خرجت نارٌ بالحرة، وقوله: حتى دخلت الشِّعْب، ودخل تميم خَلْفها، وهذا الوصف ينطبق على نار البراكين، لأنها حمم ملتهبة تخرج من الأرض سائلة كالماء.. ولو كانت ناراً مما يحدث في البيوت، ما انطبق عليها هذا الوصف.. ولكن مما يعكّر هذا التفسير أن يقال: إن النار التي أخبر عنها رسول الله، تضيءُ أعناق الإبل ببصرى وهذا يعني أنها تكون كبيرة وواسعة، أما النار التي خرجت زمن عمر فليست كذلك، ولا ينطبق عليها حديث رسول الله، والله أعلم.

وكرامة تميم هذه مع النار، تشبه كثيراً قصة خالد بن سنان العبسي، الرجل الصالح الذي كان في الجاهلية، ووفدت ابنته على رسول الله ﷺ وقال لها «هذه ابنة نبيّ ضيعه قومه»[1] وكانت علامة صلاحه أو نبوته، إطفاء نار تخرج من نار أو بئر ـ وهي نار بركانية ـ ودخل وراء النار يسوقها بعصاه.. والله أعلم.

أقول: إن كرامة تميم الداري، وغيرها من كرامات الصحابة رضوان الله عليهم، نكاد أن نجزم بوقوعها، لتوارد الأخبار بوقوعها، ولأن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بها، ولا يحفظ عن أحد من العلماء مخالفة الرواة فيما حكوه من ذلك، ولا الإنكار عليهم، فيكون الساكت منهم كالناطق ولأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل، وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكارٌ أو طعن على بعض مَنْ روى شيئاً من ذلك، فإنما هو من جهة توقف في صدق الراوي أو تهمته بالكذب، أو توقف في ضبطه ونسبته إلى سوء

(١) انظر «الإصابة لابن حجر» ترجمة خالد بن سنان.

الحفظ أو جواز الغلط، ولا يُوجد من أحدٍ منهم طعنٌ في المرويّ كما وُجد منهم في غير هذا الموضوع من الأحكام والآداب ونحو ذلك. وإذا كُنّا قد صدقنا هؤلاء العلماء والرواة فيما قبله العقل من الأخبار والأحكام، فإنَّ علينا أن نصدقهم فيما اجتمعوا عليه من الأخبار التي لا يقبلها عقل بعضنا، ويقبلها عقل الآخرين.. وكيف نرضى عنهم ونرفعهم إلى مقام الفهم الرفيع والعقل المتبحر في مواضع، ونهبط بهم إلى أدنى مستوى من العقل في مواضع أخرى؟.. ولو أردنا أن ننكر كل ما لا يرضاه عقلنا، لكان علينا أنْ ننكر كثيراً من مخترعات العصر التي تُروى لنا أخبارُها، ولم تصلْ إلينا بَعْدُ، ولا نظنُّ أنها ستصل إلينا، لأنها أسرار علمية يحتفظ بها أهلها لأنفسهم.. كنا لا نصدق أن يطأ إنسان سطح القمر، ثم صدقنا، وكنا لا نصدق وصول الصوت والصورة إلينا من مكان بعيد (التلفاز) ثم صدقنا، وعندما تتابعت إلينا المخترعات التي كنا ننكر وجودها، انتفى الإنكار من قاموسنا، فأصبحنا نقول بجواز وقوع الشيء وإن لم نره ولم نجربه..

أقول: لو أننا تعمقنا في أسرار الشريعة كما تعمق علماؤنا الذين نقلوا إلينا أخبار الكرامات، ولو أننا ذُقنا حلاوة الإيمان والعبادة كما ذاقوا، لآمنا بما يكون للمؤمن العابد التقيّ من الكرامات في المأزق الحرج والتي يكون فيها خيرٌ للناس.. وصحابة رسول الله ﷺ قمة الإيمان والعبادة والصدق بعد رسول الله ﷺ، فإذا أردت أن تصدق بكراماتهم، عش حياتهم، وروض نفسك على سلوكهم، تجد أن الإيمان بالله يصنع الكرامات.

٦ ـ تميم الداري صاحب الجام ـ ومَنْ عنده علم الكتاب:

ومن آثاره المأثورة، كونه ذُكر في سبب نزول آيتين من كتاب الله تعالى.. أما الآية الأولى، فهي من سورة المائدة [١٠٦ ـ ١٠٨] وقد بوّب البخاري رحمه الله في كتاب الوصايا [ك/٥٥/ باب ٣٥] فقال: بـاب قول الله عزّ وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم، إذا حضر أحدكم الموتُ حينَ الوصيةِ، اثنان ذوا عَدْلٍ منكم أو آخران من غيركم، إن أنتم ضَرَبتم في الأرض فأصابتكم مُصيبةُ الموت، تَحْبسونهما من بَعْد الصلاة، فيُقسمانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثَمَناً ولو كان ذا قُرْبى، ولا نكتمُ شهادةَ اللهِ، إنَّا إذاً لمن الآثمين، فإنْ عُثِر على أَنّهما استحقا إثماً، فآخَران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأَوْليان، فيُقسمان بالله لشهادتُنا أحقُّ مِنْ شهادتِهما، وما اعتدينا، إنَّا إذاً لمن الظالمين ذلك أدنى أنْ يأتوا بالشهادة على وَجْهها، أو يخافوا أنْ تُردَّ أيمانٌ بَعْد أيمانهم، واتقوا الله واسمعوا، والله لا يَهْدي القومَ الفاسقين ﴾[١].

---

(١) المعنى: ضربتم في الأرض: سافرتم. تحبسونهما: أي: تقفونهما وتصبرونهما للحلف. الأوْليان، مثنى الأوْلى، أي: الأحقّ بالشهادة، لقرابتهما، ومعرفتهما.

إعراب بعض المفردات: شهادة: مبتدأ. بينكم: مضاف إليه. اثنان: خبر المبتدأ (شهادة) ذَوَا: صفة. الأوْليان: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما الأوليان أو: فاعل استحقّ.

المعنى الإجمالي: يخاطب الله المؤمنين، بعد أن بين لهم في الآيات السابقة من سورة المائدة، بعض أحكام الآخرة، فيبين لهم في هذه الآية أحكاماً تتعلق بالدنيا، فيقول الله تعالى للمؤمنين: أنْ إذا سافرتم بَعيداً عن أهلكم في ديار يقلّ فيها المسلمون، وكتب الله عليكم الموت، فعليكم أن توصوا وتُشهدوا اثنين من المسلمين، فإن لم يوجد، فشهادة اثنين من أهل =

وروى البخاري في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس قال:

خرج رجلٌ من بني سهم[1]، مع تميم الداري وعَدِيّ بن بدّاء[2]، فمات السهمي بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلما قدما بتركته، فقدوا جاماً من فضةٍ مُخَوّصاً من ذهب[3]، فأحلفهما رسولُ الله ﷺ،

= الذمة، أو من أهل الكتاب، ليؤديا الوصية إلى الورثة، فإن ارتبتم في أمرهما عند إبلاغ الوصية، فليحلفا بعد الصلاة على مجمع من الناس، أنهما صادقان فإن تبين كذبهما فليحلف اثنان من أولياء الميت، أنهما أصدق من الشاهدَيْن السابقين، ويأخذان ما أنكره الشاهدان على الوصية.

(١) قوله: رجل من بني سهم، سماه غير البخاري: بديل بن أبي مريم، وقيل: ابن أبي مارية السهمي، مولى عمرو بن العاص. هكذا سماه الترمذي، وابن حجر في الإصابة، والسيوطي في أسباب النزول (سورة المائدة) قالوا: وكان حين سفره في التجارة مسلماً من المهاجرين. وهذا يدل على أن الحادثة وقعت بعد الهجرة.

(٢) عدي بن بدّاء، بتشديد الدال قبلها موحدة مفتوحة، وقد اختلفوا في صحبته وإسلامه، فقال ابن حبّان: له صحبةٌ، وأنكر ذلك أبو نُعيم وقال: لا يُعرف له إسلام وقوّى ذلك ابن الأثير، بأن في سياق أخباره عند ابن إسحق: فأمرهم رسول الله أن يستحلفوا عدياً، بما يَعْظم على أهل دينه. ونقل ابن حجر عن تفسير مقاتل أن النبي ﷺ قال لتميم: «ويحك يا تميم أسلمْ، يتجاوز الله عنك» فأسلم وحَسُن إسلامه، ومات عديّ بن بدّاء نصرانياً. ولكن في قول مقاتل نظر، لأنه ينافي الأخبار المشهورة عن وفود تميم ورهطه على رسول الله سنة تسع وإعلان إسلامهم، ولم يكن ذلك بمناسبة قصة الجام. ونقل ابن حجر في الفتح عن الواقدي: أن عدياً أخو تميم، ولعله أخوه من أمه، أو أخوه في الرضاع. وعلى كل حال فالذي يبدو أن عدياً من عرب الشام، لأن اقترانه بتميم، وقول الواقدي بأنه أخوه، يدل على ذلك، والمتفق عليه أن تميماً كان يسكن في فلسطين من ديار الشام، وسيأتي مزيد من المناقشة حولهما بعد تمام رواية الأخبار في سبب النزول.

(٣) الجام: إناء من فضة، عربيّ صحيح، وألفه واو ويجمع على أجؤم، وجامات، ومخوّص: أي: عليه صفائح الذهب مثل خوص النخل.

ثم وُجدَ الجامُ بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميمٍ، وعديٍّ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. قال البخاري: وفيهم نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ الآية[1].

وقد حصل خلاف بين الأئمة في شخصيات هذه القصة، وفي زمانها ومكانها، وفي الحكم الشرعي المستنبط من الآية، وسوف أذكر من اختلافاتهم ما فيه فائدة إن شاء الله تعالى، مع المناقشة والترجيح ما أمكن، مع عرض بعض الفوائد من القصة والآيات.

أ ـ نقل ابن حجر في (الإصابة) والسيوطي في «أسباب النزول» أن الذهبي جزم بأن تميماً الذي نزلت فيه الآية، ليس تميماً الداري. قال ابن حجر: ليس هذا بجيّد، لأنَّ الإمام البخاري والترمذي، وابن عساكر صرحوا في رواياتهم بأنه تميمٌ الداري.

ب ـ تقول الروايات: إن السهمي، خرج مع تميم وعديّ إلى الشام.. وفي بعضها: أن تميماً وعدياً أتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما السهمي وفي البخاري: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريّ وعدي بن بدّاء.. ولم يعين جهة الخروج.

وفي هذا الكلام نظر: فقولهم: خرج السهميُّ معهما: يعني أن تميماً وعدياً كانا يسكنان الحجاز قبل إسلامهما، لأن السهمي قرشيّ من مكة.

---

(١) وروى قصة السهمي الترمذي برقم (٣٠٦٢) وأبو داود (٣٦٠٦) واستدلوا بهذا الحديث على جواز شهادة أهل الذمة على وصية المسلم في السفر خاصة.

والمشهور أن بني الدار من لخم، كانوا يسكنون الشام، فكيف يخرج معهما وخروج السهمي سيكون من الحجاز؟

وقولهم: أتيا الشام لتجارتهما: فيه نظر أيضاً: كيف يكونان في الشام ويأتيان الشام؟

والتأويل لهذا الكلام: أن يكون تميم وعديّ قدما مكة قبل إسلامهما في تجارة، فصحبهما السهميُّ في عودتهما. أو أن يكون مكان سكنى تميم وصاحبه، ليس به سوق للبيع والامتيار، فكانا يذهبان إلى مراكز التجارة للبيع والشراء، والمشهور أن مراكز التجارة في الشام وغزة، وبُصرى ودمشق، والراجح أن تميماً وعدياً كانا من أهل التجارة بين الشام ومكة، أو بين الشام والحجاز. لأن رواية البخاري تقول: «فلما قدما بتركته» ولن يقدما من أجل إيصال الوصية فقط دون أن يكون لهما عمل، ولن يوصي إليهما السهمي، إذا لم يعرف أنهما يرتادان مكة. ويدل على ذلك أيضاً: قول البخاري: ثم وُجِدَ الجامُ بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعديّ.

ولذلك فإن معرفتهما بأهل الحجاز، ومعرفة أهل الحجاز بهما، قوية، والمنافع بينهما متبادلة، فكان بعض أهل مكة إذا قصد الشام منفرداً في غير قافلة، نزل عندهما، واستعان بهما في أموره، ويؤيد هذا القول، الرواية التي تقول «فقدم عليهما مولى لبني سهم».

جـ ـ هل حصلت القصة قبل البعثة النبوية، أم كانت بعد الإسلام، وقبل الهجرة، أم كانت بعد الهجرة، وهل كانت بعد إسلام تميم أم قبل إسلامه؟

الأقوى والراجح، أن القصة حصلت بعد الإسلام، بل بعد الهجرة، وقبل أن يسلم تميم، والذي يقوي هذا دليلان:

الأول: أن أكثر الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ المقصود شاهدان من غير المسلمين. ولذلك دار جدل بين الفقهاء في جواز شهادة الكافر على المسلم بناءً على هذه الآية، فتميم وصاحبه المُوصَىٰ إليهما بإيصال الميراث نصرانيّـان، والسهمي كان مسلماً، وفي ترجمة السهمي أنه كان من المهاجرين.

الثاني: الدليل الثاني على أن القصة حصلت في الإسلام، بعد الهجرة، وقبل أن يسلم تميم، شهرة الأخبار التي روت القصة وصرحت بذلك! فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، والسيوطي في أسباب النزول عن طريق الترمذي، عن ابن عباس عن تميم: في هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم.. ﴾ قال تميم: بريء الناس منها، غيري وغير عديّ بن بـدّاء وكانـا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام - أي قبل دخول الإسـلام إلى الشام - فأتيا الشامَ لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له: بديل بن أبي مريم، بتجارة ومعه جام من فضة، فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم: فلما مات، أخذنا الجام، فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعديّ بن بداء، فلما قدمنا إلى أهله، دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام[1] فسألونا

---

(١) نقل ابن حجر في الفتح أن السهمي مرض، فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه، وعندما فتح أهله المتاع، وجدوا الوصية، وفيها ذكر الجام وبهذا نعرف كيف اكتشف أهل السهمي فُقْدان الجام.

عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره.. **فلما أسلمت** تـأثمت من ذلك، فـأتيت أهله فخبرتهم الخبـر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به ـ أي: عدي بن بدّاء ـ رسول الله، فسألهم البينة، فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه، فحلف فأنزل الله الآية.. فقام عمرو بن العاص، ورجل آخر، فحلفا فنُزعت خمسمائة الدرهم من عديّ بن بدّاء.

فالقصة حصلت في الإسلام، لأن السهمي كان مسلماً والحكومة تمت في المدينة، لما جاء في تفسير قولـه تعالى ﴿من بعـد الصلاة﴾ أنها من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس. ونقل الزمخشري في الكشاف، عن الحسن: بعد صلاة العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. قال: وفي حديث «بديل» أنها لما نزلت الآية، صلى رسول الله صلاة العصر، ودعا بعديّ وتميم، فاستحلفهما عند المنبر فحلفا. فقوله «عند المنبر» يدل على أن القصة حدثت في المدينة لأنـه لم يكن في مكة منبر ولا صلاة جمعة، ليكون لها منبر، ولم يكن المسلمـون يقدرون على التجمع لصلاة الجماعة بالصفة التي ذكرها.

وقول تميم: فلما أسلمت تأثمت: يدل على أن الحكومة تمت بعد السنة التاسعة من الهجرة، وأن القصة تمت على مرحلتين:

الأولى: بعد الهجرة، بل في بدايتها، لأن السهمي كان مهاجراً.

والمرحلة الثانية: بعد السنة التاسعة من الهجرة، بعد إسلام تميم الداريّ. فبين رحلة السهمي وموته، وبين حصول الحكومة

زمنٌ ليس بالقصير، والذي جدد القصة، إسلام تميم وتأثمه من إنكار الجام.

د - وفي قصة تميم رضي الله عنه والآيات التي نزلت بسبب ذلك فوائد جليلة، أوجزها فيما يلي:

١ - نقل ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير الطبري قال: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حربٌ، والناس كفّار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نُسخت الوصيةُ، وفرضت الفرائض وعمل الناس بها.

٢ - في قوله تعالى ﴿ إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصيةِ ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما، فيها قولان:

الأول : أن يوصي إليهما، وهو قول ابن مسعود، قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قَدَرُه فإنْ وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين.

الثاني : أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية، فإن لم يكن وصيٌّ ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان، الوصاية والشهادة كما في قصة تميم.

٣ - ذكر بعض العلماء أن شهادة الكافر على المسلم كانت جائزة في صدر الإسلام ثم نُسخت، وناسخها قوله تعالى ﴿ ممّنْ تَرْضَوْن من الشهداء ﴾ واحتجوا بأن الإجماع على ردّ شهادة الفاسق، والكافر شرٌّ من الفاسق.

وقال الأكثرون: إنَّ شهادة الكافر على المسلم جائزة وإن الآية لم تُنسخ وذكروا على ذلك أدلةً كثيرة منها:

أ ـ إن نزول الآية كان بعد إسلام تميم الداري، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدّعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام.

ب ـ وقالوا: إن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، حتى صح عن ابن عباس، وعائشة وعمرو بن شُرَحبيل، وجمعٍ من السلف أن سورة المائدة مُحكمة، وروى الطبري بإسنادٍ رجاله ثقات عن ابن عباس، أن الآية نزلت فيمن مات مسافراً وليس عنده أحد من المسلمين، فإن اتُّهما استُحلفا. ونقل ابن حجر في الفتح عن الإمام أحمد: أنه أنكر على مَنْ قال إن هذه الآية منسوخة.

جـ ـ وصح عن أبي موسى الأشعري أنه عمل بذلك بعد النبي ﷺ، فروى أبو داود بإسناد رجاله ثقات عن الشعبي قال: حضرت رجلاً من المسلمين الوفاة «بدقوقا»[1] ولم يجد أحداً من المسلمين فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة بتركته ووصيته، فأُخبر الأشعريُّ فقال: هذا لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ـ يريد قصة تميم الداري ـ فأحلفهما بعد العصر ما خانا ولا كذبا ولا كتما ولا بدّلا، وأمضى شهادتهما، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، فكان عمله حجة.

د ـ قال الطبري، والرازي: إن قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾

---

(١) دقوقا، بالمدّ والقصر: قال ياقوت: مدينة بين إربل وبغداد.

خطاب للمؤمنين فلما قال ﴿ أو آخران ﴾ وضح أن المراد غير المخاطبين فتعيّن أنهما من غير المؤمنين. ثم إن جواز استشهاد المسلم، ليس مشروطاً بالسفر والضرب في الأرض.

هـ ـ خصّ جماعة قبول شهادة الكافر على المسلم، بأن يكون الشاهد من أهل الكتاب، وفي الوصية، وألا يوجد مسلم، ومن هؤلاء ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب والأوزاعي وأحمد وقد أخذ هؤلاء بظاهر الآية، وقوّى ذلك عندهم الحديث الذي رُوي في سبب النزول، فإن سياقه مطابق لظاهر الآية.

و ـ وقال جماعة: إن المقصود بالشهادة في الآية: اليمين، لقوله تعالى: ﴿ فيقسمان بالله ﴾ لأن الشاهد لا يمين عليه، ولا يلزمه أن يقول: أشهد بالله. فردّ عليهم المجيزون بأن اليمين لا يشترط فيها عدد ولا عدالة، بخلاف الشهادة، وقد اشترطا في هذه القصة، فقوي حملها على أنها شهادة، وقد قُبلت شهادة الكافر في بعض المواضع كما في الطب.

ز ـ فإن قيل: كيف يؤمن لحلفِ كافر، ونحن لا نؤمن بما يحلف به؟

الجواب: لقد اشترط أكثرهم أن يكون الشاهد من أهل الكتاب وهؤلاء يؤمنون بالله على صورة من الصور، ويخشونه ويطلبون رضاه ولذلك جاء في رواية ابن عساكر: فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به أهلُ دينه، وقد استوثقت الآية لهذا الحلف فشددت فيه ﴿ فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به

ثمناً ولو كان ذا قُربى، ولا نكتمُ شهادةَ اللهِ، إنا إذاً لمن الآثمين ﴾.

ولذلك عقّب القرآن على ذلك بالقول ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي: يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس، إنْ رُدت اليمين على الورثة.

وقد روى ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس، يصف ما فعل أبو موسى الأشعري قال: كأني أنظر إلى العلجين حين انتُهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل البيت وخوفوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر فقلت: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن أستحلفهما بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشتري به ثمناً قليلاً ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين، أن صاحبهم بهذا أوصى وأنَّ هذه لتركتُه فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتمتما أو خُنتما فضحتكما في قومكما ولم نُجزْ لكما شهادة وعاقبتكما. قال: فإذا قال لهما ذلك، فإن ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾..

الآية الثانية: التي ذُكر تميم في مأثور سبب نزولها، أو أنها تعنيه فيمن تعني: قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ ويقول الذين كفروا لستَ مُرسَلاً قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومَنْ عنده عِلْمُ الكتاب ﴾[1]. روى ابن عساكر عن قتادة، أنه قال في قوله تعالى:

---

(١) قال الزمخشري في معنى «ومَنْ عنده علم الكتاب» أي: والذي عنده علم القرآن، وما أُلف عليه من النظم المعجز الفائق لقوى البشر، وقيل: ومَنْ هو =

﴿ ومَنْ عنده علم الكتاب ﴾ قال: منهم عبد الله بن سَلاَم وسلمان الفارسيّ وتميم الداري وفي رواية: أُبيّ بن كعب، وزيدُ بن ثابت، وعثمان وتميم.

قال ابن كثير: قيل: نزلت في عبد الله بن سَلاَمَ، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية وعبد الله بن سَلاَم إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس: هم اليهود والنصارى، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى ﴿ الذين يتّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾[1] وإذا لم تصح أن يكون عبد الله بن سَلاَم مقصوداً بها فمن الأولى ألا يكون تميم مقصوداً بها خاصة لأنه تأخر إسلامه عن عبد الله بن سلام إلى سنة تسع من الهجرة، ولكن تميماً الداري تشمله هذه الآية لأنه من علماء أهل الكتاب العارفين بما في كتب النصارى خاصة لأنه كان نصرانياً.. فالصحيح إذن أن «ومَنْ عنده» اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ.

ويبدو أن تميماً كان مُطلعاً على صفاتِ محمد ﷺ الموجودة في

= من علماء أهل الكتاب، الذين أسلموا لأنهم يشهدون بصفته في كتبهم. وقيل: هو الله عز وعلا، والكتاب: هو اللوح المحفوظ وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة، وبالذي لا يعلم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وتعضده قراءَة مَنْ قرأ: ﴿ ومِنْ عنده علم الكتاب ﴾ على أن (من) حرف جر أي: ومن لدنه علم الكتاب ـ والله أعلم.

(١) الأعراف ـ ١٥٧.

الإنجيل لأن إحدى الروايات تقول: إنه قدم على رسول الله في وَفْدٍ من قومه، ودار حوار بينه وبين أخيه أبي هند حول الأماكن التي ينوون طلب استقطاعها من رسول الله. فقال رسول الله لتميم: «أتحب أن تخبرني بما كنتم فيه أو أخبرك» فقال تميم: بل تخبرُنا يا رسول الله نزداد إيماناً. فكأن تميماً أراد أن يطبق ما يحفظه من صفات النبي ﷺ على الواقع الذي أمامه بل: كأن قوله: اختبار لنبوة النبي ﷺ بناء على ما يعرف تميم من صفاته ومن صفات الأنبياء عامة، بأنهم يُوحى إليهم من الله تعالى.

٧ ـ ومن أعلى مناقبه، أنه عُدَّ من جُمّاع القرآن وحُفّاظه وقُرّائه:

أ ـ فقد أخرج ابن سعد، أن رسول الله ﷺ قُبض، ولم يجمع القرآنَ من أصحابه إلا أربعةُ نفرٍ، كلّهم من الأنصار، والخامس يُختلف فيه. فالنفر الذين جمعوه من الأنصار: زيد بن ثابت وأبو زيد[١]، ومُعاذ بن جبل وأبيٌّ بن كعب، والذي يختلف فيه: تميم الداري. وفي رواية: واختلفوا في رجلين: عثمان وتميم الداري وفي رواية أخرى: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان وتميم الداري، ونقل الرواية الأخيرة الذهبي في «سير أعلام النبلاء» بسند رجاله ثقات.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر[٢] ـ أنه قال: زارتنا عمرة[٣]،

---

(١) أبو زيد الأنصاري: اختلفوا في اسمه، فقيل: سعد بن عُبيد، وقيل: قيس بن السكن، وهو من الخزرج واستشهد يوم القادسية وهو ابن أربع وستين سنة.

(٢) أبو بكر: هو أبو بكر بن محمد بن حزم الأنصاري توفي سنة ١١٧ هـ، من التابعين.

(٣) عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية المدنية، كانت في حِجْر عائشة، وهي عمة =

فباتت عندنا فقمتُ من الليل، فلم أرفع صوتي بالقرآن، فقالت: يا ابن أخي، ما منعك أن ترفعَ صوتَك بالقراءة، فإننا ما كان يُوقظنا إلا صوتُ معاذ القارىء وتميمٍ.

والأدلة على أنَّ تميماً كان من أقرأ الناس، كثيرةٌ، ومن ذلك ما رواه ابن سعد أنَّ أُبيَّ بن كعب وتميماً الداري، كانا يقومان في مقام النبي ﷺ، يصليان بالرجال ـ يريد في صلاة التراويح ـ وذلك في عهد عمر بن الخطاب. وأن سليمان بن أبي حتمة ـ تابعي ـ كان يقوم بالنساء في رحبة المسجد. فلما كان عثمان بن عفان، جمع الرجال والنساء على قارىء واحد، هو سليمان بن أبي حتمة، وكان يأمر بالنساء فيُحبسن حتى يمضي الرجالُ ثم يُرسلن. وفي فتح الباري جـ ٢٥٢/٤، روى سعيد بن منصور من طريق عُروة، أن عمرَ جمع الناس على أبيّ بن كعب فكان يصلي بالرجال، وكان تميمٌ الداريُّ يصلي بالنساء. قال: ورواه محمد بن نصر في كتاب «قيام الليل» من هذا الوجه فقال: سليمان بن أبي حتمة، بدل تميم الداري، ولعلّ ذلك كان في وقتين.

قال ابن حجر في تعليل اختيار عمـر أُبيَّ بن كعب لإمامـة المسلمين: وكأنه اختاره عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام «يؤمهم أقرؤهم لكتاب الله». وثبوت إمامة تميم للرجال، ربما بالمراوحة بينه وبين أُبيّ بن كعب ـ أو إمامته للنساء، يدل على أنه كان من أقرأ

= أبي بكر بن محمد بن حزم، تابعية تُوفيت حوالي سنة ١٠٦ هـ. وتُعد حجة في حديث عائشة أم المؤمنين.

القوم لكتاب الله، ومن أكثرهم حفظاً، ومن أشدهم إقبالاً عليه[1].

ب ـ وروى البخاري عن أنس بن مالك، حين سئل: مَنْ جمع القرآن على عهد النبي ﷺ: قال: أربعةٌ، كلهم من الأنصار أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. وقد توقف العلماء عند رواية البخاري هذه، ورواية ابن سعد، في حصر القراء أو جُمّاع القرآن في أربعة أو خمسة، على عهد رسول الله ﷺ. فقالوا: ليس من المقبول ولا المعقول ولا المنقول أن حَفَظة القرآن ـ في آخر عهد النبي ـ أربعة أو خمسة فقط.

وربما كان ذلك ـ في حديث البخاري ـ مخصصاً بقبيلة أنس بن مالك من الخزرج، واستدلوا على ذلك بعدد من الأحاديث، منها ما رواه الطبري قال: افتخر الحيّان الأوسُ والخزرج. فقال الأول: منا أربعة: مَنْ اهتز له العرشُ: سعد بن معاذ[2]، ومَنْ عدلتْ شهادته شهادة رجلين: خُزيمة بن ثابت[3]. ومَنْ غسلته الملائكة: حنظلة بنُ أبي

---

(١) وكونه عُدَّ ممن جمع القرآن في عهد رسول الله، تدل على شدة إقباله على حفظه وسرعة طلبه له، حيث لم يصحب رسول الله إلا حوالي السنتين.

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف الذي رواه البخاري، قال رسول الله ﷺ عند وفاة سعد بن معاذ «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» وكان قد رُمي بسهم يوم الخندق واستشهد السنة الخامسة من الهجرة.

(٣) خُزيمة بن ثابت بن الفاكه الأنصاري الأوسي: روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «مَنْ شهد له خُزيمة فحسبُه» وروى الدارقطني عن خزيمة بن ثابت أن رسول الله جعل شهادته شهادة رجلين.

عامر[١]. ومَنْ حَمتْه الدَّبر عاصمُ بن ثابت[٢] فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم... فذكرهم.

وذكروا لحديث أنس بن مالك تأويلات منها:

١ ـ يُحتمل أن مراد أنس، لم يجمعه غيرهم من الأوس، بقرينة المفاخِرة، ولم يُرِدْ نفيَ ذلك عن المهاجرين.

٢ ـ وأجابِ القاضي الباقلاني عن الحديث بأجوبة منها: أن المراد لم يجمعه غيرهم على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلا أولئك. أو المراد بجمعه، تلقيه مِنْ في رسول الله، لا بواسطة، بخلاف غيرهم فيحتمل أن يكون تلقى بعضه بالواسطة. أو المراد بالجمع: الكتابة، فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلب، وأما هؤلاء فجمعوه كتابة، وحفظوه عن ظهر قلب.

٣ ـ وقال ابن حجر في الفتح (٥١/٩): قد يكون المرادُ إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ومن جاء بعدهم. ويُحتمل أن يقال: إنما اقتصر عليهم أنس لتعلق غرضه بهم. ثم قال: والذي يظهر من كثير

---

(١) حنظلة بن أبي عامر، الأوسي، استشهد بأحد، فقال النبي ﷺ «إن صاحبكم تغسله الملائكة» وكان قد خرج إلى المعركة جنباً لما سمع الهيعة.

(٢) عاصم بن ثابت بن الأفلح الأوسي، استشهد يوم الرجيع سنة ثلاث من الهجرة، وأراد المشركون اجتذاذ رأسه لبيعه لمن نذر أن يشرب فيه الخمر من مشركي مكة، فمنعته الدبر (الزنابير والنحل) وحمته فلم يقدروا عليه، ثم جاء سيلٌ فاحتمله. وكان رضي الله عنه نذر ألا يَمَسَّه مشرك ولا يمسّ مشركاً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته.

من الأحاديث، أن أبا بكر رضي الله عنه، كان يحفظُ القرآن في حياة رسول الله، وقد صحح مسلم حديث «يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقد أمر رسولُ الله، أبا بكر، لما مرض أن يؤم في مكانه، فيدل على أنه كان أقرأهم.

٤ ـ وقال القرطبي: كيف يكون عدد الحفظة أربعة في عهد رسول الله ﷺ، وقد قُتل من القُراء يوم اليمامة في حرب الردة، سبعون من القرّاء.

وعلى ما تقدم من التأويلات، تُحمل أيضاً روايات ابن سعد وغيره، ممن خصّ عدداً من الصحابة بجمع القرآن، وعليه يُحمل إضافة تميم الداري إلى جُمّاع القرآن، فقد يكون تصدى لإلقائه وتعليمه فاشتهر أمره، وقد يكون أتقنه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها القرآن، وقد يكون السبب في شهرة تميم أنه كان شديد السمع والطاعة للقرآن حريصاً على العمل بموجبه وقد أخرج الإمام أحمد، أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال: إن ابني جمع القرآن، فقال: اللهم غَفْراً، إنما جمع القرآن مَنْ سمع له وأطاع.. وليس معنى هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن بعضهم ممن يسمع للقرآن ويطيعه، ولكن المعنى المراد، أن الاستجابة تتفاوت شدة، ويتفاوت الناس في الاستعداد الجسمي، والحياتي، للعبادة.

جـ ـ والمشهور من أخبار تميم رضي الله عنه، أنه ملتزم بسنة رسول الله ﷺ في قراءة القرآن، شديد التدبر لما يقرأ.

وقد أخرج ابن سعد في الطبقات، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» بسند صحيح «كان تميم يقرأ القرآن في سبع» وهو موافق لما

جاء في رخصة رسول الله ﷺ، لعبد الله بن عمرو بن العاص حيث روى البخاري عن عبد الله بن عمرو قال[1]: أنكحني أبي امرأة ذات حسبٍ، فكان يتعاهد كُنَّتَه فيسألها عن بَعْلها، فتقول: نِعْمَ الرجلُ مِنْ رجلٍ[2] لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتشْ لنا كَنَفاً[3] منذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه، ذُكر للنبي ﷺ فقال: «ألقني به»، فلقيته بَعْدُ فقال: «كيف تصومُ»؟ قلتُ: أصومُ كلَّ يومٍ. قال: ««وكيف تختم»؟ قلت: كلَّ ليلةٍ، قال: «صم في كلِّ شهرٍ ثلاثةً، واقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلتُ: أُطيق أكثر من ذلك قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة» قال: قلتُ: أُطيق أكثر من ذلك قال: «أفطِرْ يومين وصمْ يوماً» قال: قلتُ أُطيق أكثر من ذلك، قال: «صُمْ أفضلَ الصومِ، صومَ داودَ صيامَ يومٍ وإفطار يومٍ، واقرأ في كل سبع ليالٍ مرةً» فليتني قبلت رُخصة رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضَعُفت. فكان يقرأ على بعض أهله السُّبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار، ليكون أخفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوّى أفطر أياماً وأحصى، وصام مثلهنّ، كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ عليه».

---

(١) فتح الباري كتاب ٦٦/ باب ٣٤ مجلد ٩/٩٤.

(٢) قال ابن مالك: يُستفاد من قوله «نعم الرجل من رجلٍ» وقوعُ التمييز بعد فاعل «نِعْم» الظاهر، وقد منعه سيبويه وأجازه المبرد. والمعروف أن ابن مالك ـ صاحب الألفية ـ من المتحمسين للاستشهاد بالحديث النبوي في النحو، وقد عابه في ذلك بعض النحويين مدّعين أنَّ الحديث لم يصل إلينا بلفظه كما نطق به رسول الله ﷺ. . نقول: وهل وصل إلينا كلام الأعراب، كما نطقوا به؟ وهم يعدونه حجة في النحو.

(٣) الكنف: الستر والجانب، وأرادت الكناية عن عدم جماعه لها.

وهناك أقوال أخرى توصل الليالي إلى ثلاث فقد جاء في سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «لا يَفْقه مَنْ قرأ القرآن في أقل من ثلاث». وعن عبد الله بن مسعود «اقرؤوا القرآن في سبع ولا تقرؤوه في أقلَّ من ثلاث».

قال النووي: والاختيار أن ذلك يختلفُ بالأشخاص، فمنْ كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر، استُحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يختل به المقصود من التدبّر واستخراج المعاني، وكذا مَنْ كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخلّ بما هو فيه، ومَنْ لم يكن كذلك فالأولى لـه الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرؤه هَذْرمـة. وقال النووي[1]: البكاء عند قراءَة القرآن صفة العارفين وشعارُ الصالحين قال تعالى ﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ﴾ وقال تعالى: ﴿ خرّوا سُجّداً وبكياً ﴾ والشواهد على هذا من الأحاديث كثيرة[2].

وقال الغزالي: يُستحب البكاءُ مع القـراءة وعندهـا، وطريق تحصيله أن يحصر قلبه الحزنُ والخوفُ بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والوثائق والعهود، ثم ينظر تقصيره في ذلك، فإنْ لم يحضره حزنٌ فليبك على فَقْد ذلك وأنه من أعظم المصائب.

---

(١) فتح الباري جـ ٩/٩٨.
(٢) انظر: فتح الباري جـ ٩/٩٨.

٨ ـ وقد اشتهرت الأخبار التي تتحدث عن تدبّر تميم القرآن، والبكاء عند قراءته، والتوقف لتدبّر معانيه.

فقد روى الطبراني برقم (١٢٥٠/١٢٥١) وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن حجر في «الإصابة» بطرق متعددة ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ ـ عن مسروق قال: قال لي رجلٌ من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته قام ليلةً حتى أصبح أو كَرَب أن يُصبِحَ، يقرأ آية من كتاب الله عز وجل فيركع ويسجد، ويبكي ﴿ أم حسبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواءٌ محياهُم ومماتُهم ساء ما يحكمون ﴾[1].

وروى ابن عساكر أن مُصعباً كان يقول «ختم القرآن في الكعبة أربعة من الأئمة: عثمانُ بن عفان، وتميمٌ الداري، وسعيدُ بن جبير، وأبو حنيفة».

ونقل الزمخشري في الكشاف عن تميم الداري رضي الله عنه، أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية فجعل يبكي ويردد إلى الصباح ﴿ ساء ما يحكمون ﴾[2].

وعن الفُضيل[3]، أنَّه بلغها فجعل يردّدها ويبكي ويقول: يا فُضيل ليت شعري من أيّ الفريقين أنت؟

---

(١) الجاثية/ ٢١.

(٢) وانظر تفسير ابن كثير، سورة الجاثية، آية (٢١).

(٣) الفُضيل بن عياض، شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧ هـ. من كلامه «من عرف الناس استراح».

فما سرُّ توقف تميم الداري عند هذه الآية الكريمة، وما السياق الذي جاءَت فيه، وما مكان التأمل فيها، وما سرُّ تأثيرها في النفس؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تدلنا على الحال التي كان عليها تميم الداري وهو يقرأ هذه الآية، والحال التي يكون عليها القارىء المتفهم العابد بل تُقدم لنا مفتاح شخصية تميم الداري، وتدعم الروايات القائلة بأنه كان من جُمّاع القرآن حين قبض رسول الله ﷺ، ولم يمض على إسلامه وصحبته رسول الله أكثر من ثلاث سنوات. وكونه استطاع أن يستدرك ما فاته من القرآن المنزل على رسول الله، في العهدين المكي والمدني، يدل على تعطشه إلى كتاب الله، وتذوقه كلام الله الصحيح الذي لم يعتوره التحريف والتبديل. . وكأنه أقام موازنة في نفسه، بين ما كان يعرف ويحفظ من الأناجيل المحرّفة، وبين كلام الله الحقّ، في القرآن الكريم فنبذ ما كان يحفظ، وأحلّ محله القرآن الكريم، لأن تميماً كان ميالاً بطبعه إلى التديّن، وكان في حَيْرة، رأى بعدها النور الذي أضاء له طريق ربه.

أقول: ما الذي وجده تميمٌ في هذه الآية، فقام ليلة وهو يتلوها ويبكي:

١ ـ هذه الآية من سورة الجاثية وهي من السور المكية، التي تناولت أسس العقيدة الإسلامية (التوحيد، والبعث، والرسالة) والمحورُ الذي تدور عليه سورة الجاثية، هو إثبات دلائل القدرة والوحدانية وإثبات البعث والجزاء يوم يلقى المحسنُ جزاء إحسانه والمسيءُ جزاء إساءَته. وسميت السورة، سورة الجاثية ـ لأن الله

ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة وما يكونون عليه من الفزع، فيجثون على الرُّكَب من شدة ما يصيبهم من الذهول والدهشة، شأن الخائف الذليل ﴿ وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً، كلّ أمة تُدعى إلى كتابها، اليوم تُجْزَون ما كنتم تعملون ﴾.

٢ - وأما السِّياق الذي جاءَت فيه الآية، فلا بدَّ لمعرفته من المرور على مجموعات المعاني التي تكوّن السلسلة المترابطة لهذه السورة.

فقد بدأت السورةُ ببيان دلائـل القدرة والـوحدانيـة في خلق السموات والأرض وفي إحياء البشر ونزول المطر وتعاقب الليل والنهار، عبرةً وعظةً لأولي الأبصار. وكلّ هذه المخلوقات شاهدةً بعظمة ذي الجلال ناطقة بوحدانية الكبير المتعَال ثم جاءَت حلقة أُخرى تتحدث عن المكابرين المعاندين المكذبين لآيات الله، مع كل تلك الدلائل الباهرة والحجج الساطعة الدالة على عظمة الله وجلاله ووحدانيته.

ثم تنتقل السورة لتذكير الناس بنعم الله الجليلة التي أغْدقها عليهم ليتنبّهوا إلى شكر المُنْعِم، وتوحيد الخالق الذي هيأ لهم كل أسباب الراحة والسعادة فوق ظهر المعمورة، وعلى سطح البحار، ينتقلون بمراكبهم فوقها في الأسفار من أجل التجارة وابتغاء الرزق. وتتحدث السورة عن نعمة الله على بني إسرائيل، حيث خصهم الله بالفضل على سائر أهل زمانهم، فجحدوا النِّعْمة وعَصَوْا أوامر الله، وكذّبوا برسالة خاتم المرسلين.

ثم تأتي الحلقةُ التي تضم الآية التي توقف عندها تميم الداري رضي الله عنه وأخذ يرددها أو يردد نهايتها حتى كاد يُصبحُ. وفي

هذه الحلقة تتحدث السورة عن القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعن انقسام الناس أمام هدايته إلى فريقين: مسلمين ومجرمين، فمن صدق به فقد اهتدى، ومن كذب به فقد ضلّ وغوى، والجزاء هناك عند الله.

فالآية الكريمة يبلغ القارىء عندها ذروة الانفعال الوجداني والتصديق الإيماني، بعد أن رأى الدلائل على القدرة الإلّهية ورأى أو قرع سمعه النُّذُر من الله تعالى، وأن الله لم يترك عُذْراً لمعتذرٍ، وآخر الأدلة وأقواها كتاب الله الذي فيه البيان والإعجاز. والعاقل المشاهِد، السامع لأدلة المجادلة بين فريقين، يدهَشُ إذا رأى العِناد وَحْده دليلَ المعانِد ولذلك روي أن تميماً وقف عند قوله تعالى ﴿ ساء ما يَحكمون ﴾ يكررها، لأن فيها رداً للباطل، وانتصاراً للحق.

٣ ـ والمعنى العام لهذه الآية: هل يظنُّ الكفار الفجارُ الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي: أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿ سواءٌ محياهم ومماتُهم ﴾ أي نُساوي بينهم في المحيا والممات؟ لا يمكن أن نُسَاوي بين المؤمنين والكفار لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن المؤمِنين عاشوا على التقوى والطاعة والكفار عاشوا على الكفر والمعصية، وشتان ما بين الفريقين. كقوله تعالى: ﴿ أفمنْ كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يَسْتَوُون ﴾.

قال مجاهد: المؤمن يموتُ مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي: ساء حكمهم في

تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين. قال ابن كثير: ساء ما ظنوا بنا، وبَعُدَ لنا أنْ نُساوي بين الأبرار والفُجّار، فكما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجارُ منازلَ الأبرارِ.

٤ ـ والآية حمّالةٌ وجوهاً من القراءات والإعراب التي تكشف عن المعاني المتعددة، التي قد تتوارد على ذهن القارىء المتدبّر.

أ ـ فكلمة «سواءً» تقرأ منصوبة فتكون بمعنى (مستوياً) ويجوز فيها إعرابان:

الأول: تعرب حالاً من الضمير الكاف في (كالذين) أي: نجعلهم مثل المؤمنين في هذه الحال.

الإعراب الثاني: أن تكون مفعولاً ثانياً لـ «حسب» والكاف حال، وقد دخل ﴿ سواءً محياهم ومماتُهم ﴾ على هذا الوجه في الحُسبان وتعرب: محياهم: مرفوعة على الفاعلية لـ (سواءً) لأنه بمعنى (مستوٍ) ويكون الفاعل مفرداً غير جملة.

ب ـ وتقرأ: كلمة (سواءٌ) بالرفع، وفي هذه الحال، تعرب (جعل) ناصبة لمفعولين، أولهما الضمير، والثاني الكاف.

وتعرب (سواءٌ) خبراً مقدماً، و(محياهم) مبتدأً مؤخراً ومماتهم: معطوفة. والجملة: بدل من الكاف، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد، كما لو قلت: أن نجعلهم سواءٌ محياهم ومماتهم، وتقول: ظننتُ زيداً أبوه منطلق.

جـ ـ وتقرأُ ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ بالرفع، فتكون إما فاعلاً لـ (سواءً) وإما مبتدأ مؤخراً لـ (سواءٌ) بالرفع.

وتقرأ (ومماتَهم) بالنصب، فتكون، محياهم ومماتهم ظرفين، كقولك: جاء فلان مقدم الحاج، وخفوقَ النجم. أي: سواءً في محياهم وفي مماتهم، وذكروا لذلك عدة معانٍ:

الأول : إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتاً لافتراق أحوالهم أحياءً: حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات وأولئك على ركوب المعاصي. وافتراق أحوالهم مماتاً: حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، ومات المسيئون على اليأس من رحمة الله.

الثاني : معناه، إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، لأن المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحة وإنما يفترقون في الممات.

الثالث : أن يكون ﴿ سواءً محياهم ومماتهم ﴾ كلام مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء وكذلك محيا المحسنين ومماتهم كلٌّ يموت على حسب ما عاش عليه.

وعلى هذا، فالضمير في محياهم ومماتهم يرجع إلى القبيلين في بعض الوجوه، ويجوز أن يرجع إلى الكفار، لأن محياهم كمماتهم، ولهذا سمي الكافر ميتاً[1].

د ـ وقوله تعالى: ﴿ أمْ حسب ﴾ قال الزمخشري: أم، منقطعه، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح:

---

(١) انظر: «الكشاف» سورة الجاثية «وإملاء ما منَّ به الرحمٰن» للعكبري.

الاكتساب، ومنه الجوارح. وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم، وجعل: بمعنى صيّر ينصب مفعولين، أولهما الضمير، والثاني الكاف في بعض الأقوال.

هذه بعض ما رأينا من المعاني والوجوه التي يمكن أن يتدبرها القارىء العابد، ونحن تلاميذ أولئك الصفوة من الرجال الذين شهدوا تَنَزُّلَ الوحي وشهدوا حياة رسول الله ﷺ، ومهما أوتي المتعلم، والعالم الباحث من القدرة على الغوص فإنه لا يستطيع أن يأتي بكل ما يجول بنفس الواقف أمام ربه في جوف الليل، بجوار الكعبة المشرفة في مقام إبراهيم الخليل عليه السلام حيث كان يقوم تميم في هذا المقام.

د ـ هذا التدبر، وهذا الفَهْم، وهذا التوقف عند المعاني القرآنية، هل يمكن أن يكون صاحبه من أهل لغةٍ غير اللغة المضرية القرشية التي نزل بها القرآن؟ إن الذي جعلني أطرح هذا السؤال قول تلامذة المستشرقين ودوائر المعارف الأوربية، إنَّ أهل الحيرة، وأهل الشام، من العرب، كانت لهم لغة غير لغة قريش[1]، لغة عربية خاصة بهم، ولكنها بعيدة عن لغة قريش، ويستدلون على ذلك، بأنه لم يصلنا شيء من شعرهم لأن الرواة أهملوه لخروجه عن قواعد لغة قريش.

أقول: هذا كلام باطل، ولا يقوم على دليل، وأستطيع أن أُقرر أن لغة قريش التي نزل بها القرآن، كانت قد عمت الجزيرة العربية

---

(١) انظر «فجر الإسلام» ص ٢٢ ـ لأحمد أمين.

قبل الإسلام ووصلت أيضاً إلى عرب الشام، والأدلة على ذلك كثيرة من حياة تميم الداري اللخمي، الذي لا يُعرف زمنٌ معين لنزول قبيلته الشام قبل الإسلام.

من ذلك: الكتاب النبوي الذي كتبه رسول الله لتميم الداري، فقد خاطبهم باللسان العربي القرشي، وكتب لهم بلسانهم العربي، وإذا كان فيه شيء يدل على اختلاف اللغة، فهو ما كان بين قبائل العرب من اختلاف بعض المفردات، وقد جاء في إحدى روايات الكتاب النبوي كلمة (أنطى) وقالوا إنها لغة يمنية، وجاءَت عليها قراءَة شاذة ﴿ إنا أنطيناك الكوثر ﴾.

ومن الأدلة أيضاً: حديث الجساسة والدجال، الذي حدث به تميم رسول الله ﷺ، ونقلته الكتب الصحيحة، وليس فيه ما يدل على اختلاف في اللغة..

وهذه الأحاديث النبوية التي روتها لنا كتب الحديث على لسان تميم الداري، وليس فيها ما يدل على لغة خاصة، مع إمكانية نقل الصحابي بالمعنى، ويكون اللفظ من عنده. ولم ينقل لنا أحدٌ عن تلبس تميم بلغة مغايرة..

والأدلة من غير حياة تميم الداري على عروبة لغة عرب الشام قبل الإسلام كثيرة في كتب الأدب والشعر، وليرجع أحدنا إلى أيام العرب في الجاهلية يجد منها الكثير، بل استشهد النحويون بأبيات من شعر قدماء عرب الشام، من ذلك قول الزباء[1]:

---

(١) شرح أبيات المغني - للبغدادي جـ ٢١٦/٧.

مـا لـلجـمـالِ مـشـيُـهـا وئـيـدا
أجـنـدلاً يَـحْـمـلـنَ أم حـديـدا

وقد استدل الكوفيون بهذا البيت على جواز تقديم الفاعل (مشيها وئيداً).

.. قد يكون رواة الأشعار أهملوا شيئاً من أشعار أهل العراق والشام قبل الإسلام وذلك أنهم كانوا يجاورون العجم، فخافوا على متن اللغة العربية من أن يدخله ما ليس منه، من باب الاحتراز والتشدد في تأصيل اللغة، لأن الغرض منها، كان خدمة كتاب الله تعالى، الكتاب العربي.

وقد ذكر السيوطي في «الاقتراح» القبائل التي لم يأخذ الرواة من لغتها فلم يؤخذ عن حضريّ ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم:

لم يُؤخذ من لخم وجُذام لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ولا من قُضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية. ولا من تغلب ولا من النمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس.

ولا من عبد القيس لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس. ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم..

وذكر قبائل أخرى غيرها..

أرأيت: لم يـأخذوا من بني حنيفـة وسكان اليمـامة ولا من ثقيف. . لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم. . ونحن نعرف عروبة هؤلاء وهم في قلب الجزيرة العربية. .

٩ ـ تميم الداري، راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين:

هكذا وصفه ابن حجر نقلاً عن أبي نُعيم، والشواهد على إقبال تميم الداري على العبادة بكل جوارحه كثيرة. وقد روينا في المنقبة السادسة، بإسناد صحيح إلى مسروق[1] أنه قال: قال لي رجل من أهل مكة، هذا مقام أخيك تميم ونقل ابن حجر أنه كان كثير التهجد، قام ليلة بآية حتى أصبح.

وفي تاريخ دمشق «أنه كان يطيل الصلاة» ونقل ابن عساكر عن ابن أبي الدنيا أن تميماً نام ليلة فلم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنةً لم ينم فيها للذي صنع. لعله أراد، لم ينم في الليل، أو في وقت التهجد من الليل، لا أنه لم ينم ليله ونهاره.

ولكن ما معنى قول أبي نُعيم: كان راهب عصره؟ هل كانت الرهبانية التي ابتدعها المسيحيون بعد عيسى عليه السلام؟

الجواب: ليست رهبانية النصارى، وإنما أراد أبو نعيم التشبيه، ووجه الشبه جزئي وليس كلياً، لأن الراهب النصراني منقطع إلى

---

(١) مسروق: هو مسروق بن الأجدع، تابعي كوفي توفي سنة ٦٣ هـ همداني من أهل اليمن قدم المدينة في عهد أبي بكر. مشهور بكثرة العبادة. وقول الراوي: هذا مقام أخيك لعله أراد أخوة العبادة، حيث جمعت بينهما صفة الانقطاع إلى العبادة. أو أراد أخوة الأصل، فتميم لخمي، وهو من قحطان، ومسروق أيضاً من اليمن.

العبادة ولا يشتغل بالدنيا، أما تميم فهو مكثر من العبادة وليس منقطعاً لها، لأن الانقطاع إلى العبادة وتحريم مباهج الحياة الدنيا، مذموم في الإسلام.. ولذلك أخطأ أحمد أمين عندما قال في كتابه «فجر الإسلام» بأن تميماً كان يترهب، وأن ذلك من آثار النصرانية التي كان عليها قبل إسلامه. وقد دأب أحمد أمين، ومَنْ أخذ عنهم على نسبة كل أثر إسلامي يشبه ما عند الأمم السابقة، إلى ناحية من النواحي التي تشبههم عند السابقين، وهم يريدون بذلك، الوصول إلى أن الشريعة الإسلامية وتراث الإسلام مأخوذ من ثقافات الأمم السابقة وعباداتهم، كذبوا.. ونحن لا ننفي وجود التشابه بين بعض ما جاء به الإسلام، وبعض ما في النصرانية، أو بعض ما بقي من النصرانية مما أنزل الله على عيسى، قبل التحريف، لأن الديانات السماوية من منبع واحد، وكلها تهدف إلى هدف واحد، فمنبعها من السماء وهدفها عبادة الله. وقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ليست مقصورة على أمة دون أمة وإنما هي حكمة الله في خلق الخَلْق، منذ خَلَقه.

فالتشابه بين ما جاء في القرآن، وما جاء في الإنجيل، يدل على المنبع الواحد الإلّهي، لا أن واحداً أخذ من الآخر، فقصص الأنبياء قبل عيسى ترد في الكتب السابقة، وكذلك ترد في القرآن، والدعوة إلى توحيد الله وعبادته رسالة كل الأنبياء، والدعوة إلى الأمانة والصدق والعدل ورحمة الفقير البائس من المبادىء التي يدعو إليها الأنبياء..

أقول: إنَّ رهبانية تميم تختلف عن رهبانية النصارى، لأسباب:

أ ـ كونه لم يوصف في عصره بهذا الوصف وإنما وصفه به المتأخرون لما رأوا من كثرة عبادته.

ب ـ تفسير الرهبانية بالعبادة في العبارة اللاحقة حيث تقول: وعابد أهل فلسطين أي: أكثرهم عبادة، وليس معنى هذا أنه كان أكثر أهل زمانه عبادة، وربما أراد تفضيله على أهل فلسطين في هذا الوصف، لأن العبّاد من الصحابة كانوا كثيرين.

جـ ـ الإكثار من العبادة لم تكن صفة مقصورة على تميم من الصحابة لكونه كان نصرانياً قبل إسلامه، ولكن أمثلة العبادة في الصحابة كثيرة، وربما كانت صورتها عند بعضهم أكثر مما عند تميم وقد روى البخاري، قصة عبد الله بن عمرو بن العاص (انظر المنقبة السادسة).

وكونه لم يختلط بزوجته في أيام عرسه، وانقطاعه إلى الصوم وقراءَة القرآن، ومع ذلك لم يصفه أحدٌ بأنه (راهب). وكان عثمان ابن عفان كثير التهجد كثير قراءَة القرآن، ولم يوصف بالرهبنة ولو أردنا حصر الصحابة والتابعين ممن انهمكوا في العبادة، لضاق المقام.

د ـ ليست رهبانية تميم هي رهبانية النصارى، لأنه كان متزوجاً وأنجب رقية التي كُنّي بها. فإذا قيل: قد يكون زواجه في جاهليته فتقول: ذكر ابن قتيبة في المعارف أنه تزوج ـ بعد إسلامه ـ أخت أبي بكر الصديق فلانة[1] وكان تميم يعمل في التجارة، حيث روى

(١) وسيأتي في المنقبة العاشرة أن رسول الله زوجه أم المغيرة بنت نوفل، تكريماً له على إسراجه المسجد.

ابن عساكر أن تميماً سأل عمر بن الخطاب عن ركوب البحر ـ وكان عظيم التجارة في البحر ـ فأمره بتقصير الصلاة.

فأما رهبانية النصارى: فكانت الانقطاع التام عن الدنيا وعن الزواج ويلتصق أحدهم بالدير فلا يفارقه. ولو كان تميم راهباً، ما طلب من رسول الله ﷺ أن يقطعه أرضاً في فلسطين، ولحرصه على التشبث بحقه في هذا الإقطاع طلب من أبي بكر أو من عمر عند فتح الشام أن يكتب له كتاباً بذلك، وكان ما أراد، ومَنْ كانت هذه حاله لا يكون راهباً.

فالرهبانية التي أرادها أبو نُعَيم هي العبادة فقط، أو الإكثار منها وليست كل الرهبانية. وأنت إذا قلت: كان فلان أسداً ليس معنى ذلك أنه أسد من جميع الوجوه، وإنما هو أسد في الشجاعة فقط..

هـ ـ ولم يكن تميم ذلك العابد المباهي بعبادته، المتظاهر بها أمام الناس لأنه لا يريد بها إلا وجه الله تعالى، ولم يكن يريد ثناءً من الخلق ولذلك كان يكره أن يجيب السائلين عن مقدار قراءَته وعبادته، لأنه لا يريد أن يحمل الناس على منهاجه كاملاً.

قال ابن عساكر: أتاه رجل فتحدث معه حتى استأنس إليه فقال له: كم جزءاً تقرأ من القرآن في الليلة؟ فغضب تميمٌ، وأجابه جواب الحكيم فقال: لعلك من الذين يقرأُ أحدُهم القرآن في ليلة فإذا أصبح قال: قد قرأتُ القرآن في هذه الليلة، فوالذي نفسي بيده، لأن أصلي ثلاث ركعات نافِلة أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن في ليلة، ثم أصبحَ فأخبرَ الناس به.

وكأن تميماً رضي الله عنه، يشير إلى حديث رسول الله الذي

رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة» الحديث (جـ ٩/ ١٠٠).

فتميم الداري رضي الله عنه عرف أن العبادات، لها حدّ لا يُنقص منه وهو الفرائض، ولها حدود متزايدة لا يلتزم بها كلّ مسلم، فكلٌّ يحمل منها قدر طاقته، ولذلك يُروى أن الرجل السائل قد غضب لما سمع من تميم فقال: إنكم معاشر صحابة رسول الله، مَنْ بقي منكم لجديرون أنْ تسكتوا، فلا تعلّموا، فلما رآه قد غضب، لان له فقال تميم: ألا أحدثك يا ابن أخي فقال: بلى، ما جئتك إلا لتحدثني فقال: أرأيت إن كنتُ أنا مؤمن قويّ وأنت مؤمن ضعيف، فتحمل قوتي على ضعفك، أتستطيع وتثبت؟ وأرأيت إن كنتَ مؤمناً قوياً وأنا مؤمِن ضعيف، ثم أتيتك ببساطي حتى أحمل قوتك على ضَعْفي، فهل أستطيع وأثبت؟ ولكن خذ من نفسك لدينك حتى يستقيم لك الأمر على عبادة تطيقها.

و ـ وروى الطبراني عن ابن سيرين، أن تميماً الداري اشترى رداءً بألف فكان يصلي فيه ـ قال في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح.

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر: واشترى تميم بُرْداً بألف درهم، وكان يصلي بأصحابه فيه، ويلبسه في الليلة التي يرجو أنها ليلة القدر، ويقوم فيه بالليل إلى الصلاة.

.. وقوله: وكان يصلي بأصحابه فيه، لعل ذلك كان بعد رحيله إلى فلسطين.

١٠ ـ مآثره في مسجد رسول الله ﷺ:

أولاً: تميم الداري أول مَنْ أسرج في المسجد:

روى الطبراني عن أبي هريرة قال: أول مَنْ أَسرج في المسجد تميم الداري. وقدّم لنا ابنُ حجر في «الإصابة» تفسير هذه الأولية، وكيف كانت، فروى في ترجمة سراج التميمي ـ غلام تميم الداري ـ وكان اسمه فتحاً، عن سراج ـ سادن بيت المقدس ـ قال: قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن خمسةُ غلمانٍ لتميم الداري معه، وكانت تجارتهم الخمر فلما نزل تحريم الخمر على النبي ﷺ أمرني فشققتها، فقال النبي ﷺ لتميم: بعني غلمانك لأعتقهم، فقال له تميم: قد أعتقتهم يا رسول الله. وكان يُسرج في مسجد رسول الله بسعف النخل فقدمنا بالقناديل والزيت والحبال، فأسرجتُ المسجد، فقال النبي ﷺ: مَنْ أسرج مسجدنا فقال تميم: غلامي هذا قال: ما اسمه؟ قال: فتح. قال النبي ﷺ، بل اسمه «سراج» فسماني رسول الله سراجاً.

وفي ترجمة «أبو البراد» غلام تميم الداري، روى ابن حجر عن أبي هند: قال: حمل تميمٌ الداريُّ معه من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً ومُقْطاً، فلما انتهى إلى المدينة، وافق ذلك يوم الجمعة، فأمر غلاماً يقال له: أبو البراد، فقام فشدّ المُقْط ـ وهو بضم الميم وسكون القاف، وهو الحبل ـ وعلق القناديل، وصب

فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتل، فلما غربت الشمس، أسرجها، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا هو يُزهر، فقال: مَنْ فعل هذا قالوا: تميم، يا رسول الله. قال: نورت الإسلام، نوّر الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنه لو كانت لي ابنة لزوجتكها. فقال نوفلُ بن الحارث بن عبد المطلب، لي ابنة يا رسول الله، تُسمى أم المغيرة بنت نوفل، فافعل فيها ما أردت، فأنكحه إياها على المكان. قال ابن حجر: وسنده ضعيف.

وأخرج ابن ماجه (في المساجد) برقم ٧٦٠: أول مَنْ أسرج السراج في المسجد تميم الداري.

وفي هذه الروايات دلالات على جوانب من حياة تميم الداري رضي الله عنه وفوائد:

أ ـ تعددت طرق الروايات التي تذكر أولية تميم في إسراج المسجد النبوي. ومجموع الروايات يشهد ويعضد حصول هذا الأمر، وعلاقة تميم الداري به، بأي صورة من الصور.

ب ـ تفيد الروايتان عند ابن حجر، بأن الأمر حصل بعد إسلام تميم الداري لأنه دخل المسجد، وأمر غلامه بإشعال القناديل في المسجد، ودعا له رسول الله، وزوّجه ابنة أحد المهاجرين القرشيين وقوله له: نورت الإسلام.

جـ ـ وتدل روايتا ابن حجر، على أن تميماً كان بعد إسلامه يعمل في التجارة بين الشام والمدينة، لأن إحدى الروايتين تقول: إنه حمل من الشام القناديل والزيت، وأدوات القناديل، وعرفنا أن تجارتهم كانت في الخمر قبل تحريمه.

د ـ نقل الكتاني في «التراتيب الإدارية» قال: يؤخذ منه ـ أي: من خبر إسراج تميم المسجد ـ أنه إذا وردت مصابيح من عند الكفار، وقد كانت معلقة في كنائسهم وعلى رؤوس صلبانهم، جاز تعليقها في مساجد المسلمين، ومعتمد الجواز: إباحة الانتفاع بأواني أهل الكتاب، كما هو مقرر في الشريعة.

هـ ـ قوله: وافق ذلك يوم جمعة: هل هناك علاقة بين إشعال القناديل والموافقة في يوم الجمعة؟ هل يعني ذلك أنهم كانوا يحتفلون بهذا اليوم، زيادة على كونه يَضمّ صلاة الجمعة. أكان يُشعل المصابيح لو صادف قدومه يوم ثلاثاء؟ لا أدري ما الهدف من قولهم في الرواية (وافق يوم جمعة) ولكن يُفهم مما نُقل في مأثور الكلام أن المسلمين كانوا يعظمون يوم الجمعة، لما ورد في كتاب «التراتيب الإدارية» كان اليهود يسمون الأسبوع كله سبتاً، وقد وقع ذلك في حديث أنس في الاستسقاء، فحدث في الإسلام تسميته جُمْعة نظراً لليوم الأشرف.

و ـ قوله عليه السلام لتميم «نوّر الله عليك» لإنارة المسجد: أقول: لا زال الناس يقولون لمن يضيء لهم المجلس بعد ظلمة (نور الله عليك) ولا يعلمون أنه سنّة رسول الله ﷺ، وأنه دعاء مأثور في هذا المقام.

ثانياً: تميم الداري يُشير على رسول الله بصنع المنبر النبوي:

من المتفق عليه بين العلماء أنه لم يكن لمسجد رسول الله منبر في أول تأسيسه، وأن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى

شجرة أو نخلة، ثم أشار عليه الصحابة رضوان الله عليهم بعمل منبر يجلس عليه، فاستحسن رسول الله ذلك. وهناك خلاف بين الرواة، فيمن أشار بصنع المنبر، وصانعه، وزمن صناعته. وقد نال تميماً حظ وافر من هذه الروايات، ولذلك خصصت الموضوع بالبحث في هذه الفقرة، وكونها من مناقب تميم ومآثره، ومن مواضع ذكره العاطر في السيرة:

١ ـ أما البخاري، فروى عن جابر رضي الله عنه، أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه، فإنَّ لي غلاماً نجاراً، قال: إن شئت، فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة، قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له[١].

٢ ـ وروى أبو داود، والبيهقي عن نافع بن عمر، أن تميماً الداري، قال لرسول الله ﷺ، لما كثر لحمه، ألا نتخذُ لك منبراً يحمل عظامك قال: بلى، فاتخذ له منبراً. قال ابن حجر: وإسناده جيد، وقد أشار إلى هذه الطريق، البخاري في باب (علامات النبوة) وإن لم يذكر متنها[٢].

٣ ـ وروى ابن سعد في الطبقات من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ، كان يخطب وهو مستند إلى جذع، فقال: إن القيام قد شقَّ عليّ، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً كما

---

(١) البخاري، ك ٨ ب٦٤، و/ ك ١١ ب ٢٦، وك ٥١ ب ٣، وك ٦١/ ب ٢٥.

(٢) انظر فتح الباري مجلد ٦٠٣/٦.

رأيت يُصنعُ في الشام، فشاور النبيّ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب: إنَّ لي غلاماً يُقال له «كلاب» أَعْمَلُ الناسِ، فقال: مُرْه أنْ يعملَ. قال ابن حجر: الحديث رجاله ثقات إلا الواقدي.

٤ ـ وروى الترمذي، وابن خُزيمة، وصححاه، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقوم يوم الجمعة فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخطب، فجاء إليه روميٌّ فقال: ألا أصنع لك منبراً.. الحديث. ولم يسمّ الرجل. قال ابن حجر في الفتح، يحتمل أن يكون المراد بالرومي، تميماً الداري، لأنه كان كثير السفر إلى أرض الروم..

وإذا كان لتميم حظ من الروايات السابقة، فإنه لا يزيد عن كونه مشيراً بصنعه، أما ما جاء في رواية ابن سعد من قول تميم (ألا أعمل لك منبراً) فإنها لا تدل على أنه هو الذي صنعه بيده، وكذلك رواية الترمذي وابن خُزيمة، وإنما هي من باب المجاز، كقولنا (بنى الأمير المدينة) ومع ذلك فقد عدّه بعضهم ممن صنع المنبر في الرجز التالي:

صانعُ مِنْبر المدينةِ الذي
كان عليه يخطبُ النبيُّ
صلى وسلمَ عليه دائماً
إلاهُنا المُهَيمنُ العليُّ
قيل اسمه ميمونُ أو باقولُ
أو باقونُ أو تميم الداريُّ

وقيل إبراهيمُ أو قُبَيْصَةً
والقولُ الأولُ هو القويُّ

أما مادةُ المنبر فكانت من طرفاء الغابة ـ شمالي المدينة النبوية ـ والزمن الذي صُنع فيه المنبر لا يتجاوز سنة تسع من الهجرة للجمع بين الروايات حيث قدم تميم الداري سنة تسع من الهجرة.

وقد وجدتُ من الباحثين مَنْ ينافح عن عروبة أو إسلامية، منبر رسول الله، فكرة وصناعة[١]، ويرد على بعض العلماء والمستشرقين الذين أوردوا آراءً يحاولون فيها إثبات أن المنبر الإسلامي مشتق من أصل مسيحي، وتقول الكاتبة: وهذه الآراء ليست إلا محاولات يبذلها المستشرقون لنسبة العمارة والفنون الإسلامية إلى أصول غير إسلامية، وثبت أن تخطيط مسجد الرسول بالمدينة لم يتأثر بتخطيط آخر.

أقول: والرد على المستشرقين لا يكون بالنفي وإنما قد يكون بالإثبات: أما مسجد رسول الله، فلم يكن له طراز معين، لما يروي البخاري في وصف بناء المسجد النبوي (فأمر النبي بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقُطع، فصنعوا النخل قبلةَ المسجد، وجعلوا عضاديته الحجارة)[٢].

وروي أيضاً عن عبد الله بن عمر: إن المسجد كان في عهد رسول الله مبنياً باللبن وسقفه الجريد، وَعَمَدُه خشب النخل فلم يزد

---

(١) مجلة قافلة الزيت، رمضان سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م، للسيدة نعمت محمد أبو بكر.

(٢) فتح الباري مجلد ١/٥٢٤.

فيه أبو بكر شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. . الحديث مجلد ١/ ٥٤٠ فهذا طراز أملته الحاجة والغرض منه أن يكون للمسلمين بيت للعبادة يجتمعون فيه. وأما بناء المساجد أو المعابد، فلم يكن فكرة يهودية أو نصرانية، وإنما هو بوحي من الله، وإن أول بيت وضع للناس للذي ببكة، قبل أن يكون في الكون يهود ونصارى.

. . أما ما وصلت إليه المساجد في القرون المتأخرة من الزخرفة، وهل كان طرازاً إسلامياً أم كان متأثراً بالنصارى واليهود، فهذا بحث آخر، ولكن المروي في الأحاديث الصحيحة أن المسجد حتى زمن عمر لم يكن فيه شيء من التأثر بالطراز المسيحي أما بعد ذلك، فقد يكون حصل، لما في الحديث الذي رواه البخاري (ك/٨ باب ٦٢ باب بنيان المسجد)، وقال أبو سعيد: وكان سقفُ المسجد من جريد النخل وأمر عمر ببناء المسجد ـ أي تجديد بنائه وتوسعته ـ وقال: أكِنَّ الناس من المطر وإياك أن تُحمّر وأن تُصفّر فتفتنَ الناس، وقال أنس: يتباهون بها ـ أي بالمساجد ـ ثم لا يعمرونها إلا قليلاً، وقال ابن عباس: لَتُزَخرفُنّها كما زخرفت اليهودُ والنصارى.

أما كون المنبر في المدينة مشتق من أصل مسيحي: فإنه لا ينافي الإسلام، ولا يمنع الإسلام من الاستعانة بأدوات النصارى المادية في المسجد، وقد نقلنا قبل قليل فتوى الكتاني في منقبة إسراج تميم المسجد بأنه إذا وردت مصابيح من عند الكفار وقد كانت معلقة في كنائسهم وعلى رؤوس صلبانهم، جاز تعليقها في المسجد. وفي حال المنبر ـ إن صح التأثر بما في الكنائس ـ لم

نقل منبراً من كنيسة وإنما صنعنا منبراً مثل ما في الكنيسة بيد إسلامية، وليست هذه أول مرة يأخذ رسول الله بما عند الكفار من الصنائع، ففي غزوة الخندق، قال سلمان الفارسي: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينـا فأسرع رسول الله إلى تنفيذ خطة الخندق، وأخذ عمر بن الخطاب فيما بعد بفكرة الديوان من الفرس. ولكننا نقول للمستشرقين: إنَّ أَخْذ صاحب الرسالة بما عند أعدائه من صناعات دنيوية، لا يُعدُّ نقصاً في الشريعة، لأن الرسل لا يبعثون بالصناعات وإنما يرسلون بالديانات الهادية إلى طريق الحقّ فمن أراد أن يطعن فليبحث عن مقدار سَمّ الخِياط لينفذ منه إلي جوهر العقيدة، وأصول التشريع، وهنا تجده يرتد خاسئاً حاسـراً. أما الأمور المادية الدنيوية، وعلوم الأرض التي تؤدي إلى عمران الكون مادياً، فهذه منافع يتبادلها الناس فيما بينهم، يعلو أناس فيها ثم ينحطون إلى الدرك، ثم يعلو آخرون: فقد أخذ العربُ علوم الفرس واليونان، وأوصلوا بها الحضارة المادية إلى ذروتها، ثم تدرّكوا نحو الخمول فأخذ الأوربيون عنهم ما ثمّروه من المعرفة الكونية، ووصلوا فيها إلى مرتبة عالية، وما يدريك أنه يأتي زمان تنتقل منهم إلى غيرهم ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس.

١١ ـ تميم أحد جنود البحرية الإسلامية:

فقد روى المقريزي عن موسى بن نصير قال: كان تميم في البحر غازياً فكان يرسل إليّ لأرسل إليه بالأسارى من الروم فيتصدق عليهم، ويأمرهم فيغسلوا ويدهنوا ويمشطوا. وفي رواية أخرى عن موسى بن نصير قال: كنا في غزاة مع تميم الداري في البحر، فكان يأمرنا بمشط رؤوس الأسارى ودهنهم.

ولكن متى كان ذلك: لقـد عاش مـوسى بن نصير مـا بين ١٩ ـ ٩٧ هـ ويوم وفاة تميم كان عمره واحدة وعشرين سنة. . وقد ولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص. . هل غزا موسى البحر قبل سنة أربعين، وهلّ رافقه تميم في هذا الغزو، في السنوات التي أمضاها في فلسطين بعد وفاة عثمان بن عفان؟ أقول: لأن قبرص فُتحت في خلافة عثمان، وعلى يد معاوية سنة ٢٨ هـ. وكان في الجيش عبادة بن الصامت، وزوجته أم حرام، وتوفيت في الغزوة، تحقيقاً لنبوءَة رسول الله ﷺ. وكان معاوية أول مَنْ غزا في البحر بأمر من عثمان، وكان عمرُ رضي الله عنه يمنع ذلك. أقول: إن ركوب تميم البحر للتجارة وغيرها، مشهور ولكننا لم نتأكد متى كان ركوبه البحر للغزو.

الفَصْلُ السَّابِعُ

مُسْنَد تَمِيم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

١ ـ مصادر مُسند تميم الداري.

٢ ـ أبواب مسند تميم الفقهية:

الباب الأول	:	في التوحيد.
الباب الثاني	:	الوضوء.
الباب الثالث	:	في الصلاة.
الباب الرابع	:	فضائل القرآن.
الباب الخامس	:	باب الجهاد.
الباب السادس	:	الدين النصيحة.
الباب السابع	:	الولاء والميراث.
الباب الثامن	:	حقّ الزوج على الزوجة.
الباب التاسع	:	فضل المدينة النبوية.
الباب العاشر	:	الأشربة والأطعمة.
الباب الحادي عشر	:	علامات الساعة.
الباب الثاني عشر	:	من علامات النبوة.
الباب الثالث عشر	:	حكم القطائع.
الباب الرابع عشر	:	البيوع.
الباب الخامس عشر	:	باب النواهي.
الباب السادس عشر	:	باب الموت.

٣ ـ الخاتمة.



١ ـ مراجع أحاديث تميم الداري:

تميم بن أوس الداري اللخمي، كان إسلامه سنة تسع.. روى عن النبي ﷺ. قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» وحديثه يبلغ ثمانيةَ عَشَرَ حديثاً.

روى عنه عبد الله بن عمر، وابنُ عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك.. وهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن التابعين روى عنه: زُرارة بن أوفى، ورَوْح بن زنباع، وعبد الله بن وهب، وعطاء بن يزيد الليثي، وشهر بن حَوشب، وعبد الرحمٰن بن غنم.. وجماعة.. وأحاديثه في الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي.

وروى له الدارقطني، في الوضوء، والبيوع، والرضاع.

والدارمي في «فضائل القرآن».

وخرج أحاديثه أيضاً، الحاكم في المستدرك. والطبراني في المعجم.

وله في مسند الإمام أحمد، ومسند أبي يعلى الموصلي.

وروى عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وأبو نُعيم والبيهقي في الدلائل، وابن كثير في الشمائل وأبو عبيد في الأموال، والماوردي في الأحكام السلطانية وغيرهم.

٢ ـ أبواب أحاديث تميم الداري:

يمكن تصنيف أبواب أحاديث تميم الداري إلى العناوين التالية:

أ ـ التوحيد.
ب ـ الوضوء.
جـ ـ الصلاة.
د ـ فضل القرآن.
هـ ـ الجهاد.
و ـ الولاء والميراث.
ز ـ حقّ الزوج على زوجه.
ح ـ علامات الساعة.
ط ـ الأطعمة والأشربة.
ي ـ البيوع.
ك ـ علامات النبوة وأرض الإسلام.
ل ـ لمن تكون النصيحة (الدين النصيحة).
م ـ الموت.
ن ـ الدين النصيحة.
س ـ فضل المدينة النبوية.

وسوف أثبت فيما يلي أحاديث تميم المتصلة برسول الله ﷺ، حسب الأبواب والمعاني التي تدل عليها:

الباب الأول: التوحيد:

وفيه حديث واحد، رواه الإمام أحمد جـ ٤/١٠٣، والترمذي في الدعوات، والطبراني (١٢٧٨).

عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال لا إلهَ إلا اللهُ، واحداً أحداً، صَمَداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحدٌ، عَشْر مَراتٍ، كُتب له أربعون أَلْفَ حَسَنةٍ»[1].

١ ـ قوله: لا إله: لا نافية للجنس ـ إلهَ: اسمها مبني على الفتح وخبرها محذوف تقديره موجودٌ (إلا اللهُ) إلا أداة استثناء: ولفظ الجلالة ـ بدل من (اسم لا وخبرها) لأنهما في محل رفع.

وقوله (ولم يكن له كفواً أحدٌ) أحدٌ: اسم كان. وفي خبرها وجهان: أحدهما: كُفواً. وعلى هذا يجوز أن يكون (له) حالاً من (كفواً) لأن التقدير: (ولم يكن أحدٌ كفواً له) ويجوز أن يتعلق بـ: يكن.

والوجه الثاني: أن يكون الخبر (له) وكفواً: حال من (أحد) أي ولم يكن له أحدٌ كفواً، فلما قدم النكرة نصبها على الحال.

وفي تقديم الجار والمجرور، (له) نكتة بلاغية فائقة، قد لا يفطن لها القارىء المتعجل. قال الزمخشري في تفسير سورة

---

(١) في سند الحديث (خليل بن مرة) اختلفوا فيه، ضعفه بعضهم، ووثقه آخرون. قال أبو زرعة: شيخ صالح. وقال ابن عديّ: لم أر في حديثه حديثاً منكراً قد تجاوز الحدّ، وهو في جملة من يكتب حديثه، وليس هو متروك الحديث. وقال ابن شاهين: هو عندي إلى الثقة أقرب، وقال أحمد بن صالح المصري: ما رأيت أحداً يتكلم فيه، ولم أر أحداً تركه وهو ثقة.. وإذا ذكرنا المادحين، فليس من الواجب ذكر القادحين، ونأخذ بالقول المأثور لأحد علماء الحديث: لا نترك حديث رجل، حتى يتفق العلماءُ كلُّهم على تركه. ويكفي أن يكون مروياً في مسند الإمام أحمد، وقد اتفق علماء الحديث، أن أحاديث المسند تدور بين الصحيح والحسن والضعيف المحتج به، حتى قال السيوطي: وكل ما في مسند الإمام أحمد فهو مقبول، فإن الضعف الذي فيه يقرب من الحسن. ويشهد لمتن الحديث، أحاديث كثيرة صحيحة في معناه.

الإخلاص: فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف (له) الذي هو لغو غير مستقر، ولا يقدم، وقد نصّ على ذلك سيبويه في كتابه، فما باله مقدماً في أفصح كلام وأغربه: قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى، مصبه هذا الظرف، لأن الضمير فيه عائد على الله تعالى، فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحق بالتقدم وأحراه. وجاء في حاشية الكشاف: نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ (ولم يكن أحدٌ كفواً له) وجرى هذا الجلف على عادته، فجفا طبعه عن لطف المعنى الذي لأجله اقتُضي تقديمُ الظرف مع الخبر على الاسم وذلك أن الغرض الذي سيقت له الآية، نفي المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى، فكان تقديم المكافأة المقصود، بأن يُسلب عنه أولى، ثم لما قدمت لتسلب، ذكر معها الظرف، يبيّن الذات المقدسة بسبب المكافأة. والله أعلم.

٢ ـ وهذا الحديث الشريف يقرر أصل العقيدة، وهو التوحيد، ويدعو المسلم إلى أن لا يفتر لسانه عن ذكر هذا التسبيح العلوي، ليمتزج بعواطفه ودمه، لتكون الألوهية المتفردة بالتوحيد رائدة له في كل أحواله فلا يخشى أحداً إلا الله.. فهذا الحديث اشتمل على توحيد الألوهية بقوله ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وتوحيد صفات الله تعالى بقوله «الواحد الأحد الصمد الذي ليس له مثيل» وقد جاءت الأحاديث النبوية التي تؤكد على قيمة كلمة التوحيد ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وأنها مفتاح الإيمان والعاصمة لقائلها من كل اعتداء على وجوده على الأرض إلا بحقه.

وجاءت الأحاديث الصحيحة تبين مكانة سورة الإخلاص، التي تضمن الحديث الشريف معانيها. فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم وأحمد والنسائي عن أبي الدرداء أن رسول الله قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأَ كلَّ يوم ثُلُثَ القرآن؟» قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز، قال: «فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء: فقل هو الله أحد، ثلث القرآن»[1].

الباب الثاني: الوضوء:

وفيه حديث رواه الدارقطني في سننه (١ - ١٥٧) وخرّجه محمد بن محمد بن سليمان الباغندي في مسند عمر بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن إسماعيل الفارسي، أنبأنا موسى بن عيسى بن المنذر، أنبأنا أبي أنبأنا بقيّة عن يزيد بن خالد عن يزيد بن محمد عن عمر ابن عبد العزيز قال، قال تميم الداري قال رسول الله ﷺ: «الوضوء من كل دم سائل».

قال الباغندي: عمر بن عبد العزيز لم يسمع من تميم الداري، ولا رآه، ويزيد بن خالد، ويزيد بن محمد مجهولان:

فالحديث فيه علتان: الانقطاع بين تميم وعمر بن عبد العزيز، وجهالة راويين في السند.

ولكن المحقق محمد عوامة قال: والحديث بهذا الإسناد ضعيف، لكن أخرجه الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» عن الكامل لابن عديّ بإسناده إلى زيد بن ثابت مرفوعاً، فيتقوى هذا السند ثم

---

(١) لبيان منزلة كلمة التوحيد انظر البخاري ك/٣ باب/ ٤٩. وكتاب ٨/ باب ٤٦.
وانظر تفسير سورة الإخلاص عند ابن كثير.

قال: فليتنبه لما توارد عليه بعضهم من تضعيف هذا الحديث.

وقد اختلف العلماء وأهل الفتوى في كون الدم من نواقض الوضوء: وممن رأى الدم من نواقض الوضوء: أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد، وأحمد بن حنبل، وإسحٰق، وقيّده بالسيلان.

وذهب ابن عباس، ومالك والشافعي وابن المسيب ومكحول، وربيعة إلى أنه غير ناقض.

ومن أدلة النقض غير حديث الباب، ما رواه ابن ماجه والدارقطني عن عائشة قالت قال رسول الله: «مَنْ أصابه قيءٌ أو رعاف.. فليتوضأ» ولكن بعض القائلين بالنقض فرّق بين الدم الكثير والقليل، لما أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة مرفوعاً «ليس في القطرة ولا في القطرتين من الدم وضوء إلا أن يكون دماً سائلاً».

ويُحمل حديث الباب على هذا المعنى والله أعلم.

ومن أدلة القائلين بأن الدم لا ينقض الوضوء كثر أم قلّ: ما رواه الدارقطني عن أنس قال: احتجم رسول الله، فصلى ولم يتوضأ ولم يزد على غسل محاجمه.

وجاء في موطأ الإمام مالك، بسنده إلى المسور بن مَخْرمة، أن عمر بن الخطاب ـ عندما طُعن ـ صلى وجرحه يثعُبُ دَماً. ورُوي أن سعيد بن المسيب كان يَرْعُف فيخرج منه الدمُ حتى تُختضب أصابعه من الدم الذي يخرج من أنفه، ثم يصلي فلا يتوضأ[1].

---

(١) انظر «الموطأ» جـ ١، ونيل الأوطار للشوكاني جـ ١/١٨٨ ـ ١٨٩.

الباب الثالث: الصلاة:

وفي الباب أربعة أحاديث، وأثران عن تميم الداري. أما الأحاديث الأربعة: اثنان منها في بيان منزلة الصلاة بين الأعمال. وحديث في بيان عمن تسقط صلاة الجمعة، والرابع: في حكم النافلة بعد صلاة العصر.

أما الأثران: فواحد في أخذ الزينة إلى الصلاة، والثاني: في قيام الليل.

أولاً: في بيان منزلة الصلاة بين الأعمال:

وفيه حديثان بلفظ واحد، وطريقين: وروى الحديثين الإمام أحمد ١٠٣/٤، وأبو داود (٨٦٦) وابن ماجه (١٤٢٦) والحاكم (١/٢٦٢ ـ ٢٦٣).. عن تميم الداري قال قال رسول الله ﷺ: «أول ما يُحاسب[1] به العبدُ الصلاةُ، ثم سائر الأعمال».

ومنزلة الصلاة عند الله معروفة للعام والخاص، لا تحتاج إلى مزيد من الشرح.. ولكنني تنبهت إلى نكتة لغوية لها دلالتها في هذا الموضوع، حيث قال: (ثم سائر الأعمال) فاستخدم حرف العطف (ثم) وهي تدل على الترتيب والتراخي، لبيان الفرق بين (عمود الدين) الصلاة وبين سائر الأعمال.

---

(١) والحساب هنا ـ والله أعلم ـ لا يكون على الصلاة المضيعة، ولا تشمل تارك الصلاة فهذا له حساب آخر، وإنما الحساب يكون على التمام والإتقان، ويدل على هذا، رواية الحاكم في المستدرك (١/٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن تميم الداري أن رسول الله قال: أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة، الصلاة، فإن كان أكملها، كتبت له كاملة، فإن لم يكملها، قال الله تعالى لملائكته: هل تجدون لعبدي تطوعاً، تكملوا به، ما ضيّع من فريضته؟ ثم الزكاة مثل ذلك ثم سائر الأعمال على حسب ذلك.

ثانياً: حكم صلاة الجمعة:

وفيه حديث عن تميم الداري، عن النبي ﷺ: «الجمعة واجبة إلا على امرأةٍ أو صبيٍّ أو مريضٍ، أو عبدٍ أو مسافر».

رواه العقيلي في الضعفاء (١٩٣) والبيهقي. وفي سنده الحكم ابن عمرو اتهم بالكذب، وضرار بن عمرو الملطي متروك، وأبو عبد الله الشامي، لا يُعرف. وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٣/٢٢٧) وفيه أربعة ضعفاء على الولاء، قاله ابن القطان.

ولكن يشهد للمتن أحاديث أخرى، تستثني من وُجوب الجمعة مَنْ ذكرهم حديث الباب ـ وانظر تفصيل المسألة في (نيل الأوطار) جـ ٣/٢٢٧.

ثالثاً: حكم صلاة النافلة بعد صلاة العصر:

عن عروة بن الزبير قال: قال تميم الداري أو أُخبرت عنه، أن تميماً الداري ركع ركعتين، بعد نهي عمر بن الخطاب عن الصلاة بعد العصر، فأتاه فضربه بالدّرّة فأشار إليه تميم أن اجلسْ وهو في صلاته، فجلس عمرُ حتى فرغ تميم، فقال لعمر: لِمَ ضربتني، قال: لأنك ركعت هاتين الركعتين، وقد نهيتُ عنهما، قال: فإني قد صليتهما مع مَنْ هو خير منك، مع رسول الله ﷺ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إني ليس بي إياكم أيها الرهط[1]، وإني أخاف أن يأتي بعدكم قومٌ، يَصلُونَ ما بين العصر إلى المغرب، حتى يمروا بالساعة التي نهى رسول الله ﷺ أن يُصلى فيها، كما وصلوا بين الظهر والعصر، ثم يقولون: قد رأينا فلاناً وفلاناً، يصلون

---

(١) وفي المسند، لأحمد «فقال عمر: إنَّ الناس لو كانوا كهيئتك لم أبال».

بعد العصر) رواه الإمام أحمد جـ ٤/١٠٣.

ورواه الطبراني برقم (١٢٨١) قال في المجمع: ٢/٢٢٣ وفي سنده عبد الله بن صالح، قال فيه عبد الملك بن شعيب: ثقة مأمون، وضعفه أحمد وغيره. ولكن متن الحديث صحيح، لأن الروايات الصحيحة تشهد له. وقد نقل ابن حجر في الفتح هذا الخبر، ولم يضعفه ونقل أيضاً عن زيد بن خالد أن عمر رآه ـ وهو خليفة ـ ركع بعد العصر، فضربه، وفيه فقال عمر: يا زيد لولا أني أخشى أن يتخذهما الناس سُلّماً إلى الصلاة حتى الليل لم أضرب فيهما. **ورواية مسند أحمد من طريق أخرى غير طريق الطبراني.**

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ كان يواظب على ركعتين بعد العصر وانظر في ذلك، فتح الباري جـ٢/٦٤ـ٦٥. وجـ٣/١٠٥. ويُفهم من سياق الأحاديث أن نهي عمر بن الخطاب عنهما، لئلا يستمر الناس في صلاتهما إلى ما قبيل المغرب، وهو الوقت الذي تكره الصلاة فيه والله أعلم.

رابعاً: قيام الليل:

وقد روى الطبراني (١٢٥١) والنسائي في الكبرى، باب المواعظ والحافظ ابن حجر في (الإصابة) عن البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق: قال: قال لي رجل من أهل مكة، هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته قام ليلةً حتى أصبح أو كَرَبَ أن يصبح، يقرأ آيةً من كتاب الله عز وجل، فيركع ويسجد ويبكي ﴿أم حسِبَ الذين اجترحوا السيئات﴾ الآية..

وقد تحدثت عن هذا الأثر، والآيةِ التي كان يقرأها من سورة

الجاثية في مناقب تميم الداري، راهب عصره، وعابد أهل فلسطين . .

وفيه دليل على استحباب البكاء أثناء قراءَة القرآن الكريم، لاستحضار المعاني التي تدل عليها الآيات التي يقرأها المصلي، كما أن فيه دليلاً على استحباب التدبر في القراءة، لا الإكثار منها، لمن كان عنده علمٌ ويقدر على تدبّر المعاني.

خامساً: أخذ الزينة عند الصلاة:

روى الطبراني، وابن عساكر عن ابن سيرين، أنَّ تميماً الداري اشترى رِداءً بألف درهم، فكان يصلي فيه، وفي رواية: عندما يتحرى ليلة القدر. وهو موافق للمفهوم من قوله تعالى ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ بضرورة لبس أحسن الثياب في الصلاة، وبخاصة يوم الجمعة، لما جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه، وأبو داود، عن ابن سَلاَم، أنه سمع النبي ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليومِ الجمعة سوى ثوبي مهنته».

الباب الرابع: فضائل القرآن:

وفي هذا الموضوع عدد من الأحاديث:

في سنن الدارمي خمسة أحاديث، عن تميم الداري، وفُضالة بن عُبيد قالا . . رواها الدارمي في «فضائل القرآن».

وفي مسند الإمام أحمد، حديث واحد.

وفي الطبراني، حديثان . . .

ويكاد يكون موضوعها واحداً، وهو فضل قراءَة القرآن الكريم. ولكن الذي يَختلف: عدد الآيات المقروءَة، والثواب عليها. وهذا تصنيف لها:

١ - «مَنْ قرأ مئة آية في ليلة كُتب له قنوت ليلة» وجاء هذا اللفظ عند الإمام أحمد، والطبراني، والدارمي.
٢ - «مَنْ قرأ عَشْر آيات في ليلةٍ، كُتب له قنطارٌ، والقنطار خير من الدنيا وما فيها». وهذا اللفظ عند الطبراني.
٣ - «مَنْ قرأ ألفَ آيةٍ في ليلة، كُتب له قنطار، والقيراط من القنطار خيرٌ من الدنيا وما فيها، واكتسب من الأَجْر ما شاء الله» وهذا اللفظ للدارمي في «فضائل القرآن».
٤ - «من قرأ بعَشْر آياتٍ في ليلةٍ، كُتب من المصلين». واللفظ للدارمي.
٥ - «مَنْ قرأ خمسين آيةً في ليلة كُتب من الحافظين» واللفظ للدارمي.
٦ - «من قرأ بمائة آية في ليلة كُتب له قنوت ليلة».
٧ - «مَنْ قرأ بمائة آية في ليلة كتب من القانتين» رواه الدارمي.

.. ومدار هذه الروايات على الترغيب في قراءَة كتاب الله تعالى وأن يستغل المسلم ثواب القراءَة القليلة، إذا لم يجد وقتاً إلا لهذا القليل من الآيات، والتفاوت بين عدد الآيات في الروايات، هدفه بيان أن القراءَة حسب القدرة والطاقة، والثواب الجزيل حاصل لهذا وذلك إذا أخلصا النية وتقربا إلى الله بالقراءَة، ويؤخذ منه أيضاً أن لا نهجر قراءَة القرآن في يومنا، وأن لا يمرّ يومٌ دون قراءَة آياتٍ

من كتاب الله.. على أنه يجب علينا ألا نأخذ الحديث على ظاهره، ولكن يجب أن يكون مع القراءة شيء من التدبر، كلٌّ قدر ما آتاه الله من العلم.

الباب الخامس: باب الجهاد:

وفيه حديث واحد، رواه الإمام أحمد، في مسند تميم الداري ورواه الطبراني، في الصغير، والأوسط، ومسند الشاميين، وابن ماجه في الجهاد.

عن رَوْح بن زِنباع الجُذامي قال: دخلت على تميم الداري وهو أمير على بيت المقدس، وهو ينقّي لفرسه شعيراً فقلت: أيها الأمير أما كان لك مَنْ يكفيك هذا. قال: لا[1]، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نقّى لفرسه شعيراً ثم قام به حتى يعلّقه عليه كتب الله بكل شعيرة حسنة»..

واللفظ للطبراني، وفي مسند الإمام أحمد اختلاف يسير.

ورواية ابن ماجه: «من ارتبط فرساً في سبيل الله ثم عالج عَلَفَه بيده، كان له بكل حبةٍ حسنةٌ».

وقريب من هذا اللفظ ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ احتبسَ فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإنَّ شِبَعَه ورِيَّه، وروثَه، وبَوْله في ميزانه يوم القيامة» وفي الحديث فوائد جليلة منها:

---

(١) وانظر حاشيتنا على الحديث في قوله «لا» عند الكلام على تواضع تميم الداري.

١ ـ جواز وقف الخيل للمدافعة عن المسلمين، ويستنبط منه جواز وقف غير الخيل من المنقولات ومن غير المنقولات من باب الأولى.. ووقف الخيل اليوم، رمز لأدوات الحرب التي يجب أن يَعتني بها المسلمون للدفاع عن بلاد الإسلام.

٢ ـ يجب أن يكون وقف الخيل في سبيل الله، لأن الحديث ينص عليه، ولذلك جاء في حديث آخر عند البخاري (ك/ ٤٢ باب ١٢) قال رسول الله ﷺ: «الخيل لرجل أجْرٌ ولرجل سِتْرٌ وعلى رجل وِزْرٌ. فأما الذي له أجْرٌ، فرجل ربطها في سبيل الله. ورجل ربطها تغنّياً وتعففاً ثم لم ينس حقّ الله في رقابها ولا ظهورها، فهي لذلك ستر ورجل ربطها فَخْراً أو رياءً، فهي على ذلك وِزْرٌ».

٣ ـ في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن تميم «مَنْ ارتبط فرساً في سبيل الله» دليل على أن تميماً الداري رضي الله عنه كان ينوي بحبس الفرس عند الجهاد في سبيل الله...

نعم، لم نقرأ في سيرته أنه شارك في غزوة أو معركة، ولكن يبدو أنَّ ظروفاً حالت دون تحقيق نيته في الغزو.

وقد روى ابن سعد في الطبقات جـ ٤٠٩/٧، أن تميماً الداري صحب رسول الله وغزا معه، وروى عنه.

وهذا ينقضُ ما قاله السمعاني في «الأنساب»: وكان تميم من عبّاد الصحابة وزهّادهم ممن جانب أسباب الغزو ولزم التخلي بالعبادة إلى أن مات.

وكيف يكون جانب أسباب الغزو، وهو يرتبط فرساً في سبيل

الله؟ والمرء يؤجر بنيته كما يؤجرُ العامل. وتميم الداري كان يرى في خدمة فرسه التي ارتبطها في سبيل الله، نوعاً من العبادة التي شهر بها بين صحابة رسول الله ﷺ، والعبادة التي ينوي تميم القيام بها هنا، استجابة داعي الله إلى الجهاد.

الباب السادس: باب «الدين النصيحة»:

وروى الطبراني عن تميم في هذا الباب، تسعة أحاديث، بطرق مختلفة واللفظ متقارب. وروى اللفظ أيضاً أو قريباً منه: الإمام أحمد، ومسلم في الصحيح، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم. وعند مسلم فيه ثلاث طرق؛ ولفظه عند مسلم: عن تميم الداري، أن النبي ﷺ قال: «الدينُ النصيحةُ. قلنا لمن؟ قال: للّه، ولكتابهِ ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم». .

وروى الباغندي في مسند عمر بن عبد العزيز / عن عمر بن عبد العزيز عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ لقي الله عز وجل بخمسٍ لم يُحجب عن الجنة، النصح للّهِ عز وجل والنصحِ لكتابِ اللهِ والنصحِ لرسولِ اللهِ والنصحِ لأئمة المسلمين والنصح لعامة المسلمين». والحديث هنا صحيح المعنى، ولكن سنده منقطع، لأن عمر بن عبد العزيز، ولد بعد وفاة تميم الداري بأزيد من عشرين عاماً.

وقد عقّب عليه الإمام النووي رحمه الله بشرح مستفيض جليل، رأيت أن أثبته برُمته، لما فيه من الفوائد الجليلة لكل مسلم: فقال:

١ ـ هذا حديث عظيم الشأن، وعليه مَدَارُ الإسلام، وأما ما قاله جماعات من العلماء أنه أحدُ أرباع الإسلام، أي: أحد الأحاديث

الأربعة التي تجمع أمور الإسلام، فليس كما قالوه، بل المدارُ على هذا وحده.

وهذا الحديث من أفراد مسلم، وليس لتميم الداري في صحيح البخاري عن النبي ﷺ شيء ولا له في مسلم عنه، غير هـذا الحديث.

وأما شرح هذا الحديث: فقال الإمام أبو سليمان الخطّابي رحمه الله: النصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ لأنواع، معناها: حيازة الحظ للمنصوح له ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمةٌ مفردةٌ يُستوفى بها العبادة عن معنى هذه الكلمة، كما قالوا: في «الفلاح» ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخيري الدنيا والآخرة منه. قال: وقيل: النصيحةُ مأخوذة من نَصَحَ الرجلُ ثوبَه إذا خاطه، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب. وقيل: إنها مأخوذة من: نصحتُ العسل، إذا صفيته من الشمع، شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسـل من الخلط. قـال: ومعنى الحـديث: عماد الدين، وقوامه النصيحة. كقوله: الحج عرفة، أي: عماده ومعظمه عرفة.

٢ ـ أما النصيحة للّه تعالى:

فمعناها مصروف إلى الإيمان به ونَفْي الشرك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفِه بصفات الكمال والجلال كلِّها، وتنزيهه سبحانه من جميع النقائص، والقيام بطاعته واجتناب معصيته والحب فيه، والبغض فيه، وموالاة مَنْ أطاعه، ومعاداة مَنْ عصاه وجهادِ مَنْ كفر

به، والاعترافِ بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور، والدعاءِ إلى جميع الأوصاف المذكورة والحثّ عليها، والتلطف في جَمْع الناس، أو مَنْ أمكن منهم عليها.

قال الخطابي: وحقيقة هذه الإضافة راجعةٌ إلى العبد في نصحه نفسه فالله تعالى غنيٌّ عن نصح الناصح.

٣ ـ وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى:

فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيلُه، لا يُشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحدٌ من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حقّ تلاوته والذبُّ عنه لتأويل المحرّفين وتعرض الطاعنين، والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخُصُوصه وناسخه ومنسوخه، ونَشْر علومه والدعاء إليه.

٤ ـ وأما النصيحة لرسول الله ﷺ:

فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعتُه في أمره ونهيه، ونصرتُه حيّاً وميتاً، ومعاداةُ من عاداه، وموالاة مَنْ والاه، وإعظام حقّه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبثّ دعوته، ونشْر شريعته ونفي التهمة عنها، والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها والتأدب عند قراءَتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها، لانتسابهم إليها. والتخلقُ بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته وتعرض لأحد من أصحابه.

٥ ـ وأما النصيحة لأئمة المسلمين:

فمعاونتهم على الحقّ وطاعتهم فيـه، وأمرهم بـه، وتنبيههم وتذكيرهم برفقٍ ولُطْف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغْهم من حقوق المسلمين، وترك الخـروج عليهم، وتألف قلوب النـاس لطاعتهمْ. قال الخطابي رحمه الله: ومن النصيحة لهم: الصلاةُ خَلْفهم والجهادُ معهم، وأداءُ الصدقـات إليهم، وترك الخـروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عِشْرة، وأن لا يُغرّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح. وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاءُ وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات: وقد يُتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماءُ الدين، وأنَّ من نصيحتهم قبول ما رووه وتقليدهم في الأحكام وإحسان الظن بهم.

٦ ـ وأما نصيحة عامة المسلمين ـ وهم مَنْ عَدَا وُلاةَ الأمر ـ:

فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكفّ الأذى عنهم فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم، وسدّ خلاتهم ودفع المضارّ عنهمْ وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بـرفْقٍ وإخلاص والشفقـة عليهم، وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخوّلهم بالموعظة الحسنة وتَرْك غشّهم وحسدهم وأنْ يُحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه والذبُّ عن أموالهم وأعراضهم وغيـر ذلك من أحـوالهم بالقـول والفعل، وتنشيط هممهم إلى الطاعات، وقد كان في السلف من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياه، من أجل نصيحة المسلمين.

الباب السابع: الولاء والميراث:

وفيه حديث واحد: عن تميم الداري قال: سُئل رسول الله ﷺ، عن الرجل يُسلم على يَدَي الرجل فقال: هو أولى الناسِ بمحياه ومماتِه.

روى الحديث: الإمام أحمد ٤/١٠٣، وأبو داود ٣/٨٧، والترمذي ٦/٢٨٧، وابن ماجه ٢/٩١٩، والدارمي ٢/٣٧٧، والطبراني في المعجم الكبير ٢/٤٥، والدارقطني ٤/١٨١ ـ ١٨٣، والحاكم ٢/٢١٩، والبيهقي ١٠/٢٩٦.

ورواه البخاري معلقاً في صحيحه ك ٨٥/ باب ٢٢ تحت عنوان: باب إذا أسلم على يديه، وكان الحسنُ لا يرى له وِلاية، وقال النبي ﷺ: «الولاء لمن أعتق» ويُذكر عن تميم الداري رفعُه قال: هو أولى الناس بمحياه ومماتِه. واختلفوا في صحة هذا الخبر..

وقد اختلف العلماء في درجة صحة هذا الخبر، كما اختلفوا في تأويله للجمع بينه وبين حديث «إنما الولاء لمن أعتق» فالحديث الأخير صحيح ويحصر حقوق الولاية لمن كان عنده عبد وأعتقه. وجاء هذا الحديث، ليضيف إلى «الولاية» ولاءً جديداً، وهو لمن أسلم على يديه رجل..

وأنقل هنا ما كتبه محقق «مسند عمر بن عبد العزيز» حيث قال في معناه وحكمه: «قال في «عون المعبون» ٣/٨٧: «قال الشيخ أبو البركات النسفي الحنفي: عقد الموالاة مشروع والوراثة بها ثابتة عند عامة الصحابة، وهو قول الحنفية. وتفسيره: إذا أسلم

رجلٌ أو امرأة، لا وارث له، وليس بعربيّ، ولا مُعْتَق، فيقول الآخر: واليتك على أن تعقلني إذا جنيتُ، وترثُ مني إذا مِتّ، ويقول الآخر: قبلتُ. انعقد ذلك. ويرث الأعلى من الأسفل.

والمراد من قوله ﷺ «حياته ومماته» أن المسلم يعقلُ عن الرجل الذي أسلم إذا وقع في جناية حال حياته، ويرثه بعد مماته، وذلك بشروط مفصلة في كتب الفقه. وانظر (حاشية ابن عابدين ١٢٥/٦) وما بعدها.

وهذا ما يُسمى «ولاء الموالاة» وهو غير ولاء العَتَاقة المذكور في حديث الصحيحين «إنما الولاء لمن أعتق». الذي ضعّف البخاري من أجله حديث تميم الداري هذا، مع أنه لا تعارض بينهما، فكل منهما ذكر نوعاً من الولاء.

وقد روى الباغندي في مسند عمر بن عبد العزيز، بعد رواية الحديث: قال عبد العزيز بن عمر: وشهدت عمر بن عبد العزيز، قضى بذلك في رجل أسلم على يَدَي رجل، فمات وترك مالاً وابنةً له فأعطى عمرُ ابنته النصفَ، والذي أسلم على يديه النصف. والله أعلم.

الباب الثامن: حقّ الزوج على الزوجة:

وفيه حديث واحد، عن تميم الداري عن النبي ﷺ قال: «حقّ الزوج على الزوجة، أن لا تهجر فراشه، وأن تبرّ قسمه وأن تطيع أمره، وأن لا تخرج إلا بإذنه، وأن لا تُدخل عليه مَنْ يكره». رواه الطبراني برقم ١٢٥٨. قال في المجمع: في سنده ضرار بن عمير وهو ضعيف..

ولكن مجموع المتن صحيح، لأن الأحاديث الصحيحة تشهد له وانظر في ذلك «نيل الأوطار» شرح منتقى الأخبار ٦/٢٠٧، وفي الباب أحاديث كثيرة تبين حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها. وانظر البخاري «كتاب النكاح» وغيرهما من كتب الحديث والفقه.

الباب التاسع: فضل المدينة (المنورة):

وفي الباب حديثان: الأول: عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ طيبة المدينة، وما نَقْب من نقابها إلا عليه مَلَكٌ شاهرٌ سيفه، لا يدخلها الدجال أبداً». وهو جزء من حديث الجساسة والدجال الذي رواه مسلم، ولكن الطبراني أفرده، من كلام النبي ﷺ، وأما حديث الجساسة فأولُه من كلام تميم رضي الله عنه، نقله عنه رسول الله ﷺ. وقد مضى الكلام على حديث الجساسة وفوائده في مناقب تميم الداري المنقبة الأولى - ويشهد لمعنى هذا الحديث: أحاديث البخاري. انظر كتاب «فضائل المدينة» في المجلد الرابع من «فتح الباري».

الباب العاشر: باب «الأشربة والأطعمة»:

وفي الباب ثلاثةُ أحاديث - واحد في (الخمر) واثنان في (الطعام):

الحديث الأول: عن تميم الداري أنه كان يهدي إلى النبي ﷺ كلَّ عام راوية خمر، فلما كان عام حُرّمتْ، أهدى له راوية فضحك النبي ﷺ فقال: إنها قد حُرّمتْ قال: فأبيعُها؟ قال: إنه حرامٌ شراؤها وثمنُها...

رواه الطبراني برقم (١٢٧٥) قال في المجمع: وإسناده متصل. ونقل ابن حجر في «الفتح» الحديث وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى... والحديث تؤخذ منه فوائد:

١ ـ في تاريخ تحريم الخمر: وقد رجّح ابن حجر في الفتح جـ ٨/٢٧٩ أن تحريمها كان عام الفتح، أو بعد عام الفتح، واستدل بهذا الحديث على ذلك فقال: ويُستفاد من حديث تميم تأييد الوقت المذكور فإن إسلام تميم كان بعد الفتح..

ولكنَّ ربْطَ التحريم بإسلام تميم، معناه أن التحريم كان في السنة التاسعة، لأن المشهور أن إسلام تميم كان في هذه السنة بعد غزوة تبوك.

٢ ـ وقد يُفهم من سياق الأخبار أن تميماً كان يهدي رسول الله في الجاهلية قبل إسلامه، كما قال ابن حجر في «الفتح» جـ ١٢/٨٥.

وكان تميم من أهل الشام، ويتعاطى التجارة في الجاهلية، وكان يهدي للنبي ﷺ فيقبل منه، وكان إسلامه سنة تسع. ولكن الحديث المروي عن تميم يفيد أن تميماً كان مسلماً، لأنه قال: أفلا أبيعُها وأنتفع بثمنها، فنهاه وقال: إنه حرام شراؤها وثمنها. فامتثل تميم لقول الرسول عليه السلام.

وروينا في مناقب تميم «أول مَنْ أسرج المسجد» أن غلمانه جاءوا بخمر إلى المدينة فأمرهم رسول الله أن يريقوه ففعلوا.

ويُفهم من الحديث المروي أن تميماً أهدى رسول الله خمراً في

زمن لم يكن محرماً، لأنه قال له في الحديث: «أشعرت أنها حُرمت بعدك؟» ومعناه، بعد المرة السابقة التي أهديتني فيها.

ولا يعقل أن يتأخر التحريم بعد غزوة تبوك، ويكون تميم بعد إسلامه قد ذهب في رحلة تجارة إلى الشام والخمر لم تحرم، ثم عاد، وقد نزل تحريم الخمر، لأن الأخبار الصحيحة وردت بنهي الرسول عن الخمر منذ زمن فتح مكة..

للجمع بين الأخبار نقول: يبدو أن تميماً كان يهدي رسول الله في الجاهلية، وكانت قصة الهدية الأخيرة، عندما قدم تميم مسلماً، وهو لا يعلم بتحريم الخمر وقد جاء في أخبار وفادة تميم على رسول الله، وإسلامه، أنه أهدى إلى رسول الله عدداً من الهدايا، ومنها راوية خمر، وقبل الرسول الهدايا كلها، وسكت الرواة عن خبر «راوية الخمر» ولعل الهدية المذكورة في الحديث، كانت الراوية التي جاء بها تميم يوم أسلم. والله أعلم.

٣ ـ يقول الحديث: كان تميم يهدي لرسول الله كل عام، راوية خمر. فهل كان رسول الله يشرب الخمر، قبل تحريمها؟

من المقطوع به أنه ﷺ، لم يشرب الخمر، قبل البعثة، ولا بعدها لأن الخمر، كان يتعفف عنه عقلاء الجاهلية، من العرب، أفلا يتنزه عنه محمدٌ عليه السلام، وقد أعده الله للرسالة؟ وإذا صحت الأخبار في قبوله هدية الخمر قبل تحريمها، فإنما كان يهديها ولا يشربها. والله أعلم.

٤ ـ يؤخذ من الحديث تحريم الانتفاع بثمن ما كان محرماً، لنهي

الرسول تميماً عن الانتفاع بثمنها.. ولكن إذا كانت الخمر قد حرّمت، لمن كان سيبيعها تميم الداري؟ وأهل المدينة كلهم من المسلمين؟ الجواب: قد يكون في المدينة بعض اليهود وأهل الكتاب قبل إجلائهم عن أرض الجزيرة.. والله أعلم.

والحديثان الثاني والثالث: من باب الأطعمة: وفيه بيان حكم ما جُبَّ من الحيوان الحيّ..

الحديث الأول: عن تميم قال: قيل للنبي ﷺ: إنَّ قوماً يجبّون أسنمة الإبل ويقطعون أذناب الغنم قال: «كلُّ ما قُطع من الحيّ فهو ميت» والحديث الثاني بمعناه، مع اختلاف يسير في اللفظ.

رواه الطبراني برقم (١٢٧٦، ١٢٧٧) ورواه ابن ماجه (في الصيد) بلفظ: «يكون آخرُ الزمانِ قومٌ يجبّون أسنمة الإبل ويقطعون أذناب الغنم» الحديث. قال الشوكاني في «نيل الأوطار» وأخرجه ابن ماجه والطبراني وابن عديّ من طريق تميم الداري وإسناده ضعيف.

ولكن المتن له طرق متعددة، واحدةً عن ابن عمر، والثانية عن أبي واقد الليثي..

قال الشوكاني: فيه دليل على أن البائن من الحيّ، حكمه حكم الميتة في تحريم أكله ونجاسته، وفي ذلك تفاصيل ومذاهب مستوفاة في كتب الفقه. (نيل الأوطار جـ٨/ ١٤٦).

الباب الحادي عشر: «علامات الساعة»:

ومنها خروج الدجال، وغور ماء بحيرة طبرية، وعين زُغر، ويُبْس

نخل بيسان. . وهذه في حديث الجساسة والدجال، وقد مضى بطوله في مناقب تميم الداري.

الباب الثاني عشر: من علامات النبوة:

وفيه حديث واحد عن تميم الداري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ، ما بلغ الليلُ والنهارُ ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله اللهُ هذا الدين، بعزّ عزيزٍ أو بذُلّ ذليلٍ، عِزاً يُعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذلاً يُذِلُّ اللهُ به الكفار».

وكان تميم يقول: قد عرفتُ ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب مَنْ أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب مَنْ كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية.

رواه أحمد ١٠٣/٤ وابن حبان (١٦٣١ ـ ١٦٣٢) والحاكم (٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال في المجمع ٦/ ١٤: ورجال أحمد رجال الصحيح. .

قلت: هذا الحديث من علامات النبوة التي تحققت بعد وفاته ﷺ حيث يُقْسم رسول الله على أن يبلغ الإسلام ما بلغ الليلُ والنهارُ، دلالة على اتساع الرقعة التي ينتشر فيها الإسلام، ويظهر تحقق هذا، بالتدريج على مرور الأعصر والأيام، وقد انتشر الإسلام في أيامنا في أماكن من العالم، بحيث يمكن القول: «إن الإسلام لا تغيب عنه الشمس، ولا يغيب عنه الليل».

وفي حديث تميم الداري، وما عقّب به بقوله «عرفت ذلك في

أهل بيتي» دليل على أنه كان يسكن الشام قبل إسلامه، (وأن أهل بيته) هي قبيلته. ذلك أنّ الإسلام قد انتشر في الجزيرة قبل وفاة الرسول عليه السلام.. وإنما هو يشير إلى البلاد التي فُتحت بعد وفاة الرسول، ومنها الشام.. وفيه دليل على جواز أخذ الجزية من العرب، إذا كانوا من أهل الكتاب.

ومن تمام الفائدة لهذا الباب أن ألخص ما قاله ابن حجر في شرح «علامات النبوة في الإسلام» في كتاب المناقب من صحيح البخاري حيث قال: العلامات: جمع علامة، وعبّر بها المصنفُ لكون ما يورده من ذلك أعمّ من المعجزة والكرامة، والفرق بينهما أن المعجزة أخصُّ لأنه يُشترط فيها أن يتحدى النبيُّ مَنْ يكذبه بأن يقول: إن فعلتُ كذا أتصدق بأني صادق، أو يقول مَنْ يتحداه، لا أصدقك حتى تفعل كذا.. قال: وأشهر معجزات النبي ﷺ: القرآن، لأنه تحدى به العرب.. وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام وانشقاق القمر ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحدٍّ، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، كما يُقطع بوجود جودِ حاتمٍ وشجاعةِ عليّ، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجمّ الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار.. بل لو ادعى مدعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً، وهو أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في

الجملة ولا يُحفظ عن أحد من الصحابة ولا مَنْ بعدهم مخالفةُ الراوي فيما حكاه ولا الإنكار عليه، فيكون الساكت منهم كالناطق لأن مجموعهم محفوظ من الإغضاء على الباطل.. ومما ظهر من علامات نبوته عند مولده وبعده، ما أخرجه الطبراني عن عثمان بن أبي العاص الثقفي عن أمه أنها حضرت آمنة أم النبيّ، فلما ضربها المخاض قالت: فجعلت أنظر إلى النجوم تدلى حتى أقول لتقعنَّ عليّ فلما ولدت خرج منها نور، أضاء له البيت والدار. وشاهده حديث العرباض بن سارية قال: سمعتُ رسول الله يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين، وإن أم رسول الله رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام». (أخرجه أحمد، وصححه ابن حبان والحاكم).

الباب الثالث عشر: باب القطائع:

وفيه حديث عن تميم الداري قال (استقطعتُ رسولَ الله أرضاً بالشام قبل أن تُفتح، فأعطانيها، ففتحها عمرُ في زمانه، فأتيته فقلتُ: إنَّ رسول الله أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا فجعل عمرُ رضي الله عنه ثُلُثَها لابن السبيل وثلثاً لعمارتها وثلثاً لنا).

رواه الطبراني، برقم ١٢٧٩. وقال في المجمع ٦/٨: ورجاله ثقات..

وقد مضى الحديث عن هذا الحديث، في فصل إقطاع النبي ﷺ، تميماً أرضاً في فلسطين، وتوسعت هناك في بيان حكم

الإقطاع ومعناه، وتاريخه في الإسلام، وفيه تفسير لبعض أحكام الإقطاع، وأنه لا يكون كل ما تنتجه القطيعة للمستقطع.

الباب الرابع عشر: (باب البيوع):

وفيه حديث واحدٌ أخرجه الدارقطني في البيوع ٧/٣ عن تميم الداري عن النبي ﷺ: «لا يحلّ ثمن شيء لا يحل أكلُه وشُرْبه».

وفي البيوع أيضاً: مضى حديث في باب «الأشربة» وتحريم بيع الخمر والانتفاع بثمنه.

ويؤيد معنى الحديث، ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهودَ حُرّمتْ عليهم الشحوم فباعوها، وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرّم على قوم أكْل شيءٍ، حرَّم عليهم ثَمَنه».

الباب الخامس عشر: باب النواهي:

وفيه حديث واحد رواه الباغندي في مسند عمر بن عبد العزيز عن تميم الداري قال: قال تميم الداري: نهى رسول الله عن خمس: عن اتخاذ اللِّمم، ولُبْس النِّعال، وجلوس في المساجد، وأن يَخْلُفَ بالصفِّ، ولبوسِ الرداء والإزار بغير درع.

والحديث فيه علتان: جهالة رجلين من سنده، والانقطاع بين تميم الداري وعمر بن عبد العزيز. وقال محمد عوّامة محقق المسند:

لم أقف على الحديث مروياً في موضع آخر ثم كتبتُ إلى شيخنا العلّامة المحقق الحافظ الشيخ عبد الله الصديق الغماري، أسأله،

فكتب إليّ: حديث تميم الداري هذا غريبٌ، لم أره في غير هذا الموضع، وفي سنده علتان، جهالةُ يزيد بن خالد، والانقطاع بين تميم وعمر.

واللِّمم بالكسر: جمع لِمَّة، فهو ينهى عن توفير شعر الرأس بحيث يشغل صاحبه بتنظيفه وتمشيطه، وعن لُبس النِّعال، تركاً للترفه وعن الجلوس في المساجد تنزيهاً لها عن شيء سوى العبادة، وأن يخلُفَ الرجلُ بالصفّ، فيصلي منفرداً خَلْفه، وأن لا يُلبس الإزارُ والرداءُ إلا بدرع، لأنه أبلغ في الستر، ويقي لابسه في الحرب. قال: والحديث ضعيف تعارضه الأحاديث الصحيحة إلا في صلاة الرجل خلف الرجل..

الباب السادس عشر: باب الموت:

وفيه حديث واحد طويل رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، عن أنس بن مالك عن تميم الداري. ورواه السيوطي في كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيحان﴾ من سورة الواقعة. وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت، وأبو يَعْلَىٰ من طريق أبي يزيد الرقاشيّ عن تميم:

وأوله «يقول الله تعالى لملك الموت انطلق إلى وليّي فأتني به فإنه قد ضربتُه بالضراء والسَّراءِ فوجدتُه حيثُ أحبُّ إليّ، ائتني به لأريحه، فينطلق ملكُ الموتِ ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفانٌ حنوطٌ من الجنة» الحديث. ويأخذ في وصف النعيم الذي يلقاه المؤمن عند نزع روحه، وفضائل الصلاة والصوم والزكاة والصبر.. والأعمال الصالحة..

ثم يصف العذاب الذي يلقاه الكافر عند نزع روحه «ويقول الله لملك الموت انطلق إلى عدوّي فأتني به إني قد بسطت له رزقي وسربلته في مغنمي فأبى إلا معصيتي، فأتني به لأنتقم منه، فينطلق إليه مَلَكُ الموت في أكره صورة» الحديث إلى نهايته. ويصف العذاب الذي يلقاه عند نزع الروح. وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿ يثبّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الآية من سورة إبراهيم ٢٧.. في تفسير ابن كثير، وفيه أحاديث البخاري ومسلم، تشهد لمعنى حديث تميم الداري.

وانظر في تفسير ابن كثير، تفسير قوله تعالى: ﴿ فَرَوْح وريحان ﴾ من سورة الواقعة، وفيها وصف النعيم الذي يلقاه المؤمن في الآخرة.

* * *



٣ ـ الخاتمة

وإذا أردتُ أن أوجز حياة تميم الداري في سطور، فإنني أقول:

١ ـ وُلد وعاش ـ مع قبيلته لخم ـ في بلاد الشام، وكان يشتغل في جاهليته بالتجارة بين الشام وبلاد الحجاز.

٢ ـ أسلم ـ في أقوى الأقوال ـ سنة تسع من الهجرة، حيث وفد على رسول الله ﷺ، منصرفه من غزوة تبوك، وأقطعه رسول الله أرضاً في فلسطين قبل فتحها، وكانت هذه من بشارات فتح الشام ومن دلائل نبوته ﷺ التي تحققت بعد وفاته. . وبعد فتح فلسطين استلم الإقطاع في عهد أبي بكر أو عمر.

٣ ـ لم يكن لتميم أولادُ ذكور، وكانت له بنت تُسمى «رُقية» وكُنّي بها فيقال «أبو رقية».

٤ ـ لزم بعد إسلامه المدينة، في صحبة رسول الله، ولازمها في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة، ثم رحل إلى فلسطين بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه.

٥ ـ كان معتكفاً على العبادة والتعليم، ولم تُرْو عنه أخبار أنه خاض في الفتنة الإسلامية، لا في عهد عثمان، ولا في عهد عليّ ومعاوية.

٦ ـ توفي في فلسطين سنة ٤٠ هـ، وقبره في قرية بيت جيرين من قضاء الخليل في فلسطين، وكان له مقام يزار بالقرب من القرية، قبل أن يستولي عليها الأعداء سنة ١٩٤٨ م.

٧ ـ أعقابه في فلسطين شهروا باسم الداريين، ثم التميميين، وهم

منتشرون في الخليل ونابلس وغيرهما من المدن والقرى.

٨ ـ له مناقب ومآثر تفرّد بها، أعلاها رواية الرسول عنه حديث الجساسة، وله كرامات تدل على مكانته بين العابدين.

٩ ـ استغرق في عبادة ربه حتى زالت الحُجبُ، فكان يرى الجنة ونعيمها فتزيده إقبالاً على ربه، ويرى النار وجحيمها فتزيده نفوراً من الآثام وأجرى الله على يديه كرامات الأولياء المقرّبين.

١٠ ـ عرفنا أنه تزوج في إسلامه مرتين: الأولى كانت أخت أبي بكر الصديق ذكرها ابن قتيبة في المعارف، والثانية أم المغيرة، قرشية، زوجها له رسول الله ﷺ إكراماً له لإسراجه المسجد النبوي.

١١ ـ روي أنه تولى إمارة بيت المقدس، وربما كان ذلك ما بين سنة ٣٥ ـ ٤٠ هـ. وهي المدة التي سكنها في فلسطين بعد مقتل عثمان بن عفان. ولم يذكر أنَّ تميماً كان أمويّ النزعة من أنصار معاوية، ولكن اللخميين والجُذاميين كانوا مع معاوية، لأنهم يسكنون الشام.

١٢ ـ أبرزُ جوانب القُدْوة في سيرة تميم الداري، الإقبال على عبادة ربّه والاقتداء بسنة نبيه ﷺ، مع الأخذ بنصيبه من الدنيا..

* * *

والحمدُ للّه في البدء والختام، أن وُفّقتُ لإحياء سيرة هذا الصحابي وجَمْع شتات ما تفرق منها، عسى أن تكون في ميزان الأعمال التي لا ينقطع ثوابها، بعد تمام الأجل المكتوب، وأسأل الله القبول من الفقير إلى رضوان الله.

محمد محمد حسن شراب

المراجع والمصادر

١ ـ في الدراسات القرآنية:

ـ تفسير ابن كثير.

ـ تفسير الكشاف: للزمخشري.

ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للسيوطي.

ـ النبوة والأنبياء: محمد الصابوني.

ـ أسباب النزول: للسيوطي.

٢ ـ في الحديث الشريف:

ـ فتح الباري: لابن حجر.

ـ شرح صحيح مسلم: للنووي.

ـ مسند الإمام أحمد.

ـ مسند أبي يعلى الموصلي: تخريج الشيخ حسين أسد.

ـ مسند عمر بن عبد العزيز.

ـ سنن الدارمي.

ـ سنن الدارقطني.

ـ سنن ابن ماجه.

ـ نيل الأوطار: للشوكاني.

ـ دلائل النبوة: لأبي نُعيم.

ـ موطأ الإمام مالك.

ـ معجم الطبراني الكبير.

ـ سنن النسائي.

٣ ـ في التراجم:

ـ الإصابة: لابن حجر.
ـ الاستيعاب: لابن عبد البر.
ـ الطبقات الكبرى: لابن سعد.
ـ تهذيب التهذيب: لابن حجر.
ـ تهذيب تاريخ دمشق: لابن عساكر.
ـ لسان الميزان: لابن حجر.
ـ ضوء الساري: لأحمد بن علي المقريزي.

٤ ـ في التاريخ والأنساب:

ـ جمهرة أنساب العرب: لابن حزم.
ـ الاشتقاق: لابن دريد.
ـ البداية والنهاية: لابن كثير.
ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: للقاضي مجير الدين الحنبلي.
ـ بلادنا فلسطين: مصطفى مراد الدباغ.
ـ الموسوعة الفلسطينية.
ـ معجم بلدان فلسطين: محمد شراب.
ـ خطط الشام: محمد كرد علي.
ـ صبح الأعشى: للقلقشندي.
ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي.
ـ سيرة ابن هشام.

محتوى الكتاب

الفصل الأول
العرب في بلاد الشام

الفصل الثاني

القلوب تهفو للشام

الفصل الثالث

نسب تميم الداري وموطنه

الفصل الرابع
إسلام تميم الداري

الفصل الخامس
إقطاع النبي ﷺ تميماً أرضاً في فلسطين

الفصل السادس
مناقبه وآثاره

الفصل السابع

مسند تميم الداري

صدر للمؤلف:

١ ـ «المدينة في العصر الأموي» ـ دار التراث بالمدينة ١٩٨٤ م.

٢ ـ «أخبار الوادي المبارك» «العقيق» ـ دار التراث بالمدينة ١٩٨٥ م.

٣ ـ «معجم بلدان فلسطين» ـ دار المأمون بدمشق ١٩٨٨ م.

٤ ـ «شوارد النحو» ـ دار المأمون بدمشق ١٩٨٩ م.

تحت الطبع للمؤلف:

١ ـ المعالم الأثيرة في السنة والسيرة.

(دار القلم بدمشق)

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.

٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.

١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.

١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري

١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.

١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.

١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب.

تحت الطبع:

٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ الإمام الأوزاعي
تأليف د. عبد الستار أبو غدة.
٣٢ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
٣٣ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف د. محمد الزحيلي